STORIES FROM CLASSICAL RUSSIAN LITERATURE

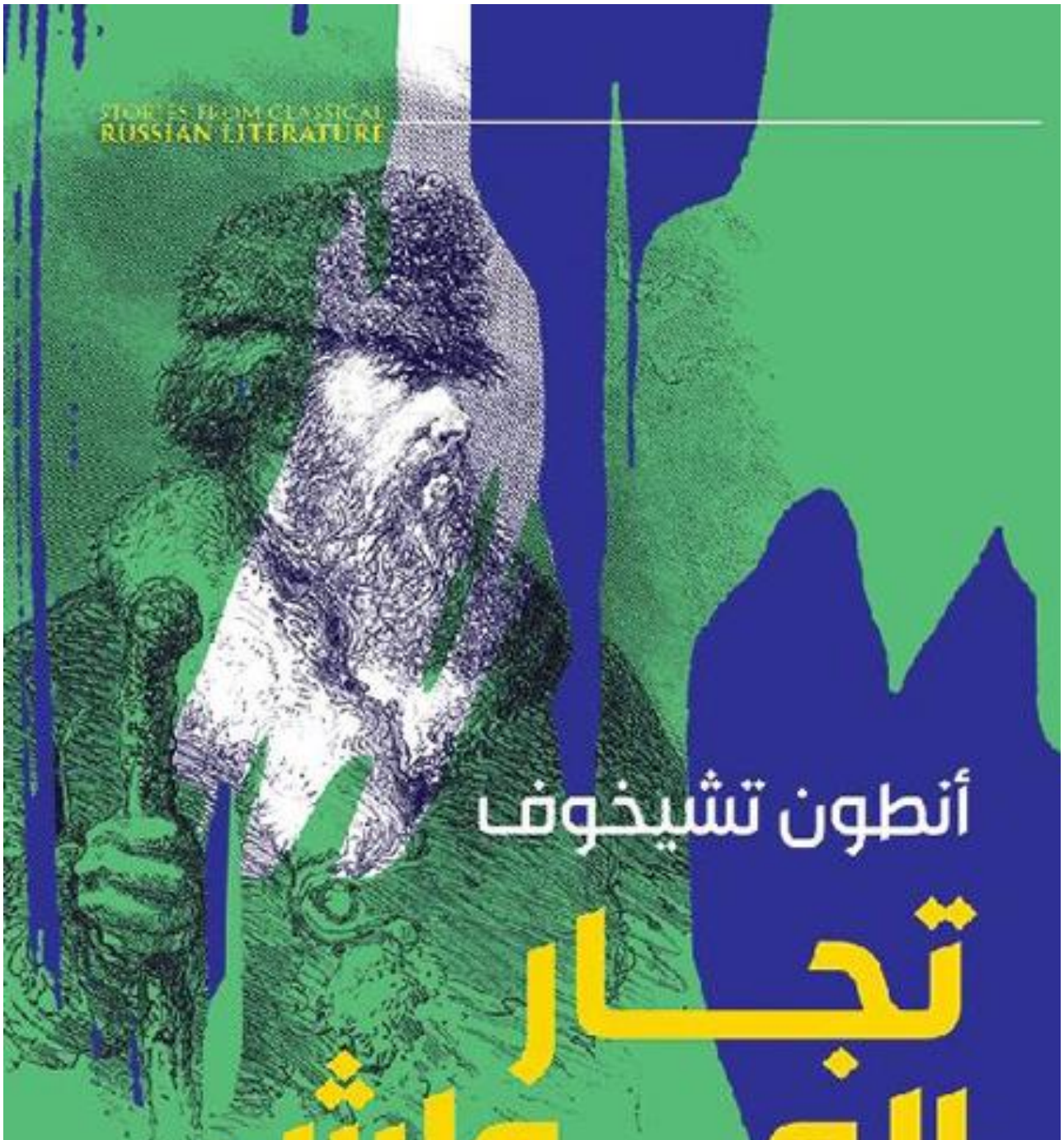

أنطون تشيخوف

تجار المواشي

وقصص أخرى

ترجمة | ياسر زمّو

كتوبيا

KOTOBIA PUBLISHING HOUSE

ترجمات

تجار المواشي

تأليف أنطون تشيخوف

ترجمة ياسر زمو

تحويل وتنسيق

د/ حازم مسعود

https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

مقدمة المترجم

حين شرعت منذ زمن في قراءة قصص تشيخوف لأول مرة، لا أدري كيف تسلط ذاك الشعور الغريب، المبهم، على روحي بعد انتهائي من أول قصة له، أتذكر أنني أخذت أحدق في الجدران دون أن يرف لي جفن، ثم رجعت للقصة مرة أخرى، وقلّبت في صفحاتها، وأعدت قراءة كلماتها، وسرحت في سطورها، ورحلت مع أماكنها، ثم عدت أتطلع حولي بحثًا عن تفسير للحالة التي استحوذت على نفسي.، وشعرت بنفحة لطيفة مثل نفحات الربيع تداعبني، تلك الأماكن المبهرة التي أخذني تشيخوف إليها، وتلك الحسناوات اللواتي قابلتهن، ورأيت قاماتهن الفاتنة، وتأملت في قسمات وجههن الجميلة، وفي فساتينهن المزركشة، وسحرتني حركاتهن الفراشية اللطيفة، أم تلك السهوب التي جريت مع النسيم فوقها، والسماء التي رقصت مع نجومها المتلألئة، أم الضفاف التي استلقيت عليها وأنا أنتظر حمرة الشمس أن ترسم لوحة مبهرة في الأفق ثم تنساب فوق النهر... لقد كنت أسرح بين قصصه في عوالم لم أكن من قبل أعرفها، وكانت المشاعر الجميلة، والمبهجة، والحزينة تختلط داخلي وتتأجج كتخبط الأمواج مع سير السفن، لقد أبحرت معه في رحلاته، وركضت مع شخصياته وأبطاله، وتعثرت في البساتين والحقول، واسترقت النظر إلى السماء وهي تلبس حلة الغسق على استحياء.

فيعز عليّ ألا أسمح لدفء مشاعري تجاه تشيخوف أن تظهر وتتسم بعبارات لعلها تعبّر عن إعجابي بكتاباته، وحين أريد أن أنصفه أجد نفسي عاجزا عن انتقاء كلماتي لوصف هذا العبقري، الإنساني، الرقيق، أيّ أحاسيس يحملها في روحه؟ وأي مشاعر تلك التي في قلبه؟ وكلما أعدت قراءة قصة من قصصه أجد نفسي ما زلت أجهل عذرية هذا القلب وطفولته، إن تشيخوف لم يكن كاتبًا يصوّر المثالية بشخصياته، بل يذهب بواقع الناس وحقيقتهم إلى درجة مرعبة، ويعترف بالخطأ من أصغر الناس لأكبرهم، من فقيرهم إلى غنيهم، وأكثر من قرأ للكاتب الروسي، أنطون تشيخوف، سيجمع على أنه أعظم من كتب القصة القصيرة في التاريخ، وإلى كونه كاتبًا مسرحيًا حذقًا برع في وصف خفايا النفوس البشرية.

في يوم التاسع والعشرين من يناير عام ١٨٦٠، أتى أنطون تشيخوف إلى هذه الدنيا مولودًا في مدينة تاغانروغ، ابنًا ثالثًا بعد أخويه «ألكسندر» و«نيكولاي»، ثم أتى بعده أخويه «إيفان» و«ميخائيل»، وأختين طرق الموت باب إحداهما في طفولتها المبكرة، وكان بافيل تشيخوف، والد أنطون، الذي يملك محل بقالة، معروف بقسوته وصرامته مع أنطون وإخوته، فقد كان يجبر تشيخوف الصغير وإخوته على الإنشاد في جوقات الكنيسة، والوقوف لساعات للعمل في البقالة في الوقت الذي يكون أكبر هم الصغار من أبناء جيله هو مطاردة الفراشات، والجري في الهواء الطلق، وقد وصف تشيخوف طفولته هو وأخوته بـ «المعاناة»، كما جاء في رسالة أرسلها في التاسع من مارس عام ١٨٩٢ إلى «إيفان ليونتفيتش ليونتيف»:

(أتعلم، حين كنت أنا وإخوتي نقف وسط الكنيسة وننشد «لتتبارك صلاتي» أو «صوت سيد الملائكة، «كان الجميع يتطلعون إلينا بحنو ويضمرون الحسد لآبائنا، لكننا شعرنا في تلك اللحظة بأننا مدانون قليلًا، نعم، يا صديقي العزيز! أنا أفهم راتشينسكي، لكن الأطفال الذين تدربوا على يديه لا أعرف

كيف أن أرواحهم لتبدو مظلمة بالنسبة لي، إن كان في أرواحهم بهجة، فهي أكثر سعادة مني أنا وأخواتي الذين كانت طفولتهم معاناة...) .[1]

أما مهجة الأمومة وحنانها فقد لعبت دورًا كبيرًا في درء رقة تشيخوف، فقد أخذت يفغينا تشيخوف، والدة أنطون، دور الأم العطوف على أولادها في الوقت الذي كانت ضحكاتهم وأحلامهم الصغيرة تمحى تحت سطوة الأب وقسوته، وأنّ حبها الذي شاركته لأنطون وإخوته الأشقياء، وموهبتها في رواية القصص التي عاشتها مع والدها التاجر، صنعوا موهبة فريدة يصعب أن تتكرر في عالم الأدب، ولهذا كان يقول:

(لقد أخذنا المواهب من آبائنا، أما الروح فأخذناها من أمهاتنا) .[2]

في العام ١٨٧٦ اضطر والده لكثرة ديونه للفرار إلى موسكو هربًا من الدائنين، في حين التحق إخوة تشيخوف ألكسندر ونيكولاي بالجامعة، وعاشت العائلة في حالة من الفاقة والعوز، وظل أنطون في تاغانروغ في منزل أسرته لاستكمال تعليمه، والتحق بالمدرسة اليونانية في المدينة وواجه صعوبة في تعلم اليونانية، ومنذ تلك السنوات الثلاث التي قضاها في المدرسة بدأ أنطون الصغير يبني نظرته للحياة ويضمر في قلبه حبًا للقصص الرومانسية والتمثيل. وكان على تشيخوف عاتق مصاريف معيشته وتكاليف دراسته، لذا سعى الفتى ابن السادسة عشر على بيع بعض المشاهد المسرحية الهزلية للجرائد، وإعطاء الدروس الخصوصية، بالإضافة إلى بعض الأعمال الأخرى، كصيد طيور الحسون وبيعها، وخلال سنوات الدراسة الثلاثة، قرأ أعمالا عديدة من الأدب الروسي والعالمي مثل تورغينيف وشكسبير وغيرهما من الأدباء والشعراء.

أنهى تشيخوف تعليمه المدرسي في العام ١٨٧٩، ليسافر بعدها إلى أسرته في موسكو، ومنها التحق بكلية الطب في جامعة موسكو، وسعيًا منه لكسب المال من الكتابة في البداية ومساعدة أسرته في تدبر الحياة ومتطلباتها، وفي صورة تتجلى فيها السخرية والبساطة فوق كل شيء، بدأ تشيخوف رحلته في كتابة القصص واضعًا عوالمه وأساليبه المبتكرة للقصة القصيرة، ونشرت أول قصة له في العام ١٨٨٠ في مجلة «اليعسوب»، ومنها بدأ تشيخوف بالتعاون مع مجلات أخرى مثل «المنبه» و«الزائر» و«الشذرات»، ثم نشرت قصة «فانكا» في العام ١٨٨٦ في صحيفة بطرسبوغ الدورية موقعة باسمه المستعار «أنطوشكا تشيخونتا»، وفي نفس العام حصل تشيخوف على وظيفة في جريدة «الزمن الجديد»، وكان أنطون في تلك الفترة قد نشر مجموعته القصصية التي تحمل عنوان «حكايات

---

[1] انظر

.Чехов А. П. Письмо Леонтьеву (Щеглову) И. Л.، 9 марта 1892 г
Мелихово Чехов А. П. Полное собрание сочинений и писем: В 30
.т. Письма: В 12 т

[2] انظر Letters of Anton Chekhov. biographical sketch by Constance Garnett. P.5

متنوعة» ثم في العام الذي يليه «محادثات بريئة» ثم بدأ بعدها يوقع القصص باسمه الحقيقي، وفي العام ١٨٨٧ منح تشيخوف جائزة بوشكين لمجموعته القصصية «عند الغسق».

يصعب علينا أن نقول عن أديب ما أنه قد جاء من فراغ، فالعظماء والمبدعون قد تأثروا وأثروا في بعضهم روحًا وفكرًا دون عوائق مكانية أو تباينات زمانية، فمن اطلع على أعمال الأدباء العالميين وصادق الشعراء والكتّاب والموسيقيين أمثال «تولستوي» و«غوركي» و«بيتر تشايكوفسكي»، لا بد وأن يترك عبقًا يمزج بين الخيال والجمال والرقة بتناغم شاعري خاص به، ونحن حين ننظر إلى أنطون تشيخوف، نراه حلقة في سلسلة من عمالقة الأدب الروسي الذي بزغت شمسه بعد الإصلاحات والإدخالات التي قام بها القيصر بطرس الأول، الذي تولى حكمه في العام ١٦٦٢، والذي كان معجبًا بالحضارة الغربية، ولذا عمد بدوره إلى إدخال الطابع الغربي إلى المجتمع الروسي، ذاك ما أسهم بصورة كبيرة في اتّسام الأدب الروسي صبغة غربية متأثرة بالأدب الكلاسيكي، ويشير النقاد إلى تلك الحقبة الأدبية ببداية ظهور الأدب الروسي، أو كما تعرف ببداية الأدب الحديث، الذي لربما كان أبرزها ميخائيل لومونوسوف، ومنها إلى العصر الرومانسي الذي يشار إليه بدءًا من أواخر القرن الثامن عشر إلى أربعينيات القرن التاسع عشر، والذي تأثر رواده بالشعراء الإنكليز أمثال بايرون وشكسبير، ولعل أبرز رواده شاعر روسيا الأكبر «ألكسندر بوشكين». وباعتبار تشيخوف وليد الواقعية المتأخرة، وحفيد عصري الواقعية والرومانسية، وهو رغم كونه ولادة جديدة في هذا الأدب البديع، إلا أنه إمتداد للحقبات الأدبية التي برز فيها الأدب الروسي وشاع نوره في سجايا مجتمع مظلم. وأكثر ما اتسمت الحركة الأدبية التي جاء فيها تشيخوف، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هي الوحشة والعزاء والنقد لروسيا والمجتمع الروسي، والتي ظهرت نتيجة قسوة الحكم القيصيري بعد منتصف القرن التاسع عشر، وتفشي الفساد بين أصحاب المناصب الحكومية، وحتى العيوب المنتشرة بين أوساط المجتمع الروسي المختلفة طبقاته.

وقد يتسنى للمرء أن يتساءل: من هم أبطال تشيخوف؟ كوننا اعتدنا أن يكون أبطال الروايات جنديا من جنود فرسان الخيالة، أو أميرا في أحد الحصون أو القلاع، أو بطلا من أبطال الرومانسية الذين يتزوجون خليلاتهم... لكن ماذا عن حوذي عجوز بائس ضاع صباه عبثًا، وخيّبت الحياة آماله؟ وبقال بسيط يعيش صراع الوجود في حانوته الصغير الذي لم يسمع عنه أحد؟ أو موظف متخبط لا يرى أملا لمستقبله أو معنى لحياته؟ أو إسكافي وبواب وعامل بالكاد يلاحظ الناس وجودهم ويشعرون بما يقاسونه...؟

لعلّي أقول ويتفق معي الكثيرون أن تشيخوف قد قدم أنساقًا مميزة للقصة والمسرح حملت طابعه الذي يبرزه، وهي الواقعية التي يذهب إليها بصورة جميلة، والبساطة في سبر أغوار الشخصيات الاجتماعية التي كانت جزءًا من المجتمع الروسي آنذاك، بدءًا من أصحاب المناصب والسياسيين والمثقفين والموظفين والعمال والفلاحين وحتى الأطفال.

ويبدو أن الصراع الطويل بين فرض المثالية والواقعية قد تحول إلى معركة أدبية أعلن فيها تشيخوف نصره بالبساطة العذبة التي أحضر بها أبطاله من واقعه.

وربما كون طبيعة عمله كطبيب، جعله قريبًا وعارفًا بالفقراء والفلاحين والعمال والبسطاء والسادة شتى الشرائح الاجتماعية والثقافية، وإلى جانب هذا، كان تشيخوف شغوفًا في الطبيعة بشدة، فقد أدرك مدى اتصال الإنسان بالطبيعة وارتباطه فيها، وبدا ذلك جليًا في تأثيرها على شخصياته. وما استكانت مشاعر الشفقة عنده أن تظهر على الإنسان فحسب، بل حتى على الحيوان والطبيعة، ففي كثير من قصصه كان يشير إلى مشاعر الفرس الذي تضرب تحت سوط الحوذي، ويشعر بألمها ومعاناتها، بل حتى أشجار الصفصاف الخاملة على ضفوف الأنهار والبتولا التي في الغابات، كان يحس بالأوقات الرتيبة التي تمر فيها، ويبدع في وصف مشاعرها بتعابير جميلة منمقة، ولا تكاد تخلو قصة من قصصه الرومانسية من وصف للسهوب، والسهول، والحقول، والبساتين، والوديان، والسماء التي تلمع إما بقطرات المطر أو بندف الثلج الأبيض.

وقبيل بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر، بدأت قصص تشيخوف تأخذ منحًا تطوريًا احتوى كشفًا عميقًا للمفاهيم والمبادئ الراسخة عند الناس، وتساؤلات فلسفية ونفسية واجتماعية كبيرة، وبدأت أعماله ترتكز على الأفكار والمشاعر التي تمر بها أبطاله، وتأثير الظروف الموضوعية على بناء التصورات لدى هذه الشخصيات. ففي قصة «الرهان» التي نشرت عام ١٨٨٩، والتي يصفها الكثير من النقاد بأنها أعظم ما قد كتبه الكاتب في حياته الأدبية، يتطرق تشيخوف إلى أسئلة هائلة لا تغيب عن ذهن أحد، وهي الحياة والحرية والموت، فقد رأى تشيخوف من نظر بطل قصته، المحامي الشاب، الذي أنكر أن يكون الموت أرحم من السجن المؤبد، أن الحياة والحرية تنبع من عمق النفس الإنسانية ونظرتها للعالم وما بعده. ورغم أن ذاك الشاب قد راهن على حريته في سبيل الفكرة، ورغم أنه لم يستطع أن يتصل بالعالم الخارجي إلا عبر نافذة صغيرة، إلا أنه أدرك حرية وسعادة لم يكن ليدركهما دون أن يسجن ويقضي سجنه بين جنبات كتب الأدب والتاريخ والفلسفة وتعلم اللغات، ويصور لنا تشيخوف كيف رأى هذا الشاب عبثية العالم الخارجي والناس الذين يمضون بلا هدف غير مدركين سعادة العلم، الذاهبون إلى لا شيء، المنتظرون للموت المحتوم الذي سيخفيهم من على وجه الأرض.

وفي قصة «الراهب الأسود» التي نشرت عام ١٨٩٢، والتي ترجمها للعربية لأول مرة الدكتور «أبو بكر يوسف»، يدرس تشيخوف الظواهر الغير طبيعية في النفس، إذ يروي عن بطل قصته «أندريه كوفرين«الشاب الطموح والشغوف للعلم والمعرفة، الحاصل على ماجستير في الفلسفة، الذي بدأت علامات مرض السل بالظهور عليه في أواخر سنه الثلاثين، والذي يضطر للسفر إلى الريف والعيش هناك نية التعافي، فيشرع في قضاء وقته في القراءة والكتابة وهو منتشٍ في ثنايا العلم والمعرفة، إلا أنه لا يستكين له بال ولا يهدأ له خاطر، فرغم أنه إنسان مثقف ورجل متعلم، إلا أنه كان يؤمن بأسطورة قد لا يصدق بها الأطفال، وكانت تشغل تفكيره طوال الوقت، وهي ظهور راهب بحلة سوداء يخترق القواعد الفيزيائية ويسافر في أنحاء الأرض بصورة غريبة، وأن هذا الراهب ما كان ليظهر إلا لأولئك الذين يخدمون الحقيقة، وما إن يروي كوفرين رؤياه عن الراهب إلى الشخصيات الثانوية، حتى يشفقوا عليه ويشخصوا حالته بالجنون، ويبدؤوا بمعالجته نفسيًا وجسديًا كي يعود مثل أي إنسان عادي. فلا يعود يرى الراهب، ولا يعود مجنونًا، بل إنسانًا عاديًا مثل كل أفراد القطيع، وهنا تظهر إشارة تشيخوف الصريحة إلى أن الذين يؤثرون في هذا العالم ليسوا أبدًا من الناس

العاديين، بل هم المجانين في نظر مجتمعهم وذويهم، وأنه ربما ليس عليهم أن يتحدثوا عن أفكارهم الكامنة والدفينة في ذواتهم للمحيطين بهم.

وفي قصته «تجار المواشي» ١٨٨٧ يعبر تشيخوف عن قلقه من تقبّل المجتمع الروسي، من العمال والحراس وأصحاب المناصب والمسؤولين، الرشاوي «بدم بارد» كما سمّى عنوان قصته، ويشير إلى خطورة إعتبار المسألة أمرًا عاديًا وتفشيها في المجتمع.

وفي «مسافر على الدرجة الأولى» ١٨٨٦، يعرض تشيخوف بسخرية مريرة قصة المهندس كريكنوف الذي يشعر باستياء شديد للمفهوم السائد للشهرة والعظمة، ويقف موقف الباحث عن معنى هذه الكلمة ووصفها الصحيح في ظل احتكارها من قبل التافهين والمنحطين والأشخاص العديمي القيمة.

وإلى جانب كتابته للقصص والروايات القصيرة، كتب تشيخوف مسرحيات خلدت اسمه في المسرح الكلاسيكي العالمي. ولعل أشهرها مسرحية «النورس» ١٨٩٦، و«العم فانيا» ١٨٩٧، و«الشقيقات الثلاث» ١٩٠١ و«بستان الكرز» ١٩٠٤، وسلطت معظم مسرحياته الضوء على الأحداث الرتيبة التي تمضي بها الحياة الريفية، ومشاعر الانفراد والوحشة والفراغ الذي تمر فيهم شخوصه المسرحية، إلى جانب انعدام الإرادة في عيش أفضل، والبحث عن معنى الحياة والوجود.

مر تشيخوف في حياته بعدد من العلاقات العاطفية، ولعل أول حب وقع فيه كان في العام ١٨٨٨، حيث انجذب أنطون إلى «ليكا ميزينوفا» الفتاة ذات التاسعة عشر، التي كانت صديقة لأخته «ماشا»، وقد أضمرت ليكا أماني في قلبها بأن تكون زوجة أنطون، لكن يبدو أن تشيخوف أراد أن يكون حرًا ومستقلًا، ولم يكن يرى فيها الزوجة المناسبة، لكن هذا لم يمنع من أن تبقى أواصر الصداقة بينهما، لكن دون التحدث عن الزواج وبناء الأسرة.

وفي العام ١٨٩٠، سافر تشيخوف برحلة طويلة متنقلًا بأكثر من وسيلة نقل إلى جزيرة سخالين في اليابان، وهناك قابل الكثير من المحكوم عليهم، وكان تشيخوف يصف رحلته الشاقة والمرحة في مراسلات لأهله وذويه، وفي رسالة أرسلها إلى أمه يفغينا في العشرين من شهر يونيو عام ١٨٩٠، وقد ترجمها للعربية «ياسر شعبان»:

(كانت رحلتنا عبر بحيرة بيكال رحلة رائعة للغاية. ولن أنساها ما حييت. لكنني سأخبرك بشيء غير لطيف فيها؛ لقد سافرنا في الدرجة الثالثة، وكان السطح بكامله ممتلئًا بالخيول، كانت خيولًا برية هائجة طوال الوقت، ولقد أضفت هذه الخيول مسحة خاصة على عبورنا البحيرة).

وفي العام ١٨٩٤، نشرت يومياته «جزيرة سخالين» التي تتحدث عن المحكومين والسجناء والمغامرات التي عاشها في رحلته.

وفي العام ١٨٩٧، أخذت علامات المرض تظهر على تشيخوف، إلى أن يصاب في رئتيه بنزيف حاد، ويشخص الأطباء حالته بمرض السل، الذي ترك هذا المرض أثرًا كبيرًا في حياة تشيخوف

الإنسان، وعوالم تشيخوف الفنان. وقد أظهرت الكثير من شخصيات قصصه التعب والمعاناة اللذان يلحقان بمرضى السل.

وبعدها بعام توفى والد تشيخوف، ليقرر تشيخوف الانتقال إلى مدينة مالطا، وهناك اشترى قطعة أرض وبنى عليها عذبته الذي اعتنى ببستانها وزهورها، وتجسد حبّه للبستان في مسرحية «بستان الكرز»، وأصبحت هذه العذبة بلاطًا لكبار الشخصيات الثقافية والأدبية، مثل مكسيم غوركي وليف تولستوي وغيرهما.

وفي نفس العام، عرضت مسرحية تشيخوف «طائر النورس»، وفي أثناء بروفات العرض، التقى تشيخوف بالمرأة الجميلة والساحرة، الممثلة «أولغا كنيبر»، التي يبدو أنها تمكنت من أن تداعب مشاعر تشيخوف وتدخل إلى قلبه، إلى أن تزوجا في العام ١٩٠١، وكانت الرسائل التي يرسلها تشيخوف تخفي انطباعًا مبهمًا بشأن زواجه من كنيبر، فلم تترك أولغا المسرح، في حين قضى تشيخوف معظم أوقاته في يالطا صريع مرضه، ولم تمدد أواصر المحبة الزوجية أبعد من لقاءات عرضية مثل أي صديقين، ويعتقد معاشرو تشيخوف أن زواجه من أولغا كان نقمة في حياته، ولربما لو ظل بلا زواج لقضى حياته أسعد.

ومع كل هذه الأحداث التي مرت على الكاتب الرقيق، كان المرض يزداد شدة بشكل تدريجي عام بعد عام، ويبدو أن زواجه لم يحسن من وضعه الصحي، بل زاده مرضًا كما كان يرى الكاتب «إيفان بونين»، أن وقع المرض اشتد عليه بسبب كثرة غياب أولغا عنه، في حين أن أخت تشيخوف «ماشا» لم تكن توافق الكاتب إيفان في رأيه، وفي الثالث من يونيو عام ١٩٠٤، سافر مع زوجته أولغا تشيخوف إلى مدينة بادينوويلر الألمانية بعد اشتداد وطأة المرض عليه، وكانت الرسائل التي يرسلها إلى أمه وشقيقته ماشا تشير إلى تحسن صحي مستمر. إلى أن جاءت تلك الليلة المكفهرة في الثاني من يوليو، التي أحس فيها تشيخوف بسوء حالته واقتراب الأجل، وعلى إثرها طلب الطبيب ليقول في الألمانية آخر كلمة له في الحياة:

«إنني أموت!» وتصعد بعدها روحه بصمت وينام في سكون، وينقل بعدها جثمانه إلى موسكو ليدفن إلى جوار والده في مقبرة نوفوديفيتشي.

وإن رحل تشيخوف عن هذا العالم جسدًا وروحًا، إلا أنه لا زال يعيش فيه قلبًا، وسيبقى حيًا بقصصه وعوالمه التي نعيش معه فيها، لقد ترك تشيخوف رحيقًا أدبيًا سيظل يرافق أجيال البشرية أبدًا، وسنبقى نتذكر ذاك الإنسان العطوف والخائف على الإنسانية، ونراه كمن يقف وسط حشد غفير من الناس ويشير بيده لقرائه صوب طريق الخلاص والارتقاء.

ويخيّل إليَّ أن البشرية ستعود لإنسانيتها إن تعثرت بأعماله وقرأت له، وليس على الناس إلا أن يقفوا ويشيروا من بعيد إلى تلك النجمة التي تتلألأ في فضاء مظلم ويقولوا ذاك هو أنطون تشيخوف...

ياسر محمد زمّو

مرسين - ٢٠١٩

شمبانيا [٣]

- «قصة مسافر»

في السنة التي بدأت فيها قصتي كنت قد حصلت على وظيفة في محطة صغيرة تقع على القسم الجنوبي الغربي للسكك الحديدية، وما إذا كانت حياتي غريبة أو مملة في المحطة؛ فيمكنكم الحكم على ذلك من أنه لم يكن هناك من سكن بشري واحد على امتداد خمسة عشر ميلًا... لا امرأة واحدة ولا حانة واحدة لائقة... وقد كنت في تلك الأيام شابًا، قويًا، متهورًا، طائشًا، وأحمقا. والشيء الوحيد الذي يمكنني أن أصرف إليه انتباهي هو نوافذ المسافرين في القطار، والفودكا الرديئة التي يشربها اليهود مع نبتة التفاح الشوكية، ويحدث في بعض الأحيان أن يكون هنالك لمحة خاطفة لرأس امرأة عند نافذة المقطورة، ويمكن للمرء أن يقف مثل الصنم دون أن يتنفس وهو يحدق في القطار حتى يتحول إلى بقعة غير مرئية، أو أن يشرب كل ما يستطيع شربه من الفودكا المقرفة حتى يصبح غبيًا ولا يشعر بمرور الساعات والأيام الطويلة.

حولي، من جهة الشمال، السهب الذي يولد شعورًا مثل مقبرة مهجورة للتتار، في الصيف يكون السهب في هدوئه المتزن، حيث يدفعني صرير الجراد الممل وضوء القمر الشفاف الذي لا يستطيع المرء أن يخفيه إلى كآبة متراخية. وفي الشتاء، بياض السهب الذي لا شائبة فيه، مسافته الباردة، الليالي الطويلة، وعواء الذئاب؛ يعذبونني مثل كابوس ثقيل.

كان بعض الناس يعيشون في المحطة؛ أنا وزوجتي، كاتب تليغراف أصم ومشوه الوجه [٤]، وثلاثة حراس، واعتاد مساعدي وهو شاب مريض بالسل، أن يذهب للعلاج في المدينة، حيث كان يمكث عدة أشهر في كل مرة، تاركًا واجباته عليَّ مع الحق في وضع مرتبه في جيبي، لم يكن عندي أطفال، ولا عندي كعك يغري الزائرين لزيارتي ورؤيتي، وليس بإمكاني سوى زيارة المسؤولين الآخرين على نفس الخط، وهذا غالبًا لا يحدث أكثر من مرة في الشهر.

أتذكر زوجتي وليلة رأس السنة الجديدة التي جلسنا فيها على المائدة... كنا نمضغ الطعام بكسل ونسمع نقر كاتب التلغراف على جهازه في الغرفة المجاورة، كنت قد احتسيت خمسة أكواب من الفودكا المخدرة، وأسندتُ رأسي الثقيل على راحة يدي من الملل الخانق الذي لم يكن منه مهرب، بينما جلست زوجتي بجانبي ولم ترفع عينيها عني، ونظرت إليّ نظرة المرأة التي لا تملك شيئًا في هذا العالم سوى

---

[٣] جاءت كلمة «شمبانيا» «ШАМПАНСКОЕ» كعنوان لقصتين كتبهما تشيخوف. هذه القصة نشرت في صحيفة بطرسبرغ لأول مرة في الخامس من يناير عام ١٨٨٧ بتوقيع «أنطون تشيخونتا «وقد ترجمت القصة في حياة تشيخوف إلى البلغارية والألمانية والصربية والكرواتية والفنلندية. أما القصة الثانية التي تحمل نفس العنوان فقد نشرت لأول مرة في مجلة «شظايا» أو «شذرات» في الرابع من يناير عام ١٨٨٦ وتحمل توقيع «رجل بلا طحال». المترجم

[٤] تشويه في الوجه بسبب مرض السل. المترجم

زوج وسيم، لقد أحبتني بجنون، بشكل طاغ، ليس بمظهري الجميل أو بروحي... بل بآثامي ومزاجي السيء وضجري... بل وحتى بقسوتي وبغضبي حين أكون ثملًا، ولم أكن أعرف كيف أنفّس عن مزاجي السيء إلا بتعذيبها بالتوبيخ.

على الرغم من الملل الذي كان يلتهمني كنا نستعد لاستقبال السنة الجديدة بحفلة استثنائية ونحن ننتظر منتصف الليل بقليل من التلهف، الحقيقة أننا ادّخرنا زجاجتين احتياطيتين من الشمبانيا، وكانت من نوع الكروكيه °في الواقع، هذا الكنز الذي فزت به الخريف الماضي في رهان مع مدير محطة (د) عندما كنت أحتسي النبيذ معه في حفلة التعميد.

يحدث أحيانًا خلال درس الرياضيات حين يكون الهواء مصحوبًا بكثير من الملل أن ترفرف فراشة أمام غرفة الصف، ويلقي الأولاد برؤوسهم ويبدؤون بمراقبتها باهتمام كما لو أنهم لم يروا فراشة بل شيئًا غريبًا وجديدًا؛ وبنفس الطريقة أثارتنا الشمبانيا العادية، التي كان قدومها إلى محطتنا الكئيبة محض صدفة.

جلسنا بصمت ونحن ننظر إلى الساعة والزجاجات بتثاؤب. وحين أشارت العقارب إلى الثانية عشر وخمس دقائق؛ شرعت ببطء في فتح الزجاجة. ولا أعلم ما إذا كنتُ تحت تأثير الفودكا أو ما إذا كانت الزجاجة مبللة، ولكن كل ما أتذكره هو أن سدادة الفلين طارت إلى أعلى السقف وأحدثت فرقعة، وانزلقت الزجاجة من يدي وسقطت على الأرضية، ولم يكن قد انسكب منها أكثر من كأس واحد، حيث تمكنت من التقاط الزجاجة ووضع ابهامي على رقبة الزجاجة المليئة بالرغوة.

وقلت:

- حسنًا، أتمنى لكِ السعادة في السنة الجديدة! اشربي!

وأخذت زوجتي كأسها وثبتت عينيها المذعورتين عليَّ، وكان وجهها شاحبًا وبدا أنه مرعوب. وسألتني:

- هل أسقطتَ الزجاجة؟

- نعم. وماذا في ذلك؟

وقالت وهي تضع كأسها ووجها ما زال شاحبًا:

- إنه سوء حظ... فأل سيء، هذا يعني أن قليلا من سوء الحظ سيرافقنا هذا العام.

تنهدتُ قائلًا:

° بالفرنسية في الأصل.المترجم

- يا لكِ من سخيفة، أنت امرأة ذكية ومع ذلك ما زلت تتكلمين بالكثير من السخافات مثل ممرضة عجوز... اشربي.

- أسأل الله أن تكون سخافة، ولكن... من المؤكد أنه سيحدث شيء! سترى ذلك!

ولم تأخذ من كأسها ولا رشفة، بل ابتعدت وغرقت في التفكير، ونطقتُ أنا بتعابير قديمة وغير مألوفة عن الخرافات، وشربتُ نصف زجاجة وأنا أرفعها وأضعها، ثم خرجتُ من الغرفة.

كان الليل لا يزال شديد البرودة في الخارج، وقاسيًا في جماله الذي لا يمكن للمرء أن يقطن فيه، القمر وغيمتان بيضاوان منفوشتان بجانبه ومعلّقتان فوق المحطة تمامًا، وساكنتان كما لو أنهما مصمّغتان على السماء، وبدتا وكأنهما في انتظار شيء ما، وأتى ضوء شفاف خافت من القمر ولمس الأرض بنعومة كما لو كان خائفًا أن يخدش حياءها، وأضاء بنوره كل شيء... ركام الثلج، الجسر... ولا زال يضيء.

مشيت على طول السكة الحديدية التي على الجسر.

وشرعت في التفكير وأنا أتطلع إلى السماء المتلألئة بالنجوم المضيئة:

- «امرأة سخيفة، لو اعترف المرء بأن الفأل يقول الحقيقة في بعض الأحيان؛ فما الشر الذي سيحدث لنا؟ إن سوء الحظ الذي عانينا منه والذي يواجهنا الآن كبير للغاية بحيث يصعب تصور أي شيء أسوأ منه... أي ضرر يمكن أن يلحق السمكة بعد أن تم صيدها وقليها وتقديمها مع الصلصة؟».

بدت شجرة الحور المغطاة بالصقيع في الظلمة المزرقة كأنها عملاق ملفوف في كفن، ونظرت إليَّ بتجهم واكتئاب وكأنها تدرك الوحدة مثل ما أدركها، ووقفتُ مدة طويلة أنظر إليها.

وسرحت في التفكير:

- «أفنيت شبابي عبثًا، مثل عقب سيجارة عديمة النفع... توفي والداي حين كنت طفلًا صغيرًا، وطردتُ من المدرسة الثانوية... ومع أني ولدت من عائلة نبيلة لكنني لم أتلقى تعليمًا ولا تربية، ولا أملك من المعرفة أكثر مما عند أضعف عامل صيانة، ليس عندي مأوى، لا علاقات، لا أصدقاء، لا عمل أحبه... ولست مؤهلًا لأي شيء، وأنا في عز قوتي لست نافعًا لشيء سوى أن أكون محنطًا في هذه المحطة الصغيرة... لم أعرف إلا المتاعب والفشل طوال حياتي، ماذا يمكن أن يحدث ما هو أسوأ؟».

لمعت أضواء حمراء من بعيد في الأفق، وكان قطار يتحرك باتجاهي، واستمع السهب الناعس لصوته، كانت أفكاري مريرة للغاية، لدرجة بدا لي أنني كنت أفكر بصوت عالٍ، وأن أنين سلك التلغراف ودويَّ القطار يعبران عن أفكاري.

وتساءلت بيني وبين نفسي:

- «ماذا يمكن أن يحدث ما هو أسوأ؟ خسارة زوجتي؟ حتى هذا ليس بالأمر الفظيع، ليس من الخير إخفاء هذا الأمر على نفسي، أنا لا أحب زوجتي، لقد تزوجتها عندما كنت صبيًا بائسًا فحسب، والآن أنا شاب وقوي، أما هي فقد تعفنت وكبرت وازدادت سخافة، ومحشوة بأفكار تقليدية من رأسها حتى أخمص قدمها، أي سحر يوجد في حبها الباكي وصدرها الأجوف وعينيها الباردتين؟ إنني أقضي أيامي معها، ولكنني لا أحبها، ماذا يمكن أن يحدث؟ شبابي يضيع، وكما يقول المثل، كسحبة سيجارة، النساء ترفرف أمام عيني عند نوافذ القطار فقط، مثل الشهب المتساقطة. لم أعرف الحب في حياتي ولم أحب، وإن رجولتي، وشجاعتي، وقدرتي على الإحساس ستدمر... كل شيء سيتم رميه مثل الزبالة، وكل ثروتي هنا هي السهب الذي لا يستحق أي قيمة كانت ولو ضئيلة «.

وهرع القطار يمضي أمامي بزئير وعدم مبالاة وألقى وهج أضوائه الحمراء على وجهي. ورأيته يتوقف عند الأضواء الخضراء للمحطة، توقف لمدة دقيقة ثم دمدم مرة أخرى، وبعد أن مشيت مسافة ميل ونصف عدتُ أدراجي، والأفكار الكئيبة ما زالت تطاردني ومؤلمة مثل ما كانت، وأتذكر كما لو أنني حاولت أن أجعلها أكثر حزنًا وكآبة. فكما تعلمون، ثمة لحظات تأتي على ضيّقي الأفق المغترين يكون شعورهم فيها بالبؤس هو سبب سعادتهم، حتى أنهم يتدللون ببؤسهم من أجل تسلية أنفسهم، هناك قدر كبير من الحقيقة فيما اعتقدت به، لكن هناك الكثير من العبثية والغرور أيضًا، وكان هناك شيء صبياني يتحدى في سؤالي:

- «ماذا يمكن أن يحدث ما هو أسوأ؟».

وسألت نفسي:

- «وماذا هناك ليحدث؟ أعتقد أنني تحملت كل شيء، لقد أصابني المرض، وخسرت أموالي، وتعرضت للتوبيخ اليومي من رؤسائي، وأذهب جائعًا والذئب المجنون يركض في ساحة المحطة، ماذا هنالك أكثر من ذلك؟ لقد تعرضت للإهانة والذل... حدث أن أهنت الآخرين في زماني، لم أكن مجرمًا يومًا، هذا صحيح، لكن لا أعتقد أنني قادر على ارتكاب جريمة.. ولست أخاف من أن أجرّ إليها».

ابتعدت الغيمتان الصغيرتان عن القمر ووقفتا على بعد مسافة أقصر، وبدتا وكأنهما تتهامسان بشيء لا ينبغي على القمر أن يعلم به. وكان النسيم اللطيف يركض عبر السهب محضرًا معه هدير القطار.

قابلتني زوجتي عند المدخل. كانت عيناها تضحكان بمرح وتملأ وجهها البهجة ومزاجها حسن.

وقالت هامسة:

- عندي أخبارك لك، أسرع، اذهب إلى غرفتك وضع معطفك الجديد، عندنا زائر.

- من الزائر؟

- لقد جات الخالة نتاليا بتروفنا بالقطار.

- من نتاليا بتروفنا؟

- زوجة عمي سيميون فيودريتش، أنت لا تعرفها، إنها امرأة جميلة ولطيفة للغاية.

على الأرجح أنني تجهمت بوجهي، أما زوجتي فبدت متحمسة وهمست بسرعة:

- طبعًا إن قدومها أمر غريب، لكن لا تكن صلبًا يا نيكولاي، ولا تكن قاسيًا عليها، إنها غير سعيدة، وكما تعلم أن العم سيميون فيودوريتش سيء المزاج ورجل استبدادي بحق، إنه من الصعب العيش معه، وتقول بأنها ستبقى عندنا لثلاثة أيام فقط ريثما تستلم رسالة من أخيها.

وظلت زوجتي تهمس بكلام هو أكثر من هراء بالنسبة لي عن عمها المستبد، وعن ضعف الجنس البشري بشكل عام والزوجات الشابات بشكل خاص، وعن أن واجبنا أن نقدم المأوى لجميع الناس حتى أكبر المذنبين منهم وهكذا. ووضعت معطفي الجديد وأنا غير قادر على معرفة وجهه من قفاه، وذهبت لأتعرف على «خالتي».

وكانت امرأة صغيرة ذات عيون سوداء واسعة تجلس أمام المنضدة، طاولتي، الجدران الرمادية، أريكتي الخشنة، كل شيء، حتى أصغر حبات الغبار بدت أصغر سنًا وأكثر بهجة في حضور هذا المخلوق الجديد، الشاب، الجميل، الفاسق، الذي تفوح أرقّ العطور من حوله. وكانت زائرتنا هذه سيدة ابنة نعمة استطعت رؤية ذلك من ابتسامتها ورائحتها ومن الطريقة الغير مألوفة التي نظرت بها ولعبت برموشها ومن اللهجة التي تحدث بها إلى زوجتي... امرأة محترمة.

ليس هناك من حاجة لقول أنها هربت من زوجها، ذاك العجوز المستبد، وأنها كانت طيبة القلب ومفعمة بالحيوية، لقد علمتُ كل شيء من النظرة الأولى، والحقيقة أنه لأمر مشكوك فيه أنه يوجد رجل في كل أوروبا لا يستطيع أن يكتشف امرأة ذات مزاج معين من النظرة الأولى.

وقالت الخالة وهي تمد يدها لي وتبتسم:

- لم أكن أعلم أن لدي ابن أخت كبير مثلك!

وأجبتها:

- وأنا لم أكن أعلم أن عندي خالة جميلة مثلكِ!

وبدأت الأمسية من جديد، وطارت سدادة الزجاجة وفرقعت للمرة الثانية، وتجرعت خالتي نصف الكأس جرعة واحدة، وعندما خرجت زوجتي من الغرفة لدقيقة لم تتردد خالتي باستنزاف كأس كامل... وأنا كنت في سُكرين من النبيذ ومن وجود امرأة.

هل تتذكرون الأغنية؟

«عيون سوداء مثل القار، عيون مليئة بالشغف،

عيون تشتعل بريقًا وجميلة،

كم أحبك،

كم أخافك!» .[٦]

لا أتذكر ماذا حدث بعد ذلك، من يريد أن يعرف كيف يبدأ الحب يمكن له أن يقرأ الروايات والقصص الطويلة، وأنا سأحكي قصتي بنفس كلمات الأغنية السخيفة:

«لقد كانت ساعة شر

يوم التقيت بكِ أول مرة».

كل شيء ذهب تحت قدم الشيطان،أتذكر الزوبعة المخيفة، الهائجة، التي دفعتني للطيران مثل الريشة... لقد استمرت لفترة طويلة، واجتاحت معها وجه الأرض وزوجتي وخالتي نفسها وقوتي، لقد دفعتني من المحطة الصغيرة في السهب إلى هذا الشارع المظلم كما ترى أعينكم.

أخبروني الآن... ماذا يمكن أن يحدث لي شر أكثر من هذا؟

---

[٦] أبيات من الأغنية الغجرية الشعرية للشاعر الروسي «يفغيني بافيلوفيتش غريبونكي» «П .Е. Гребенки» (1812-1848). المترجم

قصة سيدة [٧]

منذ نحو تسع سنوات، كنت أنا ونائب المدعي العام «بيتر سيرغيتش»، [٨] نمتطي الخيل ذات مساء في وقت الدريس لنحضر الرسائل من المحطة.

كان الجو بهيجًا، لكننا سمعنا دويّ الرعد أثناء عودتنا، ورأينا سحابة عاصفية غاضبة تتجه نحونا مباشرة. وكانت السحابة تقترب منا ونحن نقترب منها.

غدا منزلنا والكنيسة على وقع ذلك أبيضان، ولمعت أشجار الحور الطويلة مثل الفضة. وفاحت رائحة المطر والقش المجزوز، وكان مرافقي في روح معنوية عالية، وظل يضحك ويتكلم بشتى السخافات. وقال أنه من الممتع لو دخلنا فجأة على قلعة من العصور الوسطى ذات أبراج، وبداخلها طحالب وبوم، حيث يمكننا أن نحتمي من المطر ثم نموت بصاعقة في النهاية...

وتسارع الهواء عبر الجاودار وحقل الشوفان، وهبّت الريح وتطاير الغبار وهو يلتف في الجو. وضحك بيتر سيرغيتش وحث اللجام على حصانه.

وصرخ:

- إن هذا رائع! مذهل!

وبدأت أضحك أنا أيضًا متأثرة بابتهاجه، وبفكرة أن الأمطار ستغمرني في غضون دقيقة، وأن البرق قد يصعقني.

إن ركوب الخيل بسرعة في الهوجاء حين تنقطع أنفاس المرء مع الرياح، ويشعر بأنه مثل طائر، يرعش قلبه ويجعله يرفرف، في الوقت الذي وصلنا فيه إلى حوشنا كانت الريح قد هبطت، وتناثرت قطرات المطر الكبيرة فوق العشب وعلى الأسطح، ولم يكن هنالك من روح بجوار الاسطبل.

وأمسك بيتر سيرغيتش باللجام وأخذ الخيول إلى مرابطها، ووقفت أنتظره عند المدخل وأنا أراقب خطوط المطر المائلة، كانت رائحة القش الرائعة والمنعشة هنا أقوى مما هي في الحقول، وجعلت السحب العاصفية والمطر الجو يغدوان مثل الشفق.

---

[٧] نشرت القصة بعنوان «قصة السيدة ن.ن» «РАССКАЗ ГОСПОЖИ NN» لأول مرة في جريدة بطرسبرغ في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٨٨٧ موقعة باسم «أنطون تشيخونتا». وترجمت لعدة لغات في حياة المؤلف، منها الألمانية والرومانية والتشيكية. المترجم

[٨] كان اسم الشخصية في الأصل «ميخائيلوف»، ولكن تم استبداله إلى «بيتر سيرغيتش» بعد أن تم اضافة القصة وتنسيقها ضمن مجلدات تشيخوف. المترجم.

وقال بيتر سيرغيتش وهو قادم نحوي بعد قصف قوي للرعد بدا وكأنه قد شق السماء إلى شقين:

- يا لها من ضربة! ما رأيك بذلك؟

ووقف بجانبي عند المدخل ولا زال منقطع النفس من رحلته السريعة ونظر إليّ، وقد رأيت في نظرته إعجابه بي.

وقال:

- سأضحي بأي شيء لأبقى هنا فترة أطول وأنا أنظر إليكِ يا ناتاليا فلاديميروفنا، إنك جميلة اليوم.

نظر إليَّ بعينيه المبتهجتين والمتضرعتين، كان وجهه شاحبًا، وابتلت لحيته وشاربه بقطرات المطر المتلألئة، وخيل إليَّ أنها تتأملني بحب أيضًا.

وقال:

- أحبك!. أحبك وأشعر بالسعادة حين أنظر إليكِ، أعلم أنه لا يمكنك أن تكوني زوجتي، لكنني لا أريد شيئًا، أنا لا أطلب شيئًا، فقط اعلمي بأنني أحبك، كوني صامتة، لا تجيبيني، ولا تعيري للأمر انتباهًا. لكن اعلمي فقط أنك عزيزة على قلبي ودعيني أتأملك.

لقد أثّرت رقة كلماته في نفسي أنا أيضًا، ونظرت إلى وجهه المفعم بالحماس، واستمعت إلى صوته الذي اختلط مع زخات المطر، ووقفت كما لو أن سحرا أصابني، ولم أكن قادرة على الحراك، كنت أتوق للذهاب إلى مكان لا أمد فيه وأنا أتأمل عينيه البراقة وأستمع.

وقال بيتر سيرغيتش:

- لا تقولي شيئًا، إنه أمر مبهر... استمري في صمتك.

أحسست بالسعادة، وضحكت ببهجة وركضت تحت المطر الغزير إلى البيت، وضحك هو أيضًا وقفز يركض خلفي، تبللنا، لهثنا، وصعدنا الدرج محدثين ضجة كالأطفال، وأسرعنا إلى الغرفة، أبي وأخي اللذان لم يعتادا على رؤيتي أضحك وخاوية الهموم نظرا اليّ بدهشة وبدآ يضحكان هما أيضًا.

رحلت السحب العاصفية وتوقف الرعد، لكن قطرات المطر لازالت تتلألأ على لحية بيتر سيرغيتش، وكان طوال الليل حتى وقت العشاء يغني، ويصفّر، ويلعب مع الكلب بصخب ثم يتسابق معه في الغرفة، حتى كاد أن يوقع الخادم والسماور. وعند العشاء أكل الكثير من الطعام وتحدث بكلام سخيف، وأكدّ أن شذى الربيع يخرج من فم المرء حين يتناول الخيار الطازج في الشتاء.

حين ذهبت إلى فراشي أشعلت شمعة وأبقيت نافذتي مفتوحة على مصراعيها، واستحوذ شعور غامض على روحي. وتذكرت أنني حرة وأتمتع بصحة جيدة، وذات منصب ومال، وبأنني محبوبة، وفوق كل شيء، صاحبة منصب ومال... منصب ومال، يا إلهي! كم هذا جميل! ثم أخذتُ أتقلّب فوق

السرير على لمسة من الندى البارد الذي أتى من البستان، وحاولت أن أكتشف ما إذا كنت أحب بيتر سيرغيتش أم لا... وسقطت في النوم وأنا غير قادرة على الوصول إلى أي نتيجة.

وعندما رأيت في الصباح بقع الشمس المرتعشة وظلال أغصان الزيزفون على سريري، أقبلت أحداث الأمس إلى ذاكرتي بصفاء، وبدت لي الحياة غنية، مختلفة، ومليئة بالسحر. وارتديت ملابسي بسرعة وخرجت إلى البستان...

وماذا حدث بعد ذلك؟ ولماذا؟ لم يحدث شيء.

كان بيتر سيرغيتش يأتي لزيارتنا من حين لآخر، فالمرء لا يشعر بجاذبية معارفه الريفيين إلا في الريف وخاصة في وقت الصيف، أما في المدينة وفي الشتاء فيفقدون جاذبيتهم، وعندما تصب لهم الشاي في المدينة تشعر أنهم يتقمصون شخصيات أخرى غير شخصياتهم الحقيقية، ويظلون يحركون في شايهم طويلًا، كان بيتر سيرغيش يتحدث في بعض الأحيان عن الحب في المدينة كذلك، لكن وقع الأمر في الريف ليس كما هو في المدينة على الإطلاق، فنحن هنا في المدينة ندرك الجدار الذي بيننا بوضوح، فأنا صاحبة منصب ومال بينما هو رجل فقير وليس عريق النسب حتى، بل ابن شماس ويعمل نائبًا للمدعي العام، وكلانا يعتقد أن الجدار مرتفع وسميك للغاية، فأنا كنت أفكر في شبابي أما هو فلسبب غير معروف، وكان ينتقد المجتمع الأرستقراطي بابتسامة متكلفة حين يكون عندنا في المدينة، ويحافظ على صمته المتجهم حين يكون هناك أحد في غرفة الجلوس، لا يوجد جدار لا يمكن اختراقه، لكن أبطال الرومانسية الحديثة، كما أعرفهم، خجولون للغاية، بلا روح، كسالى، شديدو الحساسية، ومستعدون جدًا للاستسلام بأنهم محكومون بالفشل، لقد خيبت الحياة آمالهم، وبدلًا من الكفاح أصبحوا ينتقدون فحسب، ويصفون العالم بأنه مبتذل وينسون أن انتقادهم يمضي شيئًا فشيئًا نحو الابتذال.

كنت محبوبة ولم تكن السعادة بعيدة عني، ويبدو أنها كانت تداعبني، عشت حياتي براحة وإهمال دون أن أحاول فهم نفسي، ودون أن أعرف ما الذي كنت أتوقعه من الحياة أو أريده، والوقت يمضي ويمضي... والناس مروا بي بحبهم، بالأيام المشرقة والليالي الدافئة المتلألئة... غناء العنادل، رائحة القش الشذية، وكل تلك الذكريات الجميلة والساحقة عبرت بسرعة مثلما مر الجميع بي ودون أن تترك أي أثر، لم تكن عزيزة على قلبي، وها قد اختفت مثلما يختفي سديم الضباب... أين هو كل ذلك؟

توفي والدي، وأنا كبرت، وكل ما كان يبهجني ويسليني ويهبني الأمل هو وقع المطر ودويّ الرعد والتفكير في السعادة والحديث عن الحب... كل هذا لم يعد إلا ذكرى، وما أبصر أمامي هي صحراء قاحلة في سهل ليس فيه من روح واحدة، هناك في الأفق المظلم الرهيب.

إن ذكرى بيتر سيرغيتش تصدح بذاكرتي، وحين أرى الأشجار في الشتاء وأتذكر كيف صارت خضراء في الصيف أهمس:

- «آه يا أحبتي!».

وحين أرى الناس الذين قضيت معهم الربيع أشعر بالحزن والدفء وأهمس بذات الكلمات.

تم توظيفه في المدينة منذ مدة طويلة بمساعي حميدة من أبي، ويبدو أنه قد طعن في السن وتوارى قليلًا، لقد تخلى عن تأكيد حبه منذ وقت طويل وترك الكلام السخيف، وكان يكره عمله الرسمي، وأصبح مريضًا وخائب الأمل... لم يعد يبتغي شيئًا من الحياة، ولا يهتم بالعيش، وهو الآن يجلس بجوار الموقد ويتأمل النار في صمت.

وسألته دون أن أعلم ماذا أقول:

- حسنًا، ماذا عندك لتخبرني به؟

وأجاب:

- لا شيء.

وساد الصمتُ مرة أخرى. ووهج النار الأحمر يلعب على وجهه الكئيب.

فكرت بالماضي وأخذت أكتافي ترتعش على الفور، وانحدر رأسي وبدأت بالبكاء بمرارة. لقد شعرت بالأسى الشديد على نفسي وعلى هذا الرجل، وبشغف شديد لما قد مضى وإلى ما ترفضه الحياة لنا الآن، ولم أعد أفكر لا في المنصب ولا وفي الثروة.

وسقطتُ في نحيب وأنا أضغط على صدغي وأتمتم:

- رباه!. يا رب.. لقد ضاعت حياتي!

وجلس صامتًا، ولم يقل لي: «لا تبكِ»، لقد فهم أنه ينبغي عليَّ أن أبكي، وأن الوقت قد حان لذلك.

لقد رأيت حزنه عليَّ من عينيه، وكنت حزينة عليه أنا أيضًا، وشعرت بالسخط من هذا الرجل الخجول والفاشل الذي لم يستطع أن يصنع حياة لي، ولا حتى لنفسه.

وحين استرقت النظر إليه عند الردهة، كان يتخيلني أمامه عن عمد وهو يرتدي معطفه. ولثم يدي مرتين دون أن ينطق بكلمة، ونظر في وجهي الغارق بالدموع طويلًا، وكليّ يقين أنه كان في تلك اللحظة يتذكر العاصفة، وخطوط المطر المائلة، وضحكاتنا، ووجهي في ذلك اليوم، كان يتوق ليخبرني بشيء وكان مبتهجًا ذلك، لكنه لم يقل شيئًا، واكتفى بهز رأسه والضغط على يدي، ساعده يا رب!

وبعد أن رأيته يخرج، عدت إلى غرفة مكتبي وجلست على السجادة أمام الموقد ثانية، وكان الجمر الأحمر مغطى بالرماد الذي يزداد قتامة، والصقيع مازال متسلطًا بغضب على النوافذ، والرياح تضرب في المدخنة.

ودخلت الخادمة ونادتني وهي تظن أنني نائمة.

الإسكافي والشيطان [٩]

كان ذلك في عشية عيد الميلاد. «ماريا» تشخر أمام الموقد منذ وقت طويل، وكل الشمع الذي في الفانوس قد احترق، و»فيودور نيلوف» لا يزال في العمل، كان يريد أن يطرح شغله أرضًا منذ مدة ويخرج إلى الشارع، لكن زبونًا من حارة كولوكولني، والذي طلب قبل خمسة عشر يومًا طلبية أحذية، جاء ليلة الأمس وسبّه بشدة، وأمره بإنهاء الأحذية على الفور قبل قداس الصباح.

وتذمر فيودور وهو يعمل:

- إنها لحياة رجل مدان! بعض الخلق نائمون منذ وقت طويل، وآخرون يستمتعون، بينما تجلس أنت مثل قابيل وتخيط لرجل الشيطان وحده يعرف من...

وكي لا يسقط في النوم سهوًا، ظل يخرج الزجاجة التي تحت الطاولة ويشرب منها، ويلوي رأسه بعد كل رشفة ثم يقول بصوت عالٍ:

- ما هو السبب، قولوا لي لو تكرمتم، لما تستمتع الزبائن بينما أنا مجبور أن أجلس وأعمل لهم؟ ألأنّ عندهم مال وأنا شحاذ؟

لقد كره كل زبائنه، وخاصة ذاك الذي يسكن في حارة كولوكولني، كان ذاك الرجل ذا مظهر مغم، وشعر طويل، ووجه أصفر، ونظارات زرقاء، وصوت أجش، وكان اسمه ألمانيًا ولا يستطيع أحد نطقه، ومن المستحيل معرفة مهنته أو ماذا يعمل، وحين ذهب فيودور قبل أسبوعين ليأخذ مقاس قدمه، كان الزبون يجلس على الأرضية ويهرس شيئًا ما بالمدق، وقبل أن يسمح الوقت لفيودر أن يقول صباح الخير، اشتعلت المكونات التي في المدق على حين غرة واحترقت بلهب أحمر فاتح، وفاحت رائحة نتنة من الكبريت والريش المحروق، وامتلأت الغرفة بالدخان الوردي الكثيف لدرجة أن فيودر عطس خمس مرات، وحين عاد إلى المنزل بعد ذلك، أخذ يفكر:

- «أي واحد يخاف الله لن يكون له مصلحة بأشياء من هذا القبيل».

وعندما نفذت آخر رشفة من الزجاجة، وضع فيودور الحذاء على الطاولة وسرح في التفكير، وأسند رأسه الثقيل على راحة يده وبدأ يفكر في فقره، وفي حياته القاسية التي ليس فيها بصيص من النور،

---

[٩] نشرت القصة لأول مرة في صحيفة بطرسبرغ في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٨٨٨ موقعة باسم «تشيخوف». وقد كتبت بناء على رغبة مكتب التحرير لدى الصحيفة مقابل عرض بمائة روبل كما جاء في رسالة أرسلها تشيخوف إلى «أليكسي سوفرين» في السابع عشر من ديسمبر من نفس العام. وقد انتقد بعض أصدقاء تشيخوف ومعارفه هذه القصة بدعوى أنها لا تحمل روح تشيخوف كما كتب ليكين إليه في ٣٠-٣١ ديسمبر من عام ١٨٨٨. وأشارت مجلة «الفكر الروسي» إلى أن القصة تحمل دعابة النكتة اللطيفة، والمأساة المعبرة عن الوجود الإنساني. وترجمت القصة في حياة الكاتب إلى البلغارية والصربية والكرواتية. المترجم

ثم أخذ يفكر في الأغنياء، في منازلهم الكبيرة وعرباتهم، وفي أوراقهم النقدية ذات المائة روبل... كم سيكون من الجميل لو أن منازل هؤلاء الأغنياء -أخذهم الشيطان!- دمرت، وخيولهم ماتت، ومعاطفهم الفروية وقبعات السمور أصبحت رثًا! كم من الرائع أن يتحول الغني، شيئًا فشيئًا إلى شحاذ لا يملك شيئًا، ويصبح هو الاسكافي الفقير غنيًا، ويصير سيدًا لبعض الاسكافيين الفقراء في عشية عيد الميلاد.

وأثناء حلمه بكل هذا، فكر فيودور فجأة في عمله، ثم فتح عينيه.

وأخذ يفكر وهو يتطلع إلى الأحذية:

- «يا سلام، لقد انتهيت من العمل منذ وقت طويل وها أنا جالس هنا، عليّ أن آخذ الأحذية إلى السيد».

ولف الطلبية بمنديل أحمر، وارتدى ثيابه، وخرج إلى الشارع. كان الثلج يتساقط بقوة ثاقبًا الوجه كما لو أنه إبر، وكان الجو باردا، ومتقلبا، ومظلما، وأضاءت المصابيح بخفوت، ولسبب ما فاحت رائحة العطر في الشارع، لدرجة أن فيودور سعل وكح، وكان الأغنياء يقادون بعرباتهم جيئة وذهابًا على الطريق، وكل رجل غني يحمل لحم خنزير وزجاجة من الفودكا في يديه، والسيدات الشابات الثريات اللواتي ألقين نظرة على فيودور من العربات والزلاجات، أخرجن ألسنتهن وصاحن وهن يضحكن:

- يا شحاذ! يا شحاذ!

وسار الطلاب والضباط والتجار خلف فيودور وهم يصرخون ويهتفون:

- يا سكران! يا سكران! يا اسكافي يا كافر! يا أبو ساق الحذاء! يا شحاذ!

كان كل هذا مهينًا، لكن فيودور أمسك لسانه وبصق بقرف فقط. ولكن عندما قابله «كوزما ليبيودكين» من وارسو، صاحب شركة لصناعة الأحذية، قال:

- «لقد تزوجت من امرأة ثرية وعندي رجال يعملون تحت يدي، بينما أنت شحاذ وليس عندك ما تأكله».

لم يستطع فيودور الامتناع عن الركض بعد سماعه ذلك. وطارده حتى وجد نفسه في حارة كولوكولني، حيث يسكن زبونه في الشقة الرابعة من الزاوية في طابق مرتفع للغاية. وللوصول إلى الشقة، كان على المرء أن يمر عبر فناء مظلم، ثم يصعد درجًا زلقًا ومرتفعًا جدًا يجعله يتمايل تحت قدميه، وحين دخل عليه فيودور، كان الرجل جالسًا على الأرضية ويهرس شيئًا ما بالمدق، تمامًا كما كان يفعل في الأسبوعين الماضيين.

وقال فيودور بهدوء:

- أحضرت الأحذية يا صاحب المعالي.

ونهض الزبون وشرع يجرب الأحذية في صمت، ورغبة منه في مساعدته، انحنى فيودور على ركبة واحدة ونزع حذاءه القديم، لكنه قفز على الفور وترنح باتجاه الباب بذعر. فلم يكن للزبون قدم، بل حافر مثل حافر الحصان.

وفكر فيودور:

- «آها! يا سلام!».

ينبغي أول شيء أن ينجو بنفسه، ثم أن يترك كل شيء ويركض إلى الدور الأسفل، لكنه غير رأيه على الفور لأنه يلتقي بشيطان لأول مرة وربما لآخر مرة، وسيكون من الغباء أن لا يستفيد من خدماته. وسيطر على نفسه وصمم على تجربة حظه، وشد يديه خلف ظهره لتفادي رسم الصليب، وسعل باحترام وبدأ:

- يقولون أنه ليس هناك أكثر شرًا ونجسًا على الأرض من الشيطان، لكن في اعتقادي، يا صاحب المعالي، أن الشيطان مثقف للغاية، صحيح عنده، وعدم المؤخذة لقولي هذا، حوافر وذيل خلف مؤخرته، لكن لديه أيضًا دماغ أكبر من دماغ الطالب.

وقال الشيطان بإطراء:

- يعجبني ما تقوله، أشكرك أيها الاسكافي! ماذا تريد؟

ودون أن يضيع الوقت، أخذ الاسكافي يشكو من نصيبه، وشرع يروي له كيف أنه يحسد الأغنياء من طفولته، وأنه يشعر باستياء دائم من فكرة أن الناس لا يعيشون متساويين في المنازل الكبيرة ويقادون بالخيول الأصيلة، وكان يسأل نفسه: لماذا هو فقير؟ وكيف أنه أسوء حالًا من كوزما ليبيودكين من حارة وارسو، الذي عنده منزله الخاص، وزوجة تضع قبعة؟ فهو يملك نفس الأنف، واليدين، والقدمين، والرأس، والظهر مثل الأغنياء، فلماذا يجبر على العمل بينما الآخرون يستمتعون؟ ولماذا تزوج من ماريا وليس من امرأة ذات شذى؟ كان يرى في كثير من الأوقات شابات جميلات في بيوت الزبائن الأغنياء، ولكنهن إما لا يعرنه أي انتباه، أو يضحكن في بعض الأحيان ويهمسن بين بعضهن:

- «يا له من أنف ذاك الذي عند الاسكافي!»

صحيح أن ماريا امرأة طيبة وكادحة، لكنها ليست متعلمة، ويداها ثقيلة مثل المخباط، وإذا أتيح للواحد فرصة بأن يتحدث عن السياسة أو أي موضوع ثقافي أمامها، فستظل تتحدث وتثرثر بأكثر السخافة بجاحة.

وقاطعه الزبون:

- ماذا تريد إذن؟

- أتوسل إليكم، أيها الشيطان المبجل إيفانيتش، أن تتكرم علينا وتجعلني غنيًا.

- بالتأكيد، ما عليك فعله هو أن تبيعني روحك! اذهب قبل صياح الديوك ووقع على هذه الورقة بأنك تبيعني روحك.

وقال فيودور بأدب:

- معاليكم، حين طلبتم الأحذية مني لم أسألكم عن مال سلفًا، على الواحد تنفيذ الأمر ثم طلب الدفع.

وافق الزبون:

- آه، طيب، طيب!

وخرج لهب متوهج من المدق فجأة، وارتفع دخان أحمر كثيف، وفاحت رائحة الريش المحروق مع الكبريت، وحين خمدت النار، فرك فيودور عينيه ورأى أنه لم يعد فيودور، ولم يعد إسكافيا، بل رجلًا مختلفًا تمامًا، ويلبس صدرية عليها ساعة ذات سلسلة، ويرتدي بنطالًا جديدًا، ويجلس على كرسي أمام مائدة كبيرة، وكان هناك خادمان يقدمان له الأطباق وينحنيان ويقولان:

- الطعام يا صاحب المعالي، بالهناء والشفاء!

يا لها من ثروة! وقام أحد الخدم بتقديم قطعة كبيرة من الضأن المشوي له وطبق من الخيار، ثم جلبا له مقلاة فيها إوزة مشوية، وبعدها لحم خنزير مسلوق مع صلصلة الفجل الحار. وكم كانت السفرة فاخرة ومتميزة! وأكل فيودور، وشرب قبل كل طبق كاسًا كبيرًا من الفودكا الممتازة، مثل بعض الجنرالات أو الكونتات، وبعد لحم الخنزير، قدمت له حبوب مسلوقة ومنقوعة بدهن الإوز، ثم عجة من لحم الخنزير المقدد، ثم كبد مقلي، واستمر في أكل الطعام وهو يشعر بالسعادة.

ماذا أيضًا؟ قاما بخدمته ثانية، وقدما له فطيرة مع البصل ولفت مطبوخ بالبخار مع شراب الكفاز[١٠].

وفكر:

«كيف لا ينفجر السادة من هذه الوجبات؟».

وفي الختام ناولاه قدرا كبير من العسل، وبعد العشاء، ظهر الشيطان بنظاراته الزرقاء وسأل مع انحناءة منخفضة:

- هل أنت راض عن عشائك يا فيودور بانتيلييتش؟

---

[١٠] مشروب قديم تقليدي معروف في أوروبا يحضر من الجاودار. المترجم

لكن فيودور لم يستطع الرد بكلمة واحدة، فقد كان منتفخًا بعد العشاء، وكان الشعور بالتخمة مزعجًا ومرهقًا، وليصرف أفكاره، أخذ يتطلع إلى الحذاء الذي يلبسه في قدمه اليسرى.

وسأل:

- لست معتادًا أن آخذ مثل هذا الحذاء بأقل من سبعة روبلات ونصف، من هو الإسكافي الذي صنعه؟

وأجاب الخادم:

- كوزما ليبيودكين

- أرسل عليه أيها الأحمق!

وحضر كوزما ليبيودكين من وارسو حالًا، ووقف باحترام عند عتبة الباب ثم سأل:

- ماذا تأمرون معاليكم؟

وصرخ فيودور، وخبط بقدمه:

- أغلق فمك! لا تتجرأ على المجادلة، تذكر مكانتك يا إسكافي! يا متخلف! أنت لا تعرف كيف تصنع الأحذية! سأخبط بطبق الحلوى على خلقتك! لماذا أتيت؟.

- من أجل المال.

- أي مال؟ انقلع وتعال يوم السبت! يا ولد، أطرده!

لكنه تذكر على الفور ماهي الحياة التي اعتاد الزبائن أن يقتادوه إليها، وشعر بثقل في قلبه، ولكي يشتت انتباهه عن ذلك، أمسك بمحفظة سميكة وأخرج النقود منها وأخذ يعدّها. كان هناك الكثير من المال، لكن فيودور أراد المزيد. وجلب له الشيطان ذو النظارات الزرقاء محفظة أخرى أكثر سماكة، لكنه لا زال يريد المزيد، وكلما عدّ النقود، ازدادت تعاسته.

وعند المساء أحضر الشيطان له سيدة فاتنة القوام بثوب أحمر، وقال أن هذه ستكون زوجته الجديدة، وأمضى الليل كله يقبّلها ويأكل خبز الزنجبيل، وفي آخر الليل ذهب إلى النوم على فراش ناعم، وريش نعام، وتقلب من جانب لآخر، ولم يستطع النوم، فقد كان يشعر بإحساس غريب.

وقال لزوجته:

- عندنا مال كثير، يجب أن نظل نتطلع للخارج وإلا سيندفع اللصوص علينا، من الأفضل أن تذهبي وتلقي نظرة بالشمعة.

ولم ينم طوال الليل، وبقي مستقيظًا ليرى ما إذا كان الصندوق على ما يرام، وفي الصباح، كان عليه أن يذهب إلى الكنيسة لقداس الصبح. وفي الكنيسة لا فرق بين غني وفقير، وعندما كان فيودور فقيرًا اعتاد أن يردد دعاءه في الكنيسة:

- «يا رب اغفر لي فأنا آثم!»

وردد نفس الدعاء الآن على الرغم من أنه صار ثريًا، ماذا كان الفرق آنذاك؟ وبعد الموت لن يدفن فيودور الغني بالذهب، ولا بالألماس، بل في نفس الأرض السوداء مثل أفقر الشحاذين، وسيحترق فيودر في نفس النار مثل الإسكافيين. وشعر فيودور بالامتعاض من كل هذا، وأحس بالثقل من عشاءه أيضًا، وبدلًا من الخشوع في الصلاة استحوذت على عقله الأفكار حول صندوق ماله، واللصوص، وحول روحه المباعة والمدمرة.

وخرج من الكنيسة بمزاج معكر، وليطرد أفكاره المزعجة كما كان يفعل من قبل، قام بالغناء بأعلى صوته، ولكن ما أن بدأ حتى ركض الشرطي نحوه، وقال وهو يمسك ذروة قبعته بأصابعه:

- يا صاحب المعالي، لا يجب أن يغني الأشراف في الشارع! فأنتم لستم إسكافيًا!

وانحنى فيودور بظهره على السياج وسقط في التفكير: «ماذا يمكن أن يفعله لتسلية نفسه؟»

وصرخ البواب:

- معاليكم، لا تتكئوا على السياج، ستفسدون معطفكم الفروي!

وذهب فيودور إلى متجر واشترى لنفسه أفضل أكورديون، ثم خرج إلى الشارع وهو يعزف عليها، وأشار الجميع إليه وضحكوا.

وسخر منه الحوذيين:

- لا ورجل نبيل فوقها، إنه مثل الإسكافيين...

وقال له الشرطي:

- هل من اللائق لرجل من الأشراف أن يكون فوضويا في الشارع؟ من الأفضل أن تذهبوا إلى الحانة!

وصرخ المتسولون الملتفتون حول فيودور من كل جانب:

- معاليكم، أعطونا شيئًا من أجل المسيح.

لم يكن في الأيام السابقة يلاحظ المتسولين عندما كان اسكافيًا، وهاهم الآن لا يسمحون له بالمرور.

وفي البيت كانت زوجته الجديدة، السيدة، تنتظره، وترتدي قميصًا أخضر وتنورة حمراء، وتقصّد أن يعيرها انتباهه، فرفع ذراعه ليعطيها ضربة على ظهرها، لكنها قالت بغضب:

- يا فلاح! يا غليظ يا جاهل! أنت لا تعرف كيف تتصرف مع السيدات! إذا كنت تحبني فستقبّل يدي، أنا لا أسمح لك بضربي!

وفكر فيودور:

- «يا لها من حياة بغيضة! إن الناس مدفوعون للحياة! لا يصح أن تغني، لا يصح أن تعزف على الأكورديون، لا يجب أن تمزح مع سيدة.... تفو!»

ولم يعد يجلس لشرب الشاي مع السيدة عندما أتت روح الشيطان ذي النظارات الزرقاء وقال:

- تعال يا فيودر بانتيليتتش، لقد قمت بأداء دورك من الصفقة، الآن قم بالتوقيع على ورقتك وتعال معي!

وجُرّ فيودور إلى الجحيم، إلى الفرن مباشرة، وحلقت الشياطين من جميع الجهات وصاحت:

- يا أحمق! يا جاهل! يا حمار!

وفاحت رائحة خانقة من الشمع الذي في الجحيم، وكانت شمّة واحدة تكفي لخنق رجل، وفجأة اختفى كل شيء، وفتح فيودور عينيه ورأى طاولته والأحذية وفانوس القصدير، كان زجاج الفانوس مسودًا، وخرجت من الضوء الخافت على الفتيل سحب من الدخان النتن الخانق، ووقف بالقرب من الطاولة زبون يضع نظارات زرقاء، وقال وهو يصيح بغضب:

- يا أحمق! يا جاهل! يا حمار! سألعن شغلك أيها الوغد! لقد أعطيتك مهلة أسبوعين والأحذية لم تجهز بعد! هل تظن أنني متفرغ الأشغال لآتي عدة مرات في اليوم لحذائي؟ يا صعلوك! يا بهيم!

وهز فيودور رأسه واستعد للعمل على الأحذية، ومضى الزبون يسب ويهدد فترة طويلة، وعندما هدأ في النهاية، سأله فيودور بتجهم:

- وماهي مهنتك يا سيدي؟

- أصنع ألعابًا نارية، أنا فني ألعاب نارية.

وبدأت أجراس صلاة الصبح تقرع، وأعطى فيودور الأحذية للزبون، وأخذ المال منه، ثم ذهب إلى الكنسية.

كانت العربات والزلاجات ذات سجاد الدببة تندفع وتمضي نحو الشارع، وكان التجار، والسيدات، والضباط يمشون على طول الرصيف مع جمع من الناس الفقراء... لكن فيودور لم يحسدهم أو يتبرم من قسمته من الحياة، وبدا له الآن أن الأغنياء والفقراء متساوون إلى أبعد حد.

البعض بوسعهم التجول بالعربة، وآخرون على الغناء بأعلى صوتهم والعزف على الأكورديون، لكن ثمة الشي نفسه، نفس القبر الذي ينتظر الجميع على حد سواء، وليس هناك من شيء في الحياة بحيث يمكن للمرء من أجله أن يعطي الشيطان ولو حتى جزءا ضئيلا من روحه.

المعلمة - [11]

عند الساعة الثامنة والنصف خرجوا من البلدة...

كان الطريق جافًا وشمس أبريل الجميلة مشرقة بدفء، لكنَّ الثلج ما زال يرقد على الأشجار وفوق أقنية المياه، الشتاء المظلم الطويل والحاقد بالكاد قد انتهى، وأتى الربيع على حين فجأة... لكن لا الدفء، ولا الأشجار الهامدة اللامعة من الصقيع والدافئة من نَفس الربيع، ولا أسراب الطيور السوداء التي تحلق فوق البرك الضخمة الشبيهة بالبحيرات، ولا السماء الساحقة الرائعة التي بدت وكأنه يمكن للمرء أن يمضي بداخلها بعيدًا بفرح شديد قدمت أي شيء جديد أو مثير للاهتمام إلى «ماريا فاسيليفنا» الجالسة داخل العربة، التي تعمل كمعلمة منذ ثلاثة عشر عامًا، ولم يكن هناك تقدير لعدد المرات التي ذهبت فيها إلى المدينة من أجل مرتبها، وسواء أكان الجو ربيعًا كما هو الحال الآن أو أمسية خريفية ممطرة أو شتاءً؛ فإن الأمر سيان بالنسبة إليها، وكانت دائمًا تتوق إلى شيء واحد فقط، وهو الوصول إلى نهاية رحلتها بأسرع ما يمكن.

شعرت كما لو أنّها تعيش في هذا القسم من الريف منذ أعوام وأعوام، من مائة سنة، وبدا بأنها تعرف كل حجر وكل شجرة على طريق المدرسة. لقد كان ماضيها وحاضرها هنا، ولم يكن بوسعها أن تتخيل أي مستقبل آخر دون المدرسة. الطريق إلى المدينة والعودة ثانية، ثم العودة إلى المدرسة مجددًا، والطريق مرة أخرى...

لقد أخرجت عادة التفكير بماضيها قبل أن تصبح معلمة ونستها تقريبًا. وكان لديها فيما مضى أب وأم يعيشان في شقة كبيرة بالقرب من البوابة الحمراء [12]في موسكو. ولكن من كل تلك الحياة بقي شيء مبهم ومضطرب في ذاكرتها مثل الحلم، والدها توفي حين كانت في العاشرة من عمرها، ثم

---

[11] نشرت القصة بعنوان «НА ПОДВОДЕ» «في العربة» في صحيفة «فيدوموستي» في الحادي والعشرين من ديسمبر عام ١٨٩٧ وتحمل توقيع «أنطون تشيخوف». وفي يوم نشرها كتب له الكاتب الروسي «ليو تولستوي» رسالة نقدية يعبر فيها عن إعجابه بالقصة من الصورة المجازية، ولكنها لا تحمل في طياتها معنى. وترجمت القصة في حياة الكاتب إلى عدة لغات منها الفرنسية. المترجم

[12] بوابة على شكل قوس للعبور إلى موسكو. البوابة الحمراء هي الوحيدة التي نجت حتى القرن العشرين إلا أن تم هدمها عام ١٩٢٨ وقامت مكانها محطة قطار لكن بقي الاسم كما هو. يقال لها أيضًا بشارع الحمراء. المترجم

توفيت والدتها بعد فترة وجيزة، وكان عندها أخ ضابط اعتادا في البداية أن يكتبا لبعضهما البعض، ثم تخلى أخوها على الرد على رسائلها وترك سبيل الكتابة، وكل ما تبقى من أمتعتها القديمة صورة لوالدتها، لكنها أصبحت قاتمة من رطوبة المدرسة، وليس بالإمكان الآن رؤية شيء سوى الشعر والحواجب.

وعندما قطعوا بضعة أميال، التفت العجوز «سيميون» الذي كان يقود العربة وقال:

- لقد قبضوا على موظف حكومي في المدينة وجرّوه بعيدًا... القصة وما فيها أنه قَتَلَ عُمدة موسكو أليكسييف بمساعدة بعض الألمان.

- من أخبرك بذلك؟

- كانوا يقرؤون ذلك في الجريدة داخل حانة إيفان يونوف.

وساد الصمت مجددًا فترة طويلة، وفكرت ماريا فاسيليفنا في مدرستها وفي الامتحان القادم عما قريب، وفي الفتاة والأولاد الأربعة الذين ستختبرهم للامتحان، وبينما هي تفكر في الامتحان، اجتاز عربتها مالك الأرض المجاورة يدعى «خانوف» بعربته ذات الأربعة خيول، الرجل ذاته الذي كان مشرفًا في مدرستها العام الماضي، وعندما تقدم بعربته وعرفها قال:

- صباح الخير، إنك ذاهبة إلى المنزل على ما أعتقد.

خانوف هذا رجل يبلغ الأربعين من العمر، ذو تعبير فاتر ووجه ظهرت عليه علامات التآكل، وبدا وكأنه طاعن في السن، لكنّه ما زال وسيمًا ويحظى بإعجاب النساء، كان يعيش وحيدًا في عذبته الكبيرة، ولم يعد يعمل في المدرسة، واعتاد الناس القول أنه ليس لديه من شيء يفعله في المنزل إلا الصعود والنزول من الغرفة وهو يُصفّر، أو لعب الشطرنج مع خادمه العجوز، كان يشرب الخمر بكثرة كما تقول الناس...

وبالفعل، فقد جلب العام الماضي رائحة من عطره ونبيذه مع أوراق الامتحان مرتديًا ثيابًا جديدة في تلك المناسبة، وأحست ماريا فاسليفنا أنه جذاب للغاية، وفي كل مرة تجلس بجواره تشعر بالخجل، كان من المعتاد أن ترى مشرفين باردين ورصينين في المدرسة، في حين أن هذا الرجل لم يكن يعرف أن يتلو دعاءً واحدًا، أو يعرف أن يطرح أسئلة عن شيء ما، وكان مهذبًا وناعمًا إلى أبعد حد، ولم يقدم شيئًا سوى أعلى العلامات.

ومضى وهو يخاطب ماريا فاسيليفنا:

- أنا ذاهب إلى باكفيست، ولكن قيل لي أنه ليس في المنزل.

وتحولوا من الطريق الرئيسي إلى الطريق المؤدي إلى القرية، كان خانوف يقود الطريق ويتبعه سيميون، وتحركت الخيول الأربعة بتأنٍ وبجهد في جرّ العربة عبر الوحل، وأخذ سيميون طريقه من

جانب لآخر ليحافظ على مساره بعيدًا عن حافة الطريق، مرة عبر الجرف الثلجي، ومرة عبر بركة المياه، وكثيرًا ما كان يقفز من العربة ليجر الحصان.

وكانت ماريا فاسيليفنا لا تزال تفكر في المدرسة، وتتساءل ما إذا كانت ستجعل أسئلة الحساب في الامتحان صعبة أم سهلة، وشعرت بالضيق من مجلس زميتوف [١٣] الذي لم تجد فيه أحدًا يوم الأمس، يا لها من قلة احترام للعمل! لقد كانت تطلب منهم خلال العامين الماضيين إقالة الحارس، الذي كان وقح التصرف معها ويضرب تلاميذ المدرسة، لكنَّ لم يعر أحد اهتمامًا لذلك، كان من الصعب أن تجد رئيس المجلس في مكتبه، ولو حدث للمرء أن وجده في مكتبه فسيقول وهو يذرف الدموع من عينيه أنه لم يكن لديه دقيقة فراغ لهذا، أما المفتش فزار المدرسة مرة واحدة على الأكثر في ثلاث سنوات، إذ لم يكن يعرف شيئًا عن عمله كما كان يعمل في قسم الجباية، وقد تعين في منصب مفتش المدرسة بالواسطة، ومجلس المدرسة نادرًا ما يجتمع، ولم يكن يعرف أين يجتمع. وصيّ المدرسة فلاحٌ أُمّي تقريبًا ويرأس عملًا للدباغة، غبي، ووقح، وندّ عظيم لحارس المدرسة... ومن الخير معرفة لمن يمكنها أن تناشد وتشتكي أو تستفسر...

وفكرت وهي تسترق النظر لخانوف:

- «إنه وسيم حقًا!»

أصبح الطريق أسوأ فأسوأ، وقادوا العربات نحو الغابة. وهنا لم يعد بالإمكان تغيير مسار الطريق، وغرقت العجلات واضمحلت في المياه وطرطشت، وضربت الأغصان الحادة أوجه العربات.

وقال خانوف:

- يا له من طريق!

وضحك.

نظرت المعلمة إليه ولم تستطع أن تفهم لماذا يعيش هذا الرجل الغريب هنا، ماذا بإمكان أمواله، ومظهره الجذاب، ومكانته الرفيعة أن تفعل له هنا، في هذا الوحل، وفي هذا المكان الموحش البائس؟ ليس عنده سمات خاصة تميزه في الحياة، وهو هنا يقود عربته مثل سيميون دفعًا وهرولة على طريق مروع ويعاني من نفس المشقة. لما العيش هنا إن أمكن للمرء أن يعيش في بطرسبرغ أو خارج البلاد؟ قد يظن المرء أنه شيء لا قيمة له لرجل غني مثله أن يعمّد طريقًا جيدًا بدلًا من هذا الطريق الوعر، ويتجنب ديمومة هذه المعاناة ورؤية اليأس على وجهيّ حوذيه وسيميون، لكنه ضحكَ فقط، ويبدو أنه لم يكن يمانع في هذا، ولم يرغب في حياة أفضل، لقد كان لطيفًا، ناعمًا، ساذجًا، ولم يفهم هذه الحياة

---

[١٣] مؤسسة تابعة للحكومة المحلية تم تأسيسها خلال عملية الإصلاح التحرري الكبرى لعام ١٨٦١ التي قام بها الإمبراطور ألكسندر الثاني ملك روسيا في الإمبراطورية الروسية. المترجم

الخشنة، تمامًا كما لم يعرف الأدعية في الامتحان، ولم يساهم بشيء للمدرسة إلا بمجسمات للكرة الأرضية، ولكنه يعتبر نفسه شخصًا مفيدًا بحق، وعاملًا بارزًا في قضية التعليم، وما فائدة مجسماته هنا؟

وقال سيميون:

- تمسكي يا فاسيليفنا!

ترنحت العربة بعنف وكانت في وضع مقلق، وتدحرج شيء ثقيل تحت أقدام ماريا فاسيلفنا... وكان طردًا من مشترياتها، وصعود حاد ومرتفع عبر الطين، وهنا كانت المياه تغرغر في مصارف المياه والنهيرات المتعرجة، وبدا أن المياه قد قضمت الطريق، وكيف للمرء أن يبقى هنا أطول! وسحبت الخيول أنفاسها بصعوبة، وخرج خانوف من عربته ومشى على جانب الطريق بمعطفه الطويل، وكان يشعر بالحر.

وقال وضحك مجددًا:

- يا له من طريق! ستتحطم العربة عما قريب.

وقال سيميون بشكل فظّ:

- لا أحد يجبرك على التحرك بمثل هذا الجو، عليك أن تبقى في البيت.

- أشعر بالملل في البيت يا جدي، أنا لا أحب البقاء في البيت.

بدا خانوف بجانب العجوز سيميون رشيقًا وقويًا، ولكن لا زال هناك شيء ملحوظ في مشيته التي خانته كونه تأثر بالفعل بتسوس العظام، والضعف، وكان في طريقه نحو الانهيار. وكانت ماريا فاسيليفنا يملأ روحها الفزع والشفقة على مضي هذا الرجل لتدمير نفسه لسبب واضح أو دون سبب، وتبادر إلى ذهنها أنها لو كانت زوجته أو أخته لكانت ستكرس حياتها بأكملها لإنقاذه من الانهيار، زوجته! لقد شاءت الحياة أن يعيش هنا في منزله الكبير وحيدًا وتعيش هي في قرية بائسة لوحدها، وحتى الآن ولسبب ما فإن مجرد التفكير أنهما سيكونان قريبين من بعضهما وعلى قدر المساواة بدا مستحيلًا وسخيفًا، في الواقع؛ إن ترتيب الحياة والعلاقات الإنسانية معقدٌ ويفوق كل الفهم، وحين يفكر المرء حول ذلك يشعر أنه غريب ومخسوف القلب.

وأخذت تفكر:

«إنها تفوق كل الفهم! لماذا يهب الله الجمال وهذه الرقة والعيون الحزينة الجميلة للناس الضعفاء، سيئي الحظ، وعديمي الجدوى... ولما هم ساحرون جدًا؟».

وقال خانوف وهو يدخل عربته:

- هنا ينبغي علينا أن ننعطف نحو اليمين، الوداع! رافقتكِ السلامة!

وفكرت ماريا فاسيليفنا مرة أخرى في تلاميذها، وفي الامتحان، وفي الحارس، وفي مجلس المدرسة، وعندما جلبت الرياح صوت العربة المتراجعة، اختلطت هذه الأفكار بأفكار أخرى، إنها تتوق إلى التفكير في عيون جميلة، في الحب، وفي السعادة التي لن تكون أبدًا...

زوجته؟ كان الجو باردًا في الصباح، ولم يكن هناك أحد لإشعال الموقد، فالحارس مختفٍ عن الأنظار، وجاء الأطفال عند مطلع الضوء وجلبوا معهم الثلج والوحل وأحدثوا ضجة، كل ذلك كان مزعجًا للغاية وخاويا من الراحة. مسكنها يتألف من غرفة صغيرة ومطبخ ملتصقين ببعضهما، وكان رأسها يؤلمها كل يوم بعد العمل، وتشعر بعد العشاء بحرقة في القلب، كان عليها أن تجمع أموالًا من أطفال المدرسة من أجل الحطب والحارس، وأن تعطيهم إلى وصي المدرسة، ثم تتضرع إليه، ذاك الفلاح الوقح المنتخم... من أجل الله أن يرسل إليها حطبا. وفي الليل تحلم بالامتحانات، والفلاحين، وركام الثلوج، إن هذه الحياة جعلتها تطعن في السن وتخّشن، لقد جعلتها قبيحة، بارزة العظام، وصعبة المراس، كما لو أنها مخلوقة من الرصاص. كانت تشعر بالخوف على الدوام، وتنهض من مقعدها ولا تغامر بالجلوس في حضور أحد أعضاء زميتوف أو وصي المدرسة، وعند التحدث مع أيّ منهم تستخدم التعابير الرسمية وتجلُّ لهم الاحترام، ولم يعتقد أحد منهم أنها جذّابة، والحياة تمضي بشكل موحش بلا محبة ودون عطف ودود ومعارف ممتعين، وكم سيكون الأمر سيئًا في وضعها لو وقعت في الحب!

- تمسكي يا فاسيلينا!

وصعود حاد ومرتفع مرة أخرى...

لقد أصبحت معلمة بحكم الضرورة، دون أن تمتلك إحساسًا أنها تحمل رسالة لذلك، ولم تفكر قط في رسالة أو خدمة من أجل التنوير ، [١٤]وخيّل إليها على الدوام أن أكثر ما يهم في عملها ليس الأطفال ولا التنوير، بل الامتحانات، وأيُّ وقت لديها للتفكير في رسالة أو خدمة لقضية التنوير؟ فلا المعلمون ولا الأطباء ومساعدوهم في العمل الشاق الذين يتقاضون أجورًا زهيدة عندهم رفاهية التفكير بأنهم يخدمون فكرة ما أو الناس، كون رؤوسهم محشوة على الدوام بالتفكير حول خبزهم اليومي، وحطب التدفئة، والطرق الوعرة، والأمراض، إنها حياة مضجرة وتتطلب العمل الدؤوب، وليس إلا لخيول صامتة مثل خيول عربة ماريا فاسيليفنا أن تتحملها أطول، أما الناس المفعمون بالحياة، المتوترون، والحساسون الذين يتحدثون عن الرسالة أو خدمة الفكرة سرعان ما سئموا وتخلوا عن العمل.

واستمر سيميون في اتخاذ أقصر الطرق وأجفها، بدءً من المرج، ثم خلف بيوت القرية. لكن في مكان ما لم يسمح الفلاحون لهما بالمرور، وفي مكان ثان كانت أرضا لكاهن، لذا لم يتمكنا من عبورها،

---

[١٤] حركة فكرية أوروبية في أواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر تؤكد على العقلانية والفردية بدلًا من التقاليد.مفهوم التنوير يشمل بشكل عام أي شكل من أشكال الفكر الذي يزيد تنوير العقول من الظلام والجهل والخرافة. المترجم

وفي مكان آخر اشترى إيفان أيونوف قطعة من مالك الأرض وحفر قناة للمياه حولها. واستمرا في العودة إلى الوراء.

وصلا إلى نيزني جورورديستش، وبالقرب من الحانة على الروث المنثور على الأرض، حيث الثلج ما يزال راقدًا، وقفت عربات محملة بقنان كبيرة من حمض الكبريت الخام. كانت أعداد الناس في الحانة غفيرة وجميعهم من سائقي العربات، وفاحت روائح الفودكا والتبغ وجلد الماعز، واعتلت ضوضاء عالية من الأحاديث، وصرير من الباب المتأرجح. وعبر الجدار في الحانوت كان صوت الأكورديون الصغير يعزف دون أن يتوقف لحظة، وجلست ماريا فاسليفنا وشربت القليل من الشاي، بينما كان الفلاحون يشربون الفودكا والبيرة على الطاولة المجاورة وهم يتصببون عرقًا من الشاي الذي تجرعوه للتو، ومن الدخان الخانق في الحانة.

واستمرت الأصوات تصرخ في صخب:

- أنا أقول كوزما! ماذا هناك! ليباركنا الله! إيفان ديمنتيتش، أستطيع أن قول لك ذلك! انتبه أيها العجوز!

واندهش شاب مبثور الوجه، والذي كان في حالة سكر تام لشيء ما وبدأ يسب.

وقال سيميون الذي كان يجلس بعيدًا بغضب:

- ماذا تسب أنت هناك! ألا ترى الآنسة!

وقلد شخص في الزاوية الأخرى بسخرية:

- الآنسة!

- غراب دنيء!

وقال الشاب بارتباك:

- ما قصدنا شيئًا...لا تؤاخذونا، نحن نعيش من أموالنا، أما الآنسة فمن مرتبها، طاب يومكم!

وردت المعلمة:

- طاب يومك، ونحن نشكرك من قلبنا.

شربت ماريا فاسيليفنا الشاي برضى وبدأ وجهها يحمر مثل الفلاحين، وسقطت في التفكير مجددًا في الحطب، وفي الحارس...

وسمعت صوتًا من الطاولة المجاورة:

- أرقد أيها العجوز، إنها معلمة من فيازوفاي... نحن نعرفها، إنها آنسة طيبة.

- لا بأس بها!

كان الباب المتأرجح يصرّ باستمرار، ناس تدخل وأخرى تخرج، وماريا فاسيليفنا جالسة تفكر طوال الوقت في نفس الأمور، بينما الأكورديون الصغير يمضي في عزفه، وانتشرت بقع الشمس فوق الأرضية، ثم انتقلت إلى صندوق الدفع، ثم إلى الحائط، ثم تلاشت تمامًا، وكان الفلاحون في الطاولة المجاورة يستعدون للذهاب، وتقدم الشاب نحو ماريا فاسيلينا مترنحًا وأمسك يده بيدها مصافحًا، واتباعًا لما فعله، صافحها الآخرون أيضًا عند الوداع وخرجوا واحدًا تلو الآخر. وصرّ الباب المتأرجح وانغلق بقوة تسع مرات.

وناداها سيميون:

- استعدي يا فاسيليفنا.

وانطلقا مجددًا على تريث.

قال سيميون مستديرًا:

- منذ فترة قصيرة كانوا يبنون مدرسة هنا في نيزني جورورديستش، يا له عمل أرعن تم عمله!

- ماذا! ولما؟

- يقولون أن الرئيس وضع ألفًا في جيبه، ووصي المدرسة ألفًا أخرى، والمدرّس خمسمائة.

- المدرسة كلها تكلف ألفًا فقط! من العيب أن تفتري على الناس يا جدي، هذا هراء.

- أنا لا أعرف... أنا فقط أخبرك ما يقوله الناس.

لكن من الواضح أن سيميون لم يصدّق الآنسة، لم يصدقها الفلاحون، ويظنون دومًا أنها تتقاضى مرتبًا كبير جدًا؛ واحدا وعشرين روبل في الشهر (على أن خمسة روبلات كانت كافية)، وأنها احتفظت بالقسم الأكبر من الأموال التي جمعتها من الأطفال من أجل الحطب والحارس لنفسها، كان الوصي يعتقد بالأمر ذاته مثل الفلاحين، وقد حقق هو نفسه ربحًا من الحطب وأخذ عائدات من الفلاحين لكونه وصيًا ودون علم من السلطات.

الحمد لله! ها قد أصبحت الغابة وراءهما، وستكون الأرض الآن مسطحة ومكشوفة على طول الطريق إلى فيازوفي، ولم تكن بعيدة للذهاب إليها الآن، إذ كان عليهما عبور النهر ثم خط السكة الحديدية وتكون فيازوفي على مرأى النظر.

سألت ماريا فاسيليفنا سيميون:

- إلى أين تقود؟ أسلك الطريق إلى اليمين نحو الجسر.

- لماذا؟ يمكننا السير على هذا الطريق أيضًا. ليس وعرًا تمامًا.

- هل تمانع إيقاف الحصان؟

- ماذا؟

قالت ماريا فاسيليفنا وهي ترى الأحصنة الأربعة بعيدًا من جهة اليمين:

- أنظر، إن خانوف يقود عربته نحو الجسر، إنه هو على ما أعتقد، إنه هو، لم يجد باكفيست في المنزل إذًا، يا له من رجل عنيد، رحمتك يارب! لقد سافر إلى هناك، ولأجل ماذا؟ إنه على بعد ميلين تقريبًا.

ووصلا إلى النهر، في الصيف يكون عبوره بالخوض، فالنهر عادة ما يجف في شهر أغسطس، ولكن الآن بعد فيضانات الربيع أصبح النهر على اتساع أربعين قدمًا ومغطى بالطين وباردا، على الضفة فوق الماء كان هناك آثار جديدة لعجلات، ما يعني أنه تم العبور من هنا.

وصرخ سيميون بغضب وقلق، ممسكًا اللجام بشدة وهو يهز مرفقيه مثلما يرفرف الطائر جناحيه:

- تحرك! تحرك!

مضى الحصان نحو الماء حتى غاص إلى بطنه وتوقف، لكنه استمر بجهد في السير ثانية، وشعرت ماريا فاسيلينا بالبرودة الشديدة عند قدميها.

وصاحت هي أيضًا:

- تحرك! تحرك!

وخرجا إلى الضفة، وتمتم سيميون وهو يدير لجام الحصان بشكل مستقيم:

- يا لها من فوضى لطيفة، يا رب ارحمنا! إنه لبلاءٌ عظيم مجلس زيمتوف هذا...

كان حذاء فاسيلينا وخفها [١٥]ممتلئين بالماء، والجزء السفلي من ثوبها ومعطفها والكمّ كانا مبللين ورطبين أيضًا. السكر والدقيق كان مبللًا، وكان ذاك أسوء شيء على الإطلاق، ولم تستطع فعل شيء ماريا فاسيليفنا سوى أن تشبك يديها في يأس وتقول:

- آه يا سيميون، كم أنت مُتعِب حقًا يا سيميون!

كان الحاجز يهبط على معبر السكة الحديدية، والقطار يخرج من المحطة، ووقفت ماريا فاسيليفنا عند المعبر تنتظر حتى تعبر السكة وهي ترتجف من البرد، كانت فيازوفي على مرمى النظر، المدرسة

---

[١٥] حذاء فوقي يلبس فوق الحذاء أوقات الثلج والبرد والعواصف.المترجم

ذات السقف الأخضر، والكنيسة التي تلمع صلبانها مع شمس الغروب، ولمعت نوافذ المحطة أيضًا، وارتفع دخان وردي من القاطرة... وبدا لها بأن كل شيء كان يرتعش من البرد.

ومر القطار وعكست نوافذه ضوءً لامعًا مثل الصلبان على الكنسية، وجعلت عيناها تتألم من النظر إليها. وعلى الرصيف الصغير بين عربتين من الدرجة الأولى كانت تقف سيدة، وألقت ماريا فاسيليفنا نظرة خاطفة عليها وهي تمر، أمها! يا له من شبه! لقد كان لأمها شعر كثيف، وجبين وانحناء في الرأس مثلها تمامًا، وبتجلٍّ مدهش ولأول مرة في تلك السنوات الثلاثة عشر، ظهرت أمام ذهنها صورة حية عن أمها وأبيها وشقيقها، وشقتهم في موسكو، وحوض السمكة الصغيرة، كل شيء بأدق التفاصيل، لقد سمعت صوت البيانو وصوت والدها وشعرت كما لو كانت آنذاك شابة، جميلة، أنيقة الثياب، وتجلس في غرفة دافئة بين ناسها. واستحوذ شعور من الفرح والسعادة على روحها على حين فجأة، وضغطت بيديها على صدغيها بنشوة ونادت بنعومة وحنان:

- أمي!

وشرعت في البكاء دون أن تعلم لماذا، وفي تلك اللحظة تمامًا، قاد خانوف فريقه ذا الأربع خيول، ورؤيته جعلتها تتصور السعادة كما لم تتصورها من قبل، وابتسمت وأومأت له برأسها كنظير وصديق، وخيّل لها أن سعادتها وانتصارها يتوهجان في السماء بكل اتجاه، وعلى النوافذ والأشجار، لم يكن والداها قد توفيا أبدًا، ولم تكن معلمة قط، لقد كان حلمًا طويلًا مملًا، وغريبًا، والآن قد استيقظت...

- تفضلي بالدخول يا فاسيليفنا!

وتلاشى كل شيء على الفور، ورفع حاجز السكة ببطء، ودخلت ماريا فاسيليفنا العربة وهي ترتعش وتنكمش من البرد، وعبرت العربة ذات الخيول الأربعة خط السكك الحديدية وتبعها سيميون، ورفع عامل الإشارة قبعته.

- وها هي فيازوفي. ها نحن هنا.

كُربة [١٦]

«لمن أشكو حزني؟»

غسق المساء، رقائق الثلج الكبيرة الرطبة تدور بكسل حول مصابيح الشارع التي أضيئت للتو، وترقد في طبقة رقيقة فوق الأسطح وظهور الخيول والأكتاف والقبعات، وأيونا بوتابوف، الحوذي، أبيض بالكامل مثل الشبح. يجلس على صندوق دون حراك وهو منثنٍ ضعف ما يمكن للجسد الحي أن ينثني، ويبدو لو أن كومة من الثلج سقطت عليه، فلن يعتقد أنه من الضروري نفضها، فرسه الصغيرة بيضاء من الثلج وبلا حراك هي أيضًا. وسكونها وعدم تناسق وقوفها وأرجلها الشبيهة بالعصا جعلها تبدو مثل حصان كعكعة الزنجبيل الرخيصة، الأرجح أنها غارقة في التفكير، فمن اقتلع بعيدًا عن المحراث وعن مناظر الطبيعة المألوفة وألقي به في هذا المستنقع الممتلئ بالأضواء الشنيعة، والصخب المستمر والناس المسرعين، لا بد له أن يفكر.

مضى وقت طويل على تحرك أيونا وفرسه، فقد خرجا من الساحة قبل المغرب دون أن يسترزقا حتى الآن، لكن ظلال المساء تهبط على المدينة الآن، ويتحول الضوء الشاحب لمصابيح الشارع إلى لون زاه، ويزداد ضجيج الشارع صخبًا.

ويسمع أيونا:

- إلى فيبورجسكايا! تحرك!

ويبدأ أيونا من خلال رموشه المغطاة بالثلج برؤية ضابط يرتدي معطفًا عسكريًا ويضع قَلنسوة على رأسه.

ويردد الضابط:

- إلى فيبورجسكايا، هل أنت نائم؟ إلى فيبورجسكايا!

ويشد أيونا اللجام تعبيرًا على الموافقة، ويبعث على سقوط كومات من الثلج من على ظهر الفرس وكتفيه، ويركب الضابط على الزلاجة، ويطقطق الحوذي على الفرس، ويرفع رقبته مثل البجعة، وينهض من مقعده وهو يلوّح بسوطه تبعًا للعادة أكثر من كونه أمرًا ضروريًا، وترفع الفرس رأسها أيضًا، وتنصب ساقيها الشبيهة بالعصا وتتحرك من مكانها بتردد.

ويسمع أيونا صيحات من الحشد المظلم التي يتحرك ذهابًا وعودة:

- إلى أين تزاحم يا شيطان؟ الزم يمينك!

---

[١٦] نشرت القصة لأول مرة في جريدة بطرسبرغ في السابع والعشرين من يناير لعام ١٨٨٦ موقعة باسم «أ.تشيخونتا» وترجمت منذ ذاك الوقت إلى عدة لغات.المترجم

ويقول الضابط بغضب:

- أنت لا تعرف كيف تقود! حافظ على اليمين!

وحوذي يقود عربة يلقي بالسباب عليه، ويصطدم أنف الحصان بكتف أحد المارة وهو يعبر الطريق، وينظر إليه بغضب وهو ينفض الثلج عن أكمامه، ويتلوى من على المقعد كأنه جالس على الشوك، ويهز مرفقيه، ويحوّل عينيه وكأنه لا يعرف أين هو أو لماذا هو هنا.

ويقول الضابط بسخرية:

- يا لهم من أوغاد جميعًا! إنهم ببساطة يبذلون قصارى جهدهم للاصطدام بك أو الوقوع تحت أقدام الحصان. يجب أن يفعلوا ذلك لسبب.

ينظر أيونا إلى الراكب وهو يحرك شفتيه... يبدو أنه يريد قول شيء ما، ولكن لم تخرج منه سوى شهقة حزن.

ويسأل الضابط مستفسرًا:

- ماذا؟

ويبدي أيونا ابتسامة ساخرة، ويجهد على حنجرته، ويقول بصوت مبحوح:

- إبني.. أحـح... إبني مات هذا الأسبوع يا سيدي.

- همم! وممَّ مات؟

يلتفت أيونا بجسده كله نحو الراكب ويقول:

- من بوسعه القول! لا بد أنه مات من الحمى... قضى ثلاثة أيام في المشفى ثم مات... مشيئة الله.

ويأتي صوت من الظلام:

- التفت أيها الشيطان! هل صدع رأسك أيها الكلب العجوز! انظر إلى أين تقود!

ويقول الضابط:

- هيا! هيا!... لن نصل إلى هناك حتى يوم الغد على هذا المنوال، أسرع!

يرفع الحوذي رقبته مرة أخرى، وينهض من مقعده ملوحًا بسوطه بلياقة ثقيلة، لقد التفت إلى الضابط ونظر مرات عديدة، ولكن الأخير كان يبقي عينيه مغمضتين، ويبدو أنه لا يميل إلى الاستماع، وبعد توصيله إلى فيبورجسكايا، يتوقف أيونا بالقرب من أحد المطاعم، ويجلس ثانية على الصندوق ويقرفص... ويغطيه الثلج الرطب هو وفرسه باللون الأبيض مجددًا. وتمر ساعة، ثم ساعة أخرى...

ويأتي ثلاثة شبان اثنان منهم طويلان ونحيفان، والثالث قصير وأحدب، وهم يسبون بعضهم بصوت عال وخاتمين عرض الرصيف بجزماتهم.

وصاح الأحدب بصوت مبحوح:

- يا حوذي، إلى جسر الشرطة! ثلاثتنا... بعشرين كوبيكا!

يشد أيونا اللجام ويطقطق على حصانه، إن عشرين كوبيكًا ليس سعرًا عادلًا، لكنه لم يكن ليفكر بذلك، وسواء كان روبلًا أم خمسة كوبيكات فإنه لا يهم طالما لديه رزق الآن... يقترب الشباب الثلاثة من الزلاجة وهم يتدافعون بألفاظ سيئة، والثلاثة يحاولون الجلوس في الوقت ذاته، تبقى المسألة التي يجب تسويتها:

- من اللذان سيجلسان ومن الذي سيقف؟ وبعد ملاسنة طويلة وتأفف وشتام، توصلوا إلى نتيجة مفادها أن الأحدب ينبغي أن يقف لأنه الأقصر.

ويقول الأحدب بصوته المبحوح وهو يثبت نفسه ويتنفس خلف رقبة أيونا:

- حسنًا، تحرك! اقطع الطريق بالطول! يا لها من قبعة هذه التي عندك يا صاحبي! لن تجد أسوأ منها في كل بطرسبرغ...

ويضحك أيونا:

- هيه هيه!. هيه هيه! شيء لا يدعو للفخر!

- طيب إذن، شيء لا يدعو للفخر، اسرع! هل ستقود الطريق هكذا؟ هاه؟ هل أعطيك صفعة على الرقبة؟

وقال أحد طويلي القامة:

- إن رأسي يؤلمني، البارحة شربت أنا وفاسكا عند بيت دوكماسوف أربع زجاجات من البراندي[١٧] نحن الاثنان.

ويقول الطويل الآخر بغضب:

- لا أستطيع أن أفهم لماذا تتحدث عن مثل هذه الأمور، أنت تكذب مثل البهيمة.

- تعال اضربني! إنها الحقيقة!..

---

[١٧] نوع من الخمر. المترجم

- إنها حقيقة كحقيقة أن القملة تسعل.

ويكشّر أيونا:

- هيه هيه! أيها السادة الممم.. المرحون!

وصرخ الأحدب بسخط:

- تفو! شيطان يأخذك! هلا ستعجّل أيها الطاعون العجوز أم لا؟ هل هكذا هي القيادة؟ أعطها ضربة بالسوط، بالسوط كله هكذا، اضربها جيدًا.

ويشعر أيونا خلف ظهره بالجسم المهتز والصوت المرتعش للأحدب، ويسمع السباب الموجه إليه، ويرى الناس فيبدأ الشعور بالوحدة يصبح أخف ثقلًا في قلبه شيئًا فشيئًا. ويسب الرجل الأحدب في وجهه حتى اختنق في سلسلة من الألفاظ الغريبة المتقنة، وغلب عليه السعال، وبدأ رفيقاه الطويلان بالتحدث عن ناديجدا بتروفنا ،[١٨] ويلتفت أيونا وينظر إليهما، منتظرًا أن يكون هناك توقف موجز، ويتطلع نحوه مجددًا ويقول:

- هذا الأسبوع.. مـا.. ابنـ.. ابــ.. مات ابني!

ويتنهد الأحدب وهو يمسح شفتيه بعد السعال:

- كلنا سنموت... هيا، تحرك! تحرك! يا جماعة، أنا ببساطة لا أستطيع أن أظل معلقًا هكذا! متى سيصل بنا إلى هناك؟

- طيب، أعطه قليلًا من التشجيع... صفعة على الرقبة!

- هل تسمع؟ أنت أيها الطاعون العجوز؟ سأوجعك، إذا استطاع المرء أن يقف في حفلة مع زملاء مثلك إذًا يمكنه المشي، هل تسمع، أيها التنين القديم؟ أم أنك لا تهتم بالتعليق على ما نقوله؟

ويفضّل أيونا السماع عن الاحساس بالصفعة على رقبته.

ويضحك:

- هيه هيه! سادة مرحون.. رزقكم الله الصحة!

ويسأل أحد طويلي القامة:

---

[١٨] مصممة أزياء روسية، وكانت تصمم فساتين للإمبراطورة الكسندرا فيودورفنا. والأرجح أن ما يُقصد هي الموضة. المترجم

- يا حوذي، هل أنت متزوج؟

- أنا؟ هيه هيه! أيها السادة المـــ... المرحون! الزوجة الوحيدة لي الآن هي الأرض الرطبة... هيه هو هو!.. القبر يعني!. حيث مات ولدي وأنا على قيد الحياة... حكاية غريبة والله، لقد قرع الموت الباب الخطأ... بدلًا من أن يأتي إليَّ ذهب إلى ولدي...

ويلتفت أيونا ليخبرهم كيف مات ابنه، لكن الأحدب يتنهد خافتًا عند هذه البقعة، والحمد لله! وصلوا أخيرًا، وبعد أخذ العشرين كوبيكًا، يحدّق أيونا لوقت طويل بعد ذهاب المرحين الذين اختفوا في مدخل مظلم، ومرة أخرى هو وحده، وها هو الصمت ثانية... إن البؤس الذي همد لفترة قصيرة يعود إليه مجددًا ويمزق قلبه بقسوة أكثر من أي وقت، وبنظرة من القلق والمعاناة، تنحرف عيون أيونا بجزع نحو الجموع التي تتحرك على جانبي الشارع. ألا يستطيع أن يجد بين هؤلاء الآلاف شخصًا يستمع إليه؟ لكن الجموع تتحرك دون اكتراث له ولبؤسه... بؤسه الهائل، الذي يتخطى كل الحدود، ولو أن قلب أيونا، على ما يبدو، انفجر وتدفق بؤسه فسيغمر الدنيا كلها. لكنه لم يُر بعد. لقد ظل مخبئًا في مكان أشبه بقوقعة تافهة ليس بالإمكان العثور عليها ولو في وضح النهار.

ويرى أيونا بوابًا يحمل طردًا فيعزم التوجه إليه، ويسأله:

- كم الساعة الآن يا صاحب؟

- بحدود العاشرة... لماذا توقفت هنا؟ تحرك!

ويتحرك أيونا بضعة خطوات، ويثني جسده ضعفين، ويستسلم لبؤسه، ويشعر أنه لا خير في أن يناشد الناس، ولكن قبل مرور خمس دقائق، أخذ يجر نفسه، ويهز رأسه كما لو كان يشعر بألم حاد، ويشد اللجام.. فلم يعد بإمكانه التحمل أطول.

وأخذ يفكر: «سأعود إلى الساحة، إلى الساحة!»

وفرسه الصغير، كما لو أنها علمت بماذا يفكر، أخذت تهرول، وبعد ساعة ونصف يجلس أيونا بجانب موقد كبير متسخ. على الموقد، والأرض، والمقاعد، يشخر الناس. والجو مليء بالروائح وخانق، ينظر أيونا إلى أشكال النائمين، ويحك جلده، ويأسف لأنه عاد إلى البيت مبكّرًا...

وأخذ يفكر:

- «أنا لم أسترزق بما يكفي لشراء الشوفان، لهذا السبب أنا بائس للغاية، إن الرجل الذي يعرف كيف يقوم بعمله... والذي لديه ما يكفي من الطعام، ولدى فرسه ما يكفي لتأكل، يكون مرتاح البال على الدوام...

في إحدى الزوايا، يستيقظ حوذي شاب، ويسعل بنعاس، ويمسك دلو الماء.

ويسأله أيونا:

- تريد أن تشرب؟

- يبدو كذلك!

- بالهناء والشفاء.... لكن ابني مات يا صاحب... هل تسمع؟ هذا الأسبوع في المشفى... حكاية غريبة!...

وينظر أيونا إلى تأثير كلماته، لكنه لا يرى شيئًا، لقد غطى الشاب رأسه وهو نائم بالفعل، ويتنهد العجوز ويحك جلده... تمامًا مثلما كان الشاب متعطشًا لشرب الماء، كان هو متعطشًا للكلام، سيمضي أسبوع تقريبًا على وفاة ابنه، ولم يتحدث إلى أي شخص بعد... إنه يريد أن يتحدث عن الأمر كما يجب، بتروٍ... يريد أن يتحدث كيف أصيب ابنه بالمرض، وكيف عانى، وماذا قال قبل وفاته، وكيف مات... يريد وصف الجنازة، وكيف ذهب إلى المشفى ليستلم ملابس ابنه... وابنته أنتيسا التي لا تزال في الريف... يريد التحدث عنها أيضًا... نعم، لديه الكثير ليتحدث عنه الآن، ينبغي على السامع أن يتنهد ويصرخ ويندب... والأفضل التحدث إلى النساء، ولو أنهنّ مخلوقات حمقاوات، إلا أنهنّ ينتحبن من أول كلمة.

وفكر أيونا: «فلأخرج وألقي نظرة على الفرس... يوجد وقت للنوم دائمًا... سيكون لديك ما يكفي من النوم، لا خوف...»

ويرتدي معطفه ويذهب إلى الإسطبل حيث تقف فرسه، وأخذ يفكر في الشوفان، التبن، والطقس... فهو لا يستطيع أن يفكر في ابنه عندما يكون وحيدًا... وأنّ التحدث عنه مع شخص ما أمر ممكن، لكن التفكير فيه وتخيله أمر لا يطاق.

ويسأل أيونا فرسه وهو يرى عينيها اللامعة:

- هل تمضعين طعامك؟ امضغي جيدًا، امضغي جيدًا... سنأكل التبن كوننا لم نحصل على ما يكفي للشوفان... نعم، لقد كبرتُ على القيادة... ينبغي أن يكون ابني هو من يقود، وليس أنا... لقد كان حوذيًا حقيقيًا... كان المفروض أن يعيش...

وظل أيونا صامتًا لفترة، ثم مضى يقول:

- هكذا، أيتها الفتاة العجوز... لقد رحل كوزما يونيتش، لقد قال لي الوداع... لقد ذهب ومات بلا سبب... الآن، لنفترض أن لديكِ مهرا صغيرا وكنت أمًا لهذا المهر الصغير... وفجأة رحل هذا المهر الصغير ومات... ألن يكون هذا مؤسفًا؟

وتمضغ الفرس الصغيرة وتصغي وتتنفس على يد سيدها... ويتحمس أيونا ويحكي لها كل شيء.

بعد المسرح [١٩]

عادت نادية زيلينن من المسرح مع أمها للتو بعد أن شاهدت عرض يفغيني اونيغين ، [٢٠]وما أن وصلت إلى غرفتها حتى خلعت فستانها وأسبلت شعرها، وأسرعت تجلس إلى الطاولة بتنورتها وقميص النوم الأبيض لتكتب رسالة مثل الرسالة التي كتبتها "تاتيانا" [٢١]

وكتبت:

-

«إنني أحبك، لكنك لا تحبني، لا تحبني!»

كتبت هذه العبارة وضحكت.

كانت في السادسة عشر [٢٢]من العمر فقط، ولم يسبق لها أن وقعت في حب أحد، كانت تعلم بأن الضابط غورني والطالب جروزديف يحبانها... لكن الآن وبعد عرض الأوبرا، أرادت التشكيك في حبهما لها.

كم هو ممتع أن تكون غير محبوبٍ وغير سعيد، هناك شيء جميل، مؤثر، وشاعري عندما يحب المرء أحدًا بينما الآخر لا يبالي به، لقد كان اونيغين مثيرًا للإعجاب لأنه لم يقع في الحب على الإطلاق، وكانت تاتيانا فاتنة لأنها غارقة في الحب، ولو كانا يحبان بعضهما البعض على حد سواء؛ فربما سيبدو الأمر مملًا.

وشرعت نادية في الكتابة وهي تفكر في غورني:

---

[١٩] نشرت القصة لأول مرة في جريدة بطرسبرغ في السابع من أبريل عام ١٨٩٢. وترجمت القصة في حياة الكاتب إلى أكثر من لغة. المترجم

[٢٠] رواية شعرية من تأليف "ألكسندر بوشكين»، نشرت ما بين ١٨٢٥ و١٨٣٢، تم تحويل الرواية بعد ذلك إلى أوبرا من قبل بيتر تشايكوفسكي. المترجم

[٢١] في الإشارة إلى شخصية «تاتيانا لارينا» في الرواية الشعرية «يفغيني أونيغين «التي ظهرت في العرض أيضًا، وهي فتاة خجولة وهادئة وعاطفية، وجعل بوشكين من ذكاء وعمق تاتيانا وصدقها في موضوع الحب قدوة الكثير من نساء روسيا. المترجم

[٢٢] ناديا زيلينن هنا تصغر بطلة رواية بوشكين تاتيانا لارينا بسنة واحدة، كما أشار بوشكين لعمرها في رسالة أرسلها إلى بيتر فايزمزكي بأن عمرها سبعة عشر. المترجم

«توقف عن تأكيد حبك لي، إنني لا أستطيع أن أصدق ذلك؛ فأنت ذكي جدًا، ناضج، جاد، ولديك موهبة هائلة، وربما ينتظرك مستقبل مبهر، بينما أنا فتاة مملة ولا أهمية لها، وأنت تعلم جيدًا بأنني لن أكون إلا عائقًا في حياتك فقط، صحيح أنك انجذبت إلي وتعتقد أنك وجدت بي الفتاة التي تبحث عنها، لكن ذلك كان خطأً، وأنت الآن تسأل نفسك في يأس؛ لماذا التقيت بهذه الفتاة؟ وطيبة قلبك فقط من تمنعك من أن تعترف بذلك».

وشعرت نادية بالأسف على نفسها، وبدأت بالبكاء وتابعت:

- «من الصعب عليَّ ترك أمي وأخي، وإلا لوضعت حجاب الراهبة وذهبت إلى أي مكان تقودني إليه، وتكون أنت بحريتك وتحب فتاة أخرى... آه، لو أموت!»

لم تستطع أن تقرأ ما قد كتبته من دموعها، وكانت ألوان الطيف الصغيرة ترقص على الطاولة، على الأرض، وعلى السقف، كما لو كانت تنظر عبر موشور من الزجاج، لم تستطع الكتابة، وعادت بظهرها إلى الكرسي وغرقت في التفكير حول غورني.

- «يا إلهي!. كم أنتم ممتعون وساحرون أيها الرجال!»

وتذكرت نادية التعبير الرائع، المذهل، المذنب، المتملق، والناعم الذي ظهر على وجه الضابط عندما جادله أحدهم حول الموسيقى، والجهد الذي بذله ليمنع صوته من أن يخون عاطفته... على المرء أن يخفي عواطفه في مجتمع تعتبر الغطرسة الباردة وعدم المبالاة علامات على التربية الجيدة والأخلاق النبيلة... وقد حاول هو إخفائها، إلا أنه لم ينجح في ذلك، والجميع يعلم بحبه الجامح للموسيقى.

النقاشات التي لا تنتهي عن الموسيقى والانتقادات من الناس الذين لا يعرفون شيئًا عنها أبقته في حالة من التوتر الدائم. كان خائفًا، خجولًا، صامتًا، ويعزف على البيانو بشكل رائع مثل عازف محترف، ولو أنه لم يكن في الجيش لكان موسيقيًا مشهورًا بلا شك.

وجفت الدموع في عينيها، وتذكرت نادية أن غورني أعلن عن حبه لها مرة في حفلة موسيقية، ثم في الطابق السفلي عند شماعة الملابس مرة أخرى، حيث كان الهواء القوي يهب من كل الجهات.

وأخذت في الكتابة:

- «أنا مسرورة جدًا لأنك تعرفت أخيرًا على صديقنا الطالب جروزديف، إنه رجل ذكي للغاية، وأنا على يقين بأنك ستحبه، لقد أتى لرؤيتنا البارحة وبقي عندنا حتى الساعة الثانية، لقد سررنا جميعًا بقدومه، ويؤسفني أنك لم تأتِ، لقد تحدث بالكثير من الأشياء الرائعة.»

مددت ناديا ذراعيها على الطاولة وأسندت رأسها عليهما وغطى شعرها الرسالة، وتذكرت بأن الطالب يحبها أيضًا، وأن له الحق في أن ترسل له رسالة مثل جورني، ألن تكون الكتابة إلى جروزديف أفضل بعد كل ذلك؟ كان الفرح يهيج في صدرها دون سبب، وكانت البهجة صغيرة في البداية، ثم أخذت تتدحرج في صدرها مثل كرة المطاط، ثم أصبحت أكثر ضخامة وأكبر ثم هرعت مثل الموج،

لقد نسيت نادية غورني وجروزديف، وكانت أفكارها متشابكة وبهجتها تكبر وتنمو،وعبرت إلى ذراعيها وساقيها وبدا كما لو أنها نسيم لطيف وبارد يتنفس فوق رأسها ويداعب شعرها، وارتعشت أكتافها من الضحك الخافت، واهتزت الطاولة والفانوس أيضًا، وبللت دموع عينيها الرسالة، ولم تستطع أن تتوقف عن الضحك، ويقينها من أنها لا تضحك على شيء جعلها تضحك أكثر.

وقالت وهي تشعر بأنها تختنق من الضحك:

- يا له من كلب مضحك، يا له من كلب مضحك!

وفكرت كيف لعب جروزديف مع الكلب مكسيم بعد شرب الشاي مساء الأمس، وأخبرهم بعد ذلك عن الكلب الذكي جدًا الذي ركض خلف غراب في الساحة، ثم التفت الغراب نحوه وقال:

- آخ.. يا لك من شقي!

فلم يعلم الكلب أنه كان يتعامل مع غراب مثقف، وكان خائفًا ومشوشًا، وتراجع في حيرة وبدأ ينبح.

- لا، من الأفضل أن أحب جروزديف.

قررت نادية ومزقت الرسالة التي كانت سترسلها إلى غورني.

وسقطت في التفكير في الطالب، في حبه، وفي حبها. لكن الأفكار التي في رأسها أصرت على التدفق من كل الجهات، وفكرت في كل شيء؛ في أمها، في الشارع، في قلم الرصاص، وفي البيانو... لقد فكرت فيهم بسعادة، وشعرت أن كل شيء حسن ورائع، وأوحت لها بهجتها أن هذا ليس كل شيء بعد، وأنه عما قريب ستكون الأمور أفضل... قريبًا سيحل الربيع، الصيف، والسفر مع والدتها إلى غوربيكي، وسيأتي غورني من إجازته العسكرية ويتمشى معها في الحديقة ويمنحها حبه، وسيأتي جروزديف أيضًا، وسيلعب الكروكيه والبولينغ [٢٣] معها، ويخبرها بأشياء رائعة، كان لديها شوق عاصف للحديقة، للظلام، للسماء النقية، وللنجوم.. وارتعشت أكتافها من الضحك ثانية، وبدا لها أن رائحة من نبتة الشيح تفوح في الغرفة، وأن هناك غصنًا صغيرًا ينقر على النافذة.

وذهبت إلى سريرها وجلست عليه، وهي لا تدري ماذا تفعل بالبهجة الهائلة الذي ملأتها شوقًا، ونظرت إلى الصورة المقدسة المعلقة فوق ظهر سريرها وقالت:

- آه.. يارب.. آه.. يارب.

---

[٢٣] لعبة قديمة تشبه لعبة البولينغ الحالية بحد كبير، حيث توضع تسعة أقنية خشبية وتضرب بالكرة أو بالقرص، وانحدرت منها البولينغ المعروفة. المترجم

في المنفى [٢٤]

كان العجوز «سيميون» الملقب بـ «الداهية» وشاب من التتار لا يعرف أحد اسمه جالسين على ضفة النهر وملتفين حول النار، أما عمال العبّارة الثلاثة الآخرون فكانوا في الكوخ، سيميون رجل عجوز في الستين من عمره، هزيل البدن وبلا أسنان، لكنه عريض المنكبين ولا زال يتمتع بصحة جيدة. كان ثملًا، ويريد أن يذهب للنوم منذ وقت طويل، لكنه يضع زجاجة من الفودكا في جيبه ويخشى أن يطلب الزملاء الفودكا منه في الكوخ.وكان التتاري مريضًا ومرهقًا ويلف بدنه بخرق بالية، ويصف كم هي جميلة مقاطعة سيمبيرسك، وكيف ترك زوجته الحسناء والذكية في المنزل. لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، وبدا على ضوء النار وبوجهه الشاحب، المريض، والحزين كأنه طفل.

قال الداهية:

- إن ما خاب ظني، فإن الجنة ليست في هذا المكان، يمكنك أن ترى ذلك بنفسك، المياه، الضفاف العارية، الطين، ولا شيء غير ذلك... لقد مضى وقت طويل على عيد الفصح، لكن الجليد ما يزال فوق النهر، وكان هناك سقوط للثلج هذا الصباح....

وتطلع التتاري حوله برعب وقال:

- وضع سيء! سيء!

كان النهر البارد والمظلم يتدفق على مسافة عشرة خطوات، ثم تهاوت والتوى على ضفاف الطين الجوفاء ومضى بسرعة نحو البحر البعيد، وقرب الضفة كان هناك طمس داكن لعبّارة كبيرة أطلق عليها العمال اسم «كاربوس»، وبعيدًا على الضفة الأخرى، كانت الأضواء تنطفئ ثم تومض مرة أخرى، متعرجة مثل الثعابين الصغيرة، إنهم يحرقون عشب العام الماضي، وخلف الثعابين الصغيرة هبط الظلام ثانية، وكان بمقدور المرء سماع كتل الجليد الصغيرة تتساقط على البارجة وهي رطبة وباردة [٢٥]...

وألقى التتاري نظرة على السماء، وهنا يوجد العديد من النجوم كما هو في المنزل، والسواد نفسه من كل ناحية، لكن شيئا ما كان معدوما هنا، فالنجوم في المنزل في مقاطعة سيمبيرسك مختلفة تمامًا، والسماء كذلك الأمر.

---

[٢٤] نشرت القصة لأول مرة في مجلة «صورة العالم «في التاسع من مايو عام ١٨٩٢. وترجمت القصة وقتها إلى أكثر من لغة منها الإنكليزية والألمانية واليابانية. المترجم

[٢٥] تُصور هذه المشاهد وقائع حقيقية عاشها الكاتب خلال رحلته إلى سبيريا، ففي السابع من مايو عام ١٨٩٠ لم يتمكن تشيخوف من عبور نهر إريتش بسبب سوء الأحوال الجوية، وقضى الليلة على ضفة النهر في كوخ المراكبية. المترجم

وعاد يكرر:

- وضع سيء! سيء!

ضحك سيميون وقال:

- ستتعود على ذلك، أنت لا تزال الآن شابًا وساذجا، وحليب أمك ما زال في فمك، ويخيّل إليك من حماقتك بأنك بائس أكثر من أي إنسان آخر، لكن سيأتي اليوم الذي تقول فيه لنفسك «عسى أن يمنح الله الجميع مثل هذه الحياة» ركز معي. خلال أسبوع ستنتهي الفيضانات ونقوم بتجهيز العبّارة، وستطوفون جميعًا حول سيبيريا بينما أبقى أنا وأبدأ بالذهاب من ضفة لأخرى، أمضيت اثنين وعشرين عامًا من حياتي في هذا العمل، سمك الكراكي والسلمون تحت الماء وأنا فوقه، والحمد لله على ذلك، لا أريد شيئًا، عسى أن يمنح الله الجميع مثل هذه الحياة.

وألقى التتاري ببعض الأغصان الجافة على النار واستلقى بالقرب منها، وقال:

- إن والدي مريض، وحين يأتي الأجل ستأتي أمي وزوجتي إلى هنا. لقد وعدتاني.

وسأل الداهية:

- وماذا تريد بزوجتك وأمك؟ هذه مجرد حماقة يا ولدي، إنه الشيطان يوسوس لك، اللعنة على روحه! لا تنصت إليه هذا الملعون، ولا تدعه يأخذ سبيله إليك، إنه يأتيك من باب النساء، لكن نكاية فيه قل: «لا أريدهن!» ثم يوسوس لك بالحرية، لكن قف بوجهه وقل: «لا أريدها! ولا أريد شيئًا، لا أبًا، ولا أمًا، ولا زوجة، ولا حرية، ولا منصبًا ولا حقلًا، لا أريد شيئًا، لعنة الله عليهم جميعًا!».

وأخذ سيميون رشفة من الزجاجة وأكمل:

- أنا لست فلاحًا بسيطًا، ولا من الطبقة العاملة، بل ابن شماس، وعندما كنت حرًا كنت أعيش في كورسك، ومعتاد على لبس معطف فاخر، وها أنا الآن قد جلبت نفسي إلى بقعة أستطيع فيها أن أنام عاريًا على الأرض وآكل العشب. عسى أن يمنح الله الجميع مثل هذه الحياة، أنا لا أريد شيئا ولا أخاف من أحد، وأرى أنه ليس هناك أحد غني وحر أكثر مني، عندما أرسلوني من روسيا إلى هنا قلت من أول يوم: «لا أريد شيئًا!» كان الشيطان يذكرني بزوجتي وبيتي والحرية، ولكنني قلت له «لا أريد شيئًا» وتمسكت بذلك، وكما ترى ها أنا أعيش بخير ولا أشتكي، وما إذا أفسح الواحد الطريق للشيطان واستمع إليه، ولو لمرة واحدة؛ فقد ضيّع نفسه، وليس هناك من خلاص له، فقد غرق في المستنقع حتى ذروة رأسه ولن يخرج منه أبدًا.

ليس الفلاح الأحمق مثلك هو وحده الضائع، بل حتى السادة والمثقفون، منذ خمسة عشر عامًا أرسلوا رجل من السادة من روسيا إلى هنا، لم يشارك إخوته بشيء وقام بتزوير شيء ما في الوصية، يقولون أنه كان أميرًا أو بارونا، أو ربما ببساطة كان مجرد مسؤول... من يدري؟ المهم... عندما وصل الرجل إلى هنا، فإن أول شيء فعله هو أن اشترى منزلًا وأرضًا في موخورتينسكي. ويقول: «أريد

أن أعيش من عملي، من عرق جبيني، لأنني لم أعد سيدًا الآن، بل مستوطنا»، وقلت أنا «طيب، أعانك الله، هذا هو الصواب». كان شابًا مشغولًا وحريصًا وقتها، واعتاد على قص العشب بنفسه وصيد السمك وركوب الخيل مسافة ستين ميلًا، هذه الحكاية حتى الآن، وأخذ من السنة الأولى يمتطي الخيل إلى جيرينو لمكتب البريد، وكان يقف على متن عبّارتي ويتنهد «إيييه يا سيميون، كم مضى منذ أن أرسلوا لي مالًا من البيت»، وقلت أنا «مالك بالمال يا فاسيلي سيرغيتش؟ ما نفعه بالنسبة إليك؟ لقد رميت الماضي ونسيته كما لو أنه لم يكن من الأصل، كما لو كان حلما، ابدأ الحياة من جديد، لا تصغ للشيطان، لن يجلب لك الخير وسيقود بك إلى المصيدة، الآن تريد المال، لكن بعد أمد قصير ستطلب شيئا آخر، ثم المزيد والمزيد، إذا أردت أن تكون سعيدًا فإن أهم شيء هو عدم الرغبة في أي شيء، أي نعم...، وإن ظلمتك الحياة وظلمتني بقسوة فليس من الخير أن تركع لها وتطلب الإحسان، بل احتقرها واضحك عليها، أو هي من سيضحك عليك».

هذا ما قلته له...

وأكمل سيميون:

- وبعد عامين نقلته بعبّارتي إلى هذه الضفة، وكان يفرك يديه ويضحك ويقول: «سأذهب إلى جيرينو لأقابل زوجتي، كانت تشعر بالأسى عليّ، وها قد جاءت، إنها امرأة صالحة وطيبة»، كانت أنفاسه تتقطع من البهجة، وهكذا أتى بعد يوم مع زوجته، الشابة الجميلة التي تضع قبعة على رأسها وتحمل طفلة بين ذراعيها. والكثير من الأمتعة ومن كل الأشكال، وكان فاسيلي سيرغيتش مهبولًا حولها، ولم يستطع أن يرفع عينيه عنها وأن يعطيها حقها من المديح، وقال «نعم يا أخي سيميون، يمكن للناس العيش حتى في سيبيريا»...

وفكرت أنا «أوه صحيح، لكن الحكاية ستختلف عما قريب».

ومنذ ذلك الحين كان يذهب كل أسبوع تقريبًا للسؤال عما إذا أتت الأموال من روسيا، كان يريد الكثير من المال، ويقول: «إن زوجتي تفقد شبابها وجمالها هنا في سيبيريا من أجلي وتشاطرني مرارتي الكثيرة، ولذا يجدر بي أن أقدم لها كل سبل الراحة».

وليجعل الأمر أكثر حيوية من أجل السيدة، قام بالتعرف على المسؤولين وكل أنواع الأوباش، وكان عليه طبعًا أن يقدم الطعام والشراب لكل هذه الجموع، وكان لا بد من وجود بيانو وكلب صغير أشعث على الأريكة...ليأخذه الطاعون! الترف، الصراحة، انغماس بالملذات، ولم تبق السيدة معه طويلًا، وكيف لها أن تبقى؟ الطين، والمياه، والبرد، وليس هنالك من خضروات لأجلك ولا فاكهة، وكل من حولك خلق جاهلون وثملون وليس عندهم ذرة من الأخلاق، وهي سيدة مدللة من بطرسبورغ أو من موسكو... وإن ما خاب ظني أحست بالاكتئاب، أضف إلى ذلك أن زوجها كان يردد مثل ما تقول أنت، ولم يعد من السادة الآن، بل مواطنًا... وليس بنفس المكانة.

ومضى سيميون:

- أتذكر أنه بعد ثلاث سنوات في عشية عيد العذراء، سمعنا صراخا من الضفة التي على الطرف الآخر، وذهبت أنا بالعبّارة، وما رأته عيناي هو سيدة، والجميع ملتفون حولها، ومعها سيد شاب، مسؤول، وزلاجة بثلاثة خيول... وكنت أنا من نقلهم إلى هنا، ثم سرعان ما هربوا مثل الريح... واختفوا عن الأنظار، وفي صباح اليوم التالي، كان فاسيلي سيرغيتش يركض مثل الحصان إلى العبّارة. وقال لي: «هل مرت زوجتي من هذا الطريق مع سيد يضع نظارات يا سيميون؟ وقلت له: «بلى. أنت تبحث عن الرياح في الحقول!»

وهرع للحاق بهم، وظل يركب الخيل ويبحث عنهم لخمسة أيام، بينما أنقله أنا من ضفة لأخرى، وألقى بنفسه على العبّارة وضرب ألواح العبّارة برأسه وهو يصيح، وضحكت أنا وذكرّته بكلامه قائلًا:

- «هكذا هي الحكاية إذن، يمكن للناس العيش حتى في سبيريا!» وضرب رأسه أقوى من أي ضربة...

ثم بدأ يحن للحرية.، وتخلت زوجته عنه وذهبت إلى روسيا، وبالطبع فقد ذهب إلى هناك ليراها ويبعدها عن حبيبها، وأخذ يا ولدي يجري بحصانه كل يوم تقريبًا، إما إلى البريد أو إلى البلدة ليرى الضابط المسؤول، وظل يرسل البرقيات لهم لكي يعطفوا عليه ويسمحوا له بالعودة إلى البيت، ويقول أنه أنفق مائتين روبل على البرقيات وحدها، وباع أرضه ورهن منزله لليهود، وشابَ شعره وتقوس جسده واصفر وجهه، كما لو أنه مريض بالسل، ولو كلمك فسيتبكبك إيه..إيه..إيه.. ويغرق بدموعه، وظل يندفع على هذا النحو ويرسل البرقيات ثمانية سنوات، لكنه أصبح الآن أكثر إشراقًا وأكثر بهجة ثانية، فقد وجد فتاة أخرى أنارت له الطريق، وكما ترى، كبرت ابنته. ويتطلع إليها ويراها مثل بؤبؤ عينه. والصراحة أنها مقبولة، وجميلة المظهر، وذات حواجب سوداء ومزاج بهيج، وكل أحد يأخذها إلى الكنيسة في جيرينو، واعتادا الوقوف على العبّارة جنبًا إلى جنب، وكانت تضحك ولم يستطع أن يرفع عينيه عنها ويقول لي:

- «نعم يا سيميون، يمكن للناس العيش حتى في سيبيريا، حتى في سبيريا يوجد سعادة. انظر، يا لها من ابنة هذه التي عندي، أؤكد لك أنك لن تجد ابنة مثلها ولو على مدار ألف فيرست». وقلت له:

- «ابنتك لا بأس بها، هذا صحيح طبعًا، لكني أعتقد... انتظر... إن الفتاة شابة، دمها يفور، وتريد أن تعيش، ولا يوجد حياة هنا».

وثم بدأت يا ولدي بالذوبان وبهتت وبهتت، والآن بالكاد تستطيع الزحف من السل.

وكما ترى هذه هي السعادة في سيبيريا، لعنة الله عليها! وترى أنت كيف يعيش الناس في سيبيريا... وأخذ بالسعي من طبيب لآخر ويأخذهم معه إلى المنزل، وبمجرد سماعه أن هنالك طبيبا أو ساحرا على بعد مائتين أو ثلاثمائة ميل، يسافر لإحضاره. وكم من المال أنفق على الأطباء، وبرأيي أنه من الأفضل له لو أنفق المال على الشراب... كونها ستموت على الحالتين. حتمًا يعني ستموت، وسينتهي

بعدها كل شيء بالنسبة إليه، وسيشنق نفسه من الحزن أو يهرب إلى روسيا... هذا شيء مؤكد، وسيهرب ويمسكون به ثم يحاكم ويرسل إلى السجن، ويذوق طعم السوط...

وقال التتاري وهو يرتجف من البرد:

- خير! خير!

وسأله الداهية:

- ما هو الخير؟

- زوجته، ابنته... أحسن من السجن والأسى! لقد رأى زوجته وابنته على أية حال...وأنت تقول أنك لا تريد شيئًا، ولكن «لا شيء» كلمة سيئة! زوجته عاشت معه لثلاث سنوات... تلك السنوات كانت هبة من الله، لكن «لا شيء» كلمة سيئة، والثلاث سنوات كانت جيدة، كيف لا تفهم؟

كان التتاري يرتجف ويتأتئ، وقال جاهدًا في استحضار الكلمات الروسية التي لم يعرف منها سوى القليل بأن الله لا يسمح للمرء بأن يمرض أو يموت في أرض غريبة، ثم يدفن في البرد تحت حفرة مظلمة، وأن زوجته لو جاءت إليه ليوم أو حتى ساعة واحدة؛ فإنه مستعدا لتحمل أي معاناة وهو يشكر الله على هذه السعادة، إن يومًا واحدًا من السعادة أفضل من لا شيء.

ثم أخذ يصف مرة أخرى كم هي جميلة وذكية زوجته التي تركها في المنزل، ثم أمسك رأسه بكلتا يديه وبدأ يبكي ويؤكد لسيميون بأنه غير مذنب ويعاني من أجل لا شيء، وأن أخويه وعمه هم من سرقوا خيول الفلاح العجوز وضربوه حتى كاد أن يموت، وأن المعنيين في المجلس لم يحكموا بعدل، بل حكموا على ثلاثتهم بالسجن هو وإخوته وأرسلوهم إلى سيبيريا، بينما بقي عمهم الثري في المنزل.

وقال سيميون:

- ستتعود على ذلك!

كان التتاري صامتًا ويحدق بعيون تملؤها الدموع أمام النار، وعبرّ وجهه عن الحيرة والخوف، كما لو أنه لم يفهم حتى الآن سبب وجوده هنا في الظلام والبرد إلى جوار الغرباء وليس في مقاطعة سيمبيرسك.

والداهية مستلق بالقرب من النار ويضحك لشيء ما، وشرع يدندن أغنية بصوت خافت.

وقال الداهية:

- أي بهجة كانت لديها مع أبيها؟ صحيح أنه يحبها ويفرح بها، لكن يا صاحب، فكر باللب لا القشور، إنه عجوز صارم، وقاسٍ، والشابات الصغيرات لا يحببن الصرامة. إنهن يردن الملاعبة وهاهاها وهو هو هو وعطرًا وأحمر الشفاه.. أي نعم... إيييه! دنيا، دنيا.

وتنهد سيميون ثم نهض بتثاقل وقال:

- لقد نفذت الفودكا، لذلك حان وقت النوم، هاه؟ أنا ذاهب للنوم يا ولدي...

وبقي التتاري لوحده، ورمى ببعض الأغصان على النار واستلقى وهو يحدق فيها، وغدا يفكر في قريته وزوجته وما إذا كانت زوجته تستطيع القدوم لشهر أو يوم واحد، وإذا أحبت الأمر فإنها قد تعود ثانية، يوم أو شهر واحد أفضل من لا شيء، ولكن إذا أوفت زوجته بوعدها وجاءت، فماذا عليه ان يطعمها؟ وأين يمكن لها أن تعيش؟

وسأل التتاري نفسه بصوت عالٍ «إذا لم يكن هناك شيء للأكل، فكيف يمكنها أن تعيش؟»

لقد دفع له عشرة كوبيكات فقط من أجل العمل طوال النهار والليل على المجداف، صحيح أن المسافرين يعطونه بقشيشًا لشرب الشاي والفودكا، ولكن العمال كانوا يتقاسمونه فيما بينهم دون أن يقدموا شيئًا للتتاري، بل يضحكون عليه فقط، وكان يشعر من الفقر بالجوع والبرد والخوف، والآن... عندما أحس بجسمه كله يتألم ويرتجف، كان عليه أن يذهب إلى الكوخ ويستلقي للنوم، لكنه لم يملك شيئًا ليلتحف به هناك، بالإضافة إلى أن الكوخ أبرد من ضفة النهر، وهنا ليس عنده ما يلتحف به، لكن النار يمكنها التعويض على الأقل...

في الأسبوع التالي، عندما انتهت الفيضانات تمامًا وقاموا بتشغيل العبّارة، لم يكن أحد من المراكبية مطلوبا للعمل سوى سيميون، وبدأ التتاري بالسعي من قرية إلى قرية للتسول والعمل، زوجته كانت في السابعة عشر فقط، جميلة، مدللة، خجولة، وهل بوسعها أن تتسول من قرية لأخرى وهي كاشفة عن وجهها؟ لا، إن هذا أمر فظيع للتفكير فيه حتى...

ها هو الضوء يتشقق. العبّارة، شجيرات الصفصاف على الماء، والأمواج التي يمكن رؤيتها بوضوح، وما إذا نظر المرء حوله؛ فسيرى المنحدر الطيني الحاد، وفي الجزء السفلي منه الكوخ المسقوف بالقش الأسمر القذر، وأكواخ القرية المبنية والمتجمعة فوق بعضها، وكانت الديوك تصيح في القرية.

المنحدر الطيني الأحمر الحاد، العبّارة، النهر، الناس الغرباء والغير مألوفين، الجوع، البرد، المرض، ربما كل هذا لم يكن حقيقيًا على الأرجح أن كل هذا كان حلمًا كما ظن التتاري. وأحس أنه نائم ويسمع صوت شخيره... بالطبع إنه في بيته في مقاطعة سيمبيرسك، وكان عليه فقط أن ينادي زوجته بالاسم لترد عليه، أما أمه فهي في الغرفة المجاورة... يالها من أحلام رهيبة! ولو أنها أحلام، فما الغرض منها؟ وابتسم التتاري وفتح عينيه، أي نهر هذا؟ الفولجا؟

كان الثلج يتساقط...

وسمع صياحا على الطرف الآخر:

- قارب! قارب!

استيقظ التتاري وذهب ليوقظ أصحابه ليجذفوا نحو الطرف الآخر.

وجاء العمال إلى ضفة النهر مرتدين فراء من جلد الماعز الممزق، ويسبون بعضهم البعض أثناء سيرهم بصوت أجش من النعاس ومرتعش من البرد، وعند استيقاظهم من النوم، بدا النهر الذي جاءت منه أنفاس البرد القارس بأنه يريد ضربهم على قذارتهم وفظاعتهم، وقفزوا إلى العبّارة دون أن يجهدوا على أنفسهم، وأخذ التتاري والعمال الثلاثة المجاذيف الطويلة ذات الشفرات العريضة، والتي بدت في الظلام كأنها مخالب سرطانات، وانحنى سيميون على بطنه ليمسك ذراع المقود والصياح على الضفة لايزال مستمرًا، وأطلقت رصاصتان من مسدس في الهواء، على الأرجح لفكرة أن العمال لا زالوا نائمين أو أنهم قد ذهبوا إلى الحانة في القرية.

وقال سيميون بنبرة رجل مقتنع أنه ليس هناك ضرورة للاستعجال في هذه الدنيا، وأن العجلة لن تؤدي إلى أي شيء على أية حال:

- لابأس، لديكم ما يكفي من الوقت.

ابتعدت العبّارة الثقيلة الرديئة عن الضفة وطافت بين شجيرات الصفصاف، ووحده الصفاف الذي يتمايل ببطء للخلف أعطى شعورًا بأن العبّارة تتحرك ولم تكن واقفة، كان العمال يحركون المجاذيف بهدوء معًا، واستلقى سيميون على بطنه على دفة العبّارة راسمًا نصف دائرة في الهواء، وطار من جانب لآخر، وبدا في الظلام كما لو أن الرجال يجلسون على حيوانات منقرضة ذات أقدام طويلة، وكانوا يتحركون بالعبّارة عبر أرض باردة ومهجورة، تلك التي يرى المرء فيها الكوابيس.

وعبروا أشجار الصفصاف ومضوا يطوفون في العراء، وصرير المجاذيف المنتظم يسمع على اليابسة الأخرى، وارتفع الصراخ:

- أسرع! أسرع!

مرت عشر دقائق أخرى، ورست العبّارة وأحدثت دويًّا أثناء إرساءها.

وتمتم سيميون وهو يمسح الثلج من على وجهه:

- الثلج يهطل بكثرة، أما من أين يأتي فالله وحده يعلم.

وعلى الضفة، وقف رجل نحيل متوسط الطول يرتدي سترة مبطنة من فرو الثعلب ويضع قبعة من جلد الخاروف الأبيض.

ووقف على بعد مسافة قصيرة من أحصنته ولا يبدي أي حركة، وتعابير وجهه قاتمة ومدققة، كما لو أنه يحاول أن يتذكر شيئًا ما ويشعر بالغضب من ذاكرته التي لا يمكن الاعتماد عليها.

وعندما توجه سيميون إليه، رفع قبعته مبتسمًا وقال:

- أريد الذهاب إلى أناستاسيفكا بسرعة، ابنتي في حالة سيئة مجددًا، ويقولون إن هناك طبيبًا جديدًا هناك.

وحملوا الأمتعة على العبّارة وطافوا بها إلى الخلف. كان الرجل الذي يخاطبه سيميون باسم فاسيلي سيرغيتش واقفًا دون حراك طوال الوقت وهو يغلق شفتيه الغليظتين بإحكام ويحدق في الفضاء، وحين طلب حوذيه السماح له بالتدخين في حضوره لم يعطه أي إجابة، كأنه لم يسمع، ونظر سيميون إليه نظرة استهزاء وهو منثن على الدفة وقال:

- يمكن للناس العيش حتى في سبييريا، يمكنهـــممم العيششش.

ارتسم تعبير النصر على وجه الداهية كأنه أثبت نظرية ما وكان مبتهجًا بحدوث الأشياء كما تنبأ بها، وبدا واضحًا أن التعاسة والعجز اللذين بديا على الرجل ذو معطف الثعلب قد دفعاه إلى متعة عظيمة.

وقال سيميون بعد أن أُسرجت الخيول على الضفة مجددًا:

- إن الطريق مليء بالوحل الآن يافاسيلي سيرغيتش، كان ينبغي عليك تأجيل الذهاب أسبوعين حتى يجف الطريق أكثر، أو أن لاتذهب على الإطلاق... إن كان هنالك من خير في ذهابك أصلًا، ولكن كما تعلم أنت، تسعى الناس أعواما وأعواما، في الليل والنهار، ودائمًا بلا فائدة، هذه هي الحقيقة.

وقام فاسيلي سيرغيتش بإعطائه بقشيشًا دون أن ينطق بكلمة، ودخل إلى عربته وانطلق.

قال سيميون وهو ينكمش من البرد:

- ها هو يركض من أجل طبيب، ولكن بحثه عن طبيب يشبه مطاردة الرياح في الحقول أو الإمساك بالشيطان من ذيله، لتذهب روحه للجحيم! يا له من رجل غريب! يا رب اغفر لي معصيتي.

توجه التتاري نحو الداهية وهو ينظر إليه ببغض واشمئزاز، ويرتجف ويمزج بين الكلمات التتارية والروسية المكسرة، وقال:

- إنه رجل طيب... طيب، لكن أنت رجل سيء! أنت سيء! السيد روحه طيبة ونبيلة، أما أنت فرجل حقير وسيء! إن السيد ما يزال على قيد الحياة، لكن أنت جثة هامدة... إن الله خلق الإنسان ليعيش، ليفرح ويحزن ويأسى، لكنك لا تريد شيئًا، لذا أنت ميت.. أنت حجر، طين! إن الحجر لا يريد شيئًا وأنت لا تريد شيئًا. إنك حجر، وإن الله لا يحبك، بل يحب السادة!

وضحك الجميع وعبس التتاري بازدراء ولف جسده بالخرق وهو يلوح بيده، وذهب وجلس أمام النار، ودلف العمال وسيميون إلى الكوخ.

قال أحد العمال بصوت أجش وهو يتمدد فوق القش التي غطى أرضية الطين الرطبة:

- إنه بارد!

وأيّده آخر:

- نعم... ليس دافئًا... إنها حياة كلاب.

وتمددوا جميعًا وفتحت الرياح الباب ودخل الثلج إلى الكوخ، ولم يشعر أحد برغبة في النهوض وإغلاق الباب، كانوا يحسون بالبرد، وكان هنالك الكثير من المتاعب.

وقال سيميون وهو يستسلم للنوم:

- أنا بخير، عسى أن يمنح الله الجميع مثل هذه الحياة .[٢٦]

- أنت رجل قاس، كلنا نعرفك، حتى الشياطين لا تحبك!

وسمعوا صوت نحيب يأتي من الخارج وكأنه عواء كلب

- ما هذا؟ من هناك؟

- إنه التتاري يبكي

- يا أخي... رجل غريب!

وقال سيميون:

- سيتعود على ذلك.

ونام الآخرون أخيرًا. وبقي الباب مفتوحًا.

---

[٢٦] يجدر الإشارة إلى أن شخصية سيمون هي تجسيد لشخصية حقيقية قابلها تشيخوف في سخالين، وهو مراكبي مبتهج ملقّب بـ «الوسيم» تمت الإشارة إليه في كتابه «جزيرة سخالين». المترجم

حزن [٢٧]

كان الخراط "غريغوري بيتروف" الذي يُعرف منذ أعوام ماضية بالحرفي الماهر، والفلاح الأكثر حماقة في الوقت ذاته في منطقة غالتشينسكي يقود زوجته العجوز إلى المشفى، وكان ينبغي عليه قيادة مسافة تفوق العشرين ميلًا على طريق وعرة، كان الأمر شاقًا حتى على ساعي البريد الحكومي الأقل كسلًا وعجزًا من غريغوري، وكانت الرياح الباردة تضرب في وجهه مباشرة، وسحب الندف الثلجية تلتف حول نفسها وتدور في كل اتجاه، بحيث لا يمكن المرء معرفة ما إذا كان الثلج يسقط من السماء أم يرتفع من الأرض، ولم يكن بالإمكان رؤية الحقول، ولا أعمدة التلغراف، ولا الغابة من ضباب الثلج، وعندما هبت الرياح العنيفة على غريغوري، لم يقدر حتى رؤية اللجام الذي فوق رأس الفرس. والفرس الضعيفة البائسة تزحف ببطء على طول الطريق، وأخذ الأمر كل ما بوسعها من قوة لجر قدميها من الثلج وسحب رأسها، والخراط على عجلة من أمره، وظل يقرفص بتوتر من المقعد للأعلى والأسفل بلا هوادة وهو يضرب ظهر الفرس.

وتمتم غريغوري:

- لاتبكي يا ماتريونا، تحلي بالقليل من الصبر، يا رب! سنصل إلى المشفى ويكون الأمر على ما يرام في لحظة... سيعطيك بافيل إيفانوفيتش بعض القطرات الصغيرة، أو يجعلهم يخرجون الدم منك، أو ربما يكون له الشرف ويرضى بتدليك جسمك بالكحول، وسي... سيسحب الألم من جانبك، سيبذل بافيل إيفانوفيتش قصارى جهده، وسيصرخ وينفعل، لكنه سيبذل قصارى جهده...إنه رجل محترم وطيب المعاشرة، ربنا يعطيه الصحة! حالما نصل هناك سيندفع من غرفته ويسّب عليَّ ويصرخ:

- «ماذا؟ لماذا هكذا؟ لماذا لم تأتوا في الوقت المناسب؟ أنا لست كلبًا لأعلق أشغالي في انتظاركم طول اليوم أيها الشياطين! لماذا لم تأتوا في الصباح؟ انقلعوا! اهربوا عن وجهي! تعالوا مرة أخرى في الغد.»

وسأقول له:

- «يا حضرة الطبيب بافيل إيفانوفيتش! يا محترم! استمر، لتأخذك الآخذة أيها الشيطان! استمر!».

ولاح الخراط بالسوط على فرسه، وتمتم مع نفسه دون أن ينظر إلى المرأة العجوز:

- «سماحتك! هذا الحقيقة أقسم بالله!.. وها أنا أرسم الصليب أمامك، لقد انطلقت قبل أن يطلع الضوء، كيف يمكنني أن أكون هنا إذا كانت مولاتنا...العذراء... غاضبة وبعثت بعاصفة ثلجية كهذه؟ خذني

---

[٢٧] نشرت القصة في صحيفة بطرسبرغ في الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٥موقعة باسم «أ.تشيخونتا». المترجم

بعين العطف... حتى أفضل الجياد لن تستطيع القدوم، بينما فرسي، كما ترى بنفسك ليست بفرس وإنما شيء معيب»، وسيتجهم بافيل إيفانوفيتش ويصرخ:

- «نحن نعرفكم! دائمًا ما تجدون أعذارًا لأنفسكم وبالأخص أنت يا غريشكا ![28]أنا أعرفك حق المعرفة! سأقسم بأنك وقفت عند عشرات الحانات قبل أن تأتي!».

وأقول أنا:

- «سماحتك! هل أنا مجرم أو كافر؟ زوجتي العجوز تلفظ أنفاسها الأخيرة، إنها تموت، وأنا أهرع من حانة إلى أخرى! يا له من تفكير، لتأخذ الحانات الآخذة!».

وبعد ذلك سيطلب بافيل إيفانوفيتش تحويلك إلى عنبر المشفى، وسأركع أنا عند قدميه وأقول «بافيل إيفانوفيتش! أيها المحترم! نحن نشكرك من كل قلبنا! اغفر لنا حماقتنا وتصرفنا الملعون! لا تكن قاسيًا علينا نحن الفلاحين! نحن نستحق أن ترفسنا بقدمك لأنك تكرمت علينا ولطخت قدميك بالثلج!».

وسيرشقني بافل إيفانوفيتش بنظرة كما لو أنه يريد أن يضربني ويقول:

- «كان من الأفضل أن تعتني بزوجتك العجوز بدلًا من أن تسكر بالفودكا وتركع تحت أقدامي أيها الأحمق! أنت تستحق الجلد!».

- «معك حق، أنا أستحق الجلد يا بافل إيفانوفيتش، اضربني من أجل الله! ولكن كيف للركوع عند قدميك أن لا يجدي نفعًا إذا كنت أنت أبونا والمحسن علينا؟ أيها المحترم! إنني أعطيك وعدي هاهنا وأقسم بالله أن تبصق في وجهي لو خدعتك، وحالما تستعيد ماتريونا عافيتها سأبذل أي شيء تطلبه حضرتك! علبة سجائر ومن أفضل أخشاب البتولا إذا تأمر... أو كرات كروكيه، أو قناني خشبية أجنبية للبولينج من أفضل طراز... سأفعل أي شيء من أجلك! ولن آخذ منك ربع كوبيك.. سيأخذون أربع روبلات ثمنًا لعلبة السجائر ولكنني لن آخذ منك كوبيكًا واحدًا».

سيضحك الطبيب ويقول «آه طيب طيب... أفهم ذلك! يؤسفني أنك سكران حتى الثمالة»

أنا أعرف كيف أتصرف مع السادة أيتها الفتاة العجوز! ليس هناك من سيد لم أستطع التصرف معه، فقط ادعي الله أن لا نضيع عن الطريق، أووف، يا لها من رياح! إنّ عيون الواحد تمتلئ بالثلج.

ومضى الخراط يتمتم دون أن يتوقف، كان يثرثر دون وعي ليخفف قليلًا من مشاعره الكئيبة. وكانت الكلمات التي على لسانه كثيرة، ولكن الأفكار والأسئلة التي في عقله أكبر حجمًا، وأصابه الحزن على حين غرة، ولم يكن بالحسبان، ولم يكن متوقعا، وليس بيده الآن أن يتغلب عليه أو يستعيد رشده، لقد عاش أيامه في هدوء وسكينة كما لو كان في سكر وبلا وعي، دون أن يعرف معنى الحزن والفرح،

---

[28] تدليل لاسم غريغوري. المترجم

وها قد أصبح الآن يدرك فجأة ألمًا فظيعًا في قلبه، لقد وجد المهمل الكسول والثمل نفسه بغتة مكان الرجل المشغول، مثقلًا بالهموم، ويكافح مع الطبيعة.

وتذكر الخراط كيف بدأت مشكلته ليلة الأمس، عندما عاد إلى البيت مساءً وهو ثمل بعض الشيء كالعادة، وانطلق كالمعهود عليه منذ زمن في السب والتلويح بقبضتيه، وتطلعت زوجته العجوز على زوجها الغاضب وكأنها لم تنظر اليه من قبل قط. فعادة ما تظهر النظرات تعبير الذل والخنوع في عيونها المسنة، مثل نظرات كلب تعرض للضرب المبرح وسوء التغذية، لكن هذه المرة نظرت إليه بصرامة وثبات كما ينظر القديسون في الصور المقدسة أو كما ينظر الموتى، ومن تلك النظرة الغريبة الشريرة التي في عينيها بدأت المشكلة، ومنها تخدر الخراط وشعر بالدهشة، واستعار فرسًا من أحد الجيران، وهو الآن يأخذ زوجته العجوز إلى المشفى على أمل أن يعيد بافيل إيفانوفيتش تعبيرها المعتاد بالمساحيق والمراهم.

وتمتم الخراط:

- ها أنا أخبرك يا ماتريونا... إذا سألك بافيل إيفانوفيتش ما إذا كنت أضربك، فقولي أبدًا! ولن أضربك بعدها أضربك مجددًا، أقسم بالله! وهل حدث أصلًا أن ضربتك عن حقد؟ إنني أضربك بلا تفكير، وأنا أعتذر منك على ذلك، بعض الرجال لا يبالون بالأمر، ولكن ها أنا هنا آخذك... وأبذل ما في وسعي في هذا الجو العاصف والطريق المثلج! لتتحقق مشيئة الله! يا رب لا تجعلنا ننحدر عن الطريق... هل جنبك يؤلمك ما تريونا؟ ولهذا لا تتكلمين؟ أنا أسألك، هل جنبك يؤلمك؟.

وشعر بالدهشة من أن الثلج الذي على وجه زوجته العجوز لم يذب، والغريب أن الوجه نفسه بدا مسحوبًا، وقد تحول إلى رمادي شاحب، وشمعي، وعابس، وصارم.

وغمغم الخراط:

- أيتها الحمقاء! أفصح لك عن ضميري أمام الله، وأنت تمضين في و... طيب، أيتها الغبية! سأعاند رأسي ولن آخذك إلى بافيل إيفانوفيتش!

وأفلت الخراط اللجام وشرع بالتفكير، ولم يستطع أن يلتفت بجسده ليرى زوجته العجوز، كونه يشعر بالخوف، ويخشى أيضًا من أن يسألها سؤالًا دون أن تجيبه، وأخيرًا، ولحسم المسألة، ودون أن يلتفت إليها، أمسك بيد زوجته العجوز الباردة. وسقطت اليد بعد أن أفلتها مثل قطعة الخشب.

وصرخ الخراط:

- إنها ميتة إذن! يا لها من حكاية!

لم يكن يشعر بالأسى بقدر ما يشعر بالانزعاج، وفكر كيف يمضي كل شيء بسرعة في هذه الدنيا! إن مصيبته بالكاد بدأت وها هي تنتهي بحدوث كارثة، لم يكن عنده وقت للعيش مع زوجته العجوز ليظهر لها أسفه عليها قبل وفاتها، فقد عاش معها أربعين سنة، لكن تلك السنوات الأربعين مرت كما

لو أنها في ضباب، فأي شعور بالحياة كان مع السكر والفقر والشجار، ونكاية فيه، ماتت في الوقت الذي شعر فيه بالحزن عليها، وبأنه لا يستطع العيش بدونها، وأنه كان يعاملها بسوء شديد.

وتذكر:

_»لماذا اعتادت أن تتجول في القرية؟ كنت أرسلها بنفسي كي تشحذ الخبز، يا لها من حكاية! كان ينبغي أن تعيش لعشر سنوات أخرى، السخيف في الأمر أنها كانت تعتقد بأنني ذلك الرجل... يا أمنا المقدسة! ولكن إلى أي شيطان أذهب أنا؟ لم يعد هناك حاجة للطبيب الآن، بل للدفن، سأرجع!»

واستدار غريغوري عائدا ولاح بالسوط على الفرس بكل قوته، والطريق يزداد سوءً كل ساعة، ولم يعد بمقدوره رؤية النير على الإطلاق، والزلاجة تضرب أغصان شجر التنوب الفتية بين الحين والآخر، وشيء مظلم خدش يديه ولمع أمام عينيه، وأصبح حقل الرؤية أبيض وانعطف مرة أخرى.

وفكر «ليتها تعود للحياة مرة أخرى»

وتذكر كيف كانت ماتريونا قبل أربعين عامًا شابة، جميلة، ومرحة، وبأنها من عائلة ميسورة الحال، وأنهم زوجوها إليه بعدما أعجبوا بحرفته اليدوية، كانت كل متطلبات الحياة السعيدة متوفرة، ولكن المشكلة كانت في سكره الذي بدأ بعد الزفاف، وفي اضجاعه أمام الموقد، ومن وقتها لم يستيقظ من هذه الحالة حتى الآن، لقد تذكر ليلة زفافه، أما ما حدث بعد الزفاف وأثناء حياته فلم يستطع أن يتذكر منه شيئًا، باستثناء أنه كان يسكر، ويتمدد أمام الموقد، ويتشاجر، وقد أهدر الأربعين عامًا على هذا المنوال...

بدأت الغيوم الثلجية البيضاء تصبح رمادية بعض الشيء، والسماء ترتدي ثوب الغسق.

وسأل الخراط نفسه وصحى فجأة:

- «إلى أين ذاهب أنا؟ يجب أن أفكر بالدفن، يبدو أنني فقدت عقلي وأنا في طريقي إلى المشفى».

استدار غريغوري ولاح بالسوط على فرسه ثانية، وشعرت الفرس الصغيرة بالإرهاق إلى أقصى حد، وتعثرت في الأرض وشخرت، ولاح الخراط بالسوط عليها مرة تلو الأخرى... وظل يسمع صوت طرق خلفه، وبالرغم من أنه لم يلتفت، إلا أنه علم أن الطرق كان من اصطدام رأس زوجته العجوز على الزلاجة، واستمر الثلج يزداد قتامة، والرياح برودة وقوة.

وأخذ يفكر:

«ليتها تعود للحياة مرة أخرى! سأشتري مخرطة جديدة، وأستقبل الزبائن... وأعطي المال لزوجتي العجوز».

وأفلت اللجام من يديه، وأخذ يبحث عنه وهو يحاول التقاطه، لكن لم يستطع، فلم تكن يديه تقوى على ذلك...

وفكر:

«لا يهم... إن الفرس ستمضي من تلقاء نفسها، إنها تعرف الطريق، ربما أنام أنا الآن... سيكون من الخير الحصول على قسط من الراحة قبل الجنازة أو القداس».

وأغلق الخراط عينيه وذهب في غفوة، وبعد قليل سمع صوت توقف الحصان، وفتح عينيه فرأى أمامه شيئا مظلما يشبه الكوخ أو كومة من التبن...

كان يريد النهوض من الزلاجة واكتشاف ماذا كان ذلك، لكنه شعر أنه عاجز عن الحركة لدرجة بدا له أن التجمد أفضل من الحركة، وغرق في نوم هادئ.

ثم استيقظ في غرفة كبيرة ذات جدران مطلية، وكان ضوء الشمس الساطع يتوهج على النوافذ، ورأى الخراط أناسًا مقابله، وأول ما شعر به الرغبة في إظهار أنه رجل محترم ويعرف ما ينبغي القيام به.

وقال:

- صلاة الجنازة من أجل زوجتي العجوز يا جماعة. يجب إخبار الكاهن...

وقاطعه صوت يقول:

- آه، طيب، طيب، تمدد

وصرخ الخراط متفاجئًا برؤية الطبيب أمامه:

- بافيل إيفانوفيتش! أيها المحترم والمحسن!

وأراد أن يقفز ويركع على ركبتيه أمام الطبيب، لكنه شعر بأن ذراعيه وساقيه لم تطاوعه.

- سماحتك، أين ساقي، وأين ذراعي!

- قل الوداع لساقيك وذراعيك... لقد تجمدوا وبترناهم، هيا، هيا!. ما الذي تبكي عليه؟ لقد عشت حياتك واشكر الله على ذلك! أعتقد أنك في الستين من العمر وهذا يكفي بالنسبة إليك...!

- أنا حزين.. سامحني! لو كان لي أن أعيش خمس أو ست سنوات أخرى..!

- لماذا؟

- الفرس ليست ملكي، ولابد لي من أن أعيدها... ويجب عليّ أن أدفن زوجتي العجوز... كيف ينتهي كل شيء بسرعة في هذه الدنيا! أيها المحترم بافيل إيفانوفيتش! سأحضر لك علبة من السجائر من أفخر خشب البتولا! وكرات الكروكيه...

وخرج الطبيب من العنبر وهو يلوح بيده. وانتهى كل شيء بالنسبة للخراط.

مسافر على الدرجة الأولى [٢٩]

كان المسافر على الدرجة الأولى الذي تناول العشاء للتو في المحطة واحتسى قليلًا مستلقيًا على معقد مخملي، وممددًا نفسه برخاء، وسقط في غفوة. وبعد الغفوة التي لم تزد عن خمس دقائق، نظر بعينيه الزيتيتين إلى الجالس مقابله، وأبدى ابتسامة له، وقال:

- كان أبي رحمه الله يحب أن تدّلك الفلاحات أقدامه بعد العشاء. وأنا مثل طبعه تمامًا، لكن على خلاف أنني دائمًا ما أحب أن أحرك لساني وعقلي بترو بعد العشاء. فأنا مثل رجل آثم، أحب الحديث الفارغ على معدة ممتلئة، هل تسمح لي بمحادثة معك؟

أجاب المقابل:

- سأكون سعيدًا.

- بعد العشاء الجيد تصبح أكثر المواضيع تفاهة كافية أن تثير الأفكار الشيطانية العظيمة في عقلي. على سبيل المثال، رأينا للتو بالقرب من البوفيه شابين، وسمعنا أحدهما يهنئ الآخر أنه صار مشهورًا، وقال له «أهنئك، ها قد صرت مشهورًا وبدأت تحظى بالسمعة»، على ما يبدو أنه من الممثلين أو الصحفيين ذوي أحجام الابرة. لكن ليسوا هم بيت القصيد، إن السؤال الذي يشغل بالي هذه اللحظة ياسيدي، هو ما المفهوم بالضبط لكلمة «المجد» أو «الشهرة»؟ ماذا تعتقد؟ لقد دعا بوشكين الشهرة بالرقعة الزاهية على ثوب بالٍ، نحن جميعًا نفهمها كما فهمها بوشكين، وهذا الفهم يزداد أو ينقص عند كل شخص، لكن إلى الآن لم يقدم أحد تعريفًا واضحًا ومنطقيًا للكلمة... سأدفع ما فوقي وتحتي لأحصل على تعريف!

- لما تشعر بحاجتك لذلك؟

قال المسافر بعد لحظة من التفكير:

- تعرف حضرتك أنه إذا علمنا ماذا تكون الشهرة، فقد تكون سبل الوصول إليها معروفة لنا أيضًا. ينبغي عليّ أن أخبرك يا سيدي، أنني سعيت في شبابي وراء الشهرة بكل شبر ومتر. كان هوسي أن أكون مشهورًا إن جاز لي التعبير. وفي سبيل ذلك درست، وعملت، وسهرت الليالي، وأهملت صحتي وأنا أسرح بخيالي، بقدر ما أستطيع أن أحكم على نفسي دون مبالغة، قد كان لدي كل المواهب الطبيعية لتحقيق ذلك. بادئ ذي بدء، أنا مهندس ذو خبرة. وبنيت خلال حياتي نحو عشرين جسرًا رائعًا في روسيا، وحفرت قنوات لثلاثة مدن، وعملت في روسيا وإنجلترا وبلجيكا... وثانيًا، أنا مؤلف للعديد من المقالات الخاصة التي كتبتها بخطي. وثالثًا يا سيدي العزيز، عندي ولد يعاني من ضعف في الكيمياء. وبدراسة ذلك العلم في أوقاتي فراغي، اكتشفت طرقًا للحصول على أحماض عضوية معينة،

---

[٢٩] نشرت القصة لأول مرة في صحيفة «الزمن الجديد» «Новое время» في الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٨٨٦ موقعة باسم «أن. تشيخوف». المترجم

لذا ستجد اسمي في أبحاث الكيمياء الأجنبية. كنت في الخدمة على الدوام، وترفعت إلى منصب مستشار مدني، وسجلي لا شائبة فيه. لن أشتت انتباهك بتعديد أعمالي وأفضالي، سأقول فقط أنني عملت أكثر بكثير من بعض المشاهير، ومع ذلك لا زلت مكاني وأنا في أواخر عمري، وأستعد للكفن إن جاز لي التعبير، ومعروف كذاك الكلب الأسود الذي يركض هناك فوق الجسر.

- كيف تقول ذلك؟ ربما أنت معروف.

- طيب، سنختبر ذلك على الفور، قل لي، هل سمعت يومًا باسم كريكونوف؟

رفع المقابل عينيه إلى السقف وفكر لدقيقة، ثم ضحك وقال:

- لا، لم أسمع به...

- هذه كنيتي، أنت الرجل المتعلم الذي تعب لسنوات لم تسمع عني قط... دليل مفحم! من الواضح أنني لم أفعل الشيء الصحيح في مجهودي لاكتساب الشهرة على الإطلاق، لم أكن أعلم بالطريقة الصحيحة، وكنت أحاول أن أمسك بالشهرة من ذيلها، لقد عملت على الجانب الخاطئ منها.

- وماهي الطريقة الصحيحة؟

- حسنًا، الشيطان وحده يعلم! الموهبة، أنت تقول؟ العبقرية؟ الإبداع؟ ليسوا جزء منها يا سيدي!.. لقد عاش وعمل معي أناس من عديمي القيمة، التافهين، بل وحتى الوضيعين مقارنة بي. إنهم لم يقوموا بربع العمل الذي قمت به، ولم يضحوا بأنفسهم، ولم يبرزوا في مواهبهم، ولم يبذلوا جهدًا ليكونوا مشاهير، لكن انظر إليهم فقط! أسمائهم في الجرائد باستمرار وعلى لسان الناس! سأوضح الأمر بمثال إن لم تكن قد سئمت من الاستماع. قبل بضع سنوات، قمت ببناء جسر في بلدة «ك». ينبغي أن أقول لك أن الملل في تلك البلدة الصغيرة الدنيئة كان فظيعًا. ولولا النساء وأوراق اللعب، فأظن أنني كنت سأفقد عقلي. حسنًا، إنها قصة قديمة، وكنت أشعر بالملل الشديد لذا دخلت في علاقة مع مغنية. كان الجميع مخبولين حولها، والشيطان وحده يعرف لماذا. أعتقد أنها كانت... ماذا عساي أقول؟ مخلوقة عادية مألوفة، كالكثير من الخلق، كانت الوقحة فارغة الرأس، سيئة الطباع، جشعة، والأكثر من ذلك أنها كانت عبيطة.

كانت تأكل وتشرب بقدر كبير، وتنام حتى الخامسة بعد الظهر... ولا أتصور أنها تفعل شيئًا آخر. كان يُنظر لها على أنها عاهرة ، [٣٠]وكانت تلك مهنتها فعلًا؛ ولكن عندما يريد الناس أن يشيروا إليها بصورة أدبية، يطلقون عليها بالممثلة والمغنية. وأنا رجل اعتاد أن يكون مخلصًا للمسرح، لذا فإن هذا التظاهر المحتال بكونها ممثلة جعلني ساخطًا وغاضبًا بشدة. لم يكن لدى سيدتي الشابة أدنى حق في أن تسمي نفسها ممثلة أو مغنية. كانت مخلوقة فاقدة للموهبة بكل معنى الكلمة، وخالية من

---

[٣٠] بالفرنسية في الأصل. المترجم

الإحساس... كائن يرثى له إن صح التعبير، وبقدر ما يسعفني القول أنها غنت بقرف، ويكمن سحر «فنها «كله في الرفس بساقيها في كل مناسبة، وعدم الشعور بالخجل حين يدخل الناس إلى غرفة ملابسها، وعادة ما تختار الاستعراضات المسرحية المترجمة وتغني فيها، والمناسبات لتسلي نفسها بالظهور بملابس الرجال، والسراويل الضيقة، في الواقع كان الأمر... يا سلام! طيب، أكرمني بانتباهك، إن لم تخني الذاكرة، أقيم حفل عام للاحتفال بالجسر المشيد مؤخرًا. وكان هناك قداس ديني، وخطابات، وبرقيات وما إلى ذلك. وأنا بعيد عن أعز خَلقي، وكما تعرف، خفت طوال تلك الفترة من أن ينفجر قلبي من الحماس. إنها قصة قديمة وليست هناك حاجة لتواضع زائف، لذا سأقول لك بأن جسري كان عملًا رائعًا! لم يكن جسرًا بل لوحة، عمل قديم فخم! ومن الذي لن يتحمس حين تأتي المدينة بأكملها إلى مكان التشييد؟ آه؟ وقلت لنفسي: «الآن ستكون عيون الناس عليّ! أين يجب أن أخبئ نفسي؟» حسنًا، لم أكن بحاجة إلى أن أقلق نفسي يا سيدي.. للأسف! وباستثناء الشخصيات الرسمية، لم يعرني أحد أدنى انتباه، واحتشدوا على ضفة النهر، وحدقوا نحو الجسر مثل الخراف، ولم يهتموا بمعرفة من قام ببنائه، ومنذ ذلك الوقت، بالمناسبة يعني، بدأت أكره شعبنا المحترم، اللعنة عليهم! حسنًا، لأكمل لك، انفعل الناس على حين فجأة، وشرع الحشد يتهامسون، والابتسامة ترتسم على وجوههم، ثم بدأت أكتافهم بالتحرك. وفكرت أنا «لا بد أنهم رأوني».. فكرة محتملة! ونظرت، وإذ بمغنيتي، وقافلة من الشباب الزعران يشقون طريقهم عبر الحشد. كانت عيون الناس تتابع هذا الموكب بعجالة، واعتلى الهمس بصوت واحد:

- «هذه فلانة الفلانية... الفاتنة! الساحرة!»

بعد ذلك انتبه لوجودي.... اثنان من الشباب المخنثين، الهواة المحليون لفن الطبيعة، على ما أظن، ونظرا إلي، وتبادلا النظرات، ثم تهامسا:

- «ذلك هو حبيبها!».

هل يعجبك هذا؟ ثم تدلى من حولي شخص دميم بقبعة عالية، وذقن بحاجة شديدة للحلاقة وهو ينطّ من قدم لأخرى، ثم التفت إلي وقال هذه الكلمات:

- هل تعرف من تلك السيدة التي تمشي على الضفة الأخرى؟ إنها فلانة الفلانية... صوتها رديء، لكنها متمكنة منه بمهارة!..

وسألت الدميم:

- «هل يمكنك أن تخبرني من بنى هذا الجسر؟»

وأجاب الرجل:

- «أنا حقًا لا أعرف؛ أظنه أنه مهندس ما»

وسألته مرة أخرى:

- «ومن الذي بنى الكاتدرائية في بلدتك؟»

- «أنا حقًا لا أعلم»

ثم سألته من يعتبر أفضل معلم في ك؟ ومن هو أفضل مهندس.. وأجاب الرجل عن كل أسئلتي بلا أعلم...

وفي الختام سألته:

- «وأخبرني لو تكرمت؛ مع من تعيش هذه المغنية؟».

- «مع مهندس ما يدعى كريكينوف».

- حسنًا... هل يعجبك هذا يا سيدي؟ ولكن لأكمل؛ في أيامنا لا يوجد فنانون وشعراء، ويتم صنع المشاهير بالصحف بشكل حصري تقريبًا.

وفي اليوم التالي من تشييد الجسر، سحبت صحيفة الرسول المحلية بجشع، وبحثت فيها عن اسمي، قضيت وقتًا طويلًا أبحلق في كل الصفحات الأربعة، وفي النهاية كان هناك... وهيياه! وبدأت أقرأ (في طقس يوم الأمس الجميل، وأمام حشد غفير من الناس، وبحضور صاحب السعادة حاكم المقاطعة، وفلان وفلان، وغيرهم من أصحاب المقامات الرفيعة، تمت مراسم تشييد الجسر التي تم بناؤه مؤخرًا، وكذا وكذا... إلى آخره، وكانت ممثلتنا الموهوبة فلانة الفلانية، المحبوبة لدى جمهور ك، موجودة في حفل التشييد وتبدو جميلة للغاية.

ولا داعي للقول بأن قدومها قد خلق إحساسا. وكانت النجمة ترتدي...)

وهكذا، أعطوني كلمة واحدة! نصف كلمة!.. يا لتفاهة الأمر! والحقيقة أنني بكيت من الغيظ.

لقد عزيت نفسي بالتفكير أن المقاطعات غبية، وأنه لا يمكن للمرء أن يتوقع شيئًا منها، وعلى المرء أن يذهب إلى المراكز الثقافية من أجل الشهرة... إلى بطرسبورغ وموسكو، وذاك ما حدث، وكان عندي في ذلك الوقت بالتحديد عمل خاص بي في بطرسبورغ التي أُرسلت إليها للمشاركة في مسابقة، وكان التاريخ الذي ستعلن فيه النتيجة مقدور للذهاب إليه.

أخذت إجازة من ك، وسافرت إلى بطرسبورغ، ورحلة طويلة هي من ك إلى بطرسبورغ، وربما لن أشعر بالممل من الرحلة كوني حجزت مقصورة، وطبعًا... أخذت مغنيتي معي، وجلسنا وأكلنا طوال الطريق وشربنا الشمبانيا وترل لا لا.. وهاا، وصلنا في النهاية إلى مركز الثقافة.، وصلت في نفس اليوم الذي أعلن فيه عن النتيجة، وكنت أشعر بالرضا للاحتفال بنجاحي الخاص يا سيدي العزيز، من الجائزة الأولى من عملي.. هيياه!

تمشيت في اليوم التالي على طول شارع نيفسكي وأنفقت سبعين كوبيكًا على شتى الجرائد، وأسرعت إلى غرفتي في الفندق، وتمددت على الأريكة لأسيطر على ارتجافي من الحماس، ومضيت في

القراءة، بحلقت في الجريدة الأولى.. لا شيء، هرعت إلى الثانية... لا شيء أيضًا... يارب! أخيرًا؛ وفي الصفحة الرابعة، وقعت عيني على الفقرة التالية:

- وصلت بالأمس الممثلة الإقليمية المعروفة فلانة الفلانية إلى مدينة بطرسبورغ، ولاحظنا فرحين أن مناخ الجنوب كان له تأثير نافع على صديقتنا الشقراء، فحضورها الساحر على المنصة...

ولا أتذكر الباقي! ووجدت أسفلها فقرة أصغر بكثير طبعت بأصغر مساحة:

- تم منح الجائزة الأولى في المسابقة لمهندس يدعى فلان...

وهذا كل شيء!

وما زاد الطين بلة أنهم أخطأوا في كتابة اسمي؛ بدلًا من كتابة كريكنوف، كبتوا كيركوتلوف، كثير عليك لمكانتك الثقافية!

لكن هذا لم يكن كل شيء... فبغضون الوقت الذي غادرت فيه مدينة بطرسبورغ، بعد شهر، كانت جميع الصحف تنافس بعضها في التحدث عن ممثلتنا التي لا تضاهى، الربانية، الموهوبة للغاية، وتمت الإشارة إلى خليلتي، لكن ليس بكنيتها، بل باسمها المسيحي وبأبيها ... [٣١]

بعد بضع سنوات كنت في موسكو. وتم استدعائي إلى هناك برسالة مكتوبة بخط المحافظ للتعهد بعمل في موسكو، التي تثير صحفها الضجة منذ أكثر من مائة عام.

وفي فترة عملي، ألقيت خمس محاضرات عامة هناك لوجه الله في أحد المتاحف، قد يظن المرء أن ذلك كان كافيًا لجعله معروفًا في المدينة برمتها لثلاثة أيام على الأقل، أليس كذلك؟ لكن وأسفاه، لم تتحدث صحيفة واحدة في موسكو بكلمة عني، كان هناك شيء عن المنازل المحترقة، التمثيليات الموسيقية، مستشارو المدينة النائمون، حراس المحل الثملون... عن كل شيء، ولكن عن عملي وخططي ومحاضراتي فالتزموا الصمت، يا لهم من لطفاء أولئك الذين في موسكو!وصعدت على الترام... وكان ممتلئًا بالكامل، سيدات وعساكر وطلاب من الذكور والإناث، بشر من من كل الأنواع وفي أزواج.

وقلت لجاري بصوت عالي لدرجة أن كل الترام سمع:

- «قيل لي أن مجلس البلدية قد بعث على مهندس لتخطيط عمل كذا وكذا، هل تعرف اسم المهندس؟ »

هز جاري رأسه، وألقى بقية الركاب نظرة خاطفة على وجهي، وقرأت في عيونهم: «لا أعرف»

---

[٣١] يعتبر ذكر اسم الأب من الاحترام في الثقافة الروسية. (المترجم)

أكملت محاولًا جذب أطراف الحديث:

- «قيل لي أن هناك شخصًا يلقي محاضرات في متحف كذا وكذا... سمعت بأنها رائعة.»

لم يومئ أحد برأسه، من الواضح أنهم جميعًا لم يسمعوا بالمحاضرات، ولم تكن السيدات على دراية بوجود المتحف. كل ذلك لم يكن مهمًا، لكن تصور يا سيدي العزيز، أن الناس قفزوا فجأة على أقدامهم وتدافعوا نحو النوافذ... ماذا كان؟ ما القصة؟

دفعني جاري:

- «أنظر أنظر!.. هل ترى ذلك الرجل الأسمر الذي يصعد العربة؟ هذا هو العدّاء الشهير... إنه ملك!»

وبدأ الترام كله يتحدث بشغف عن العدّاء الذي يسحر عقول موسكو.

بإمكاني أن أعطيك أمثلة كثيرة أخرى، لكن أعتقد أن ذلك كان كافيًا. والآن لنفترض أنني مخطأ بحق نفسي، وأنني شخص بائس وغير كفؤ، لكن بغض النظر عني، بإمكاني أن أشير إلى العديد من أبناء جيلي، رجال رائعون بمواهبهم وصنائعهم، ومع ذلك ماتوا دون أن يعترف بهم، هل يحظى المستكشفون والكيميائيون والفيزيائيون والميكانيكيون والزراعيون الروس بشعبية لدى الناس؟ هل تعرف جماهيرنا المثقفة أي شيء عن الرسامين والنحاتين والأدباء الروس؟ سيهرع ناقد ما عجوز ومبتذل، مجتهد وموهوب، أمام عتبة مكاتب النشر لثلاثة وثلاثين عامًا، وهو يغطي رزمة الأوراق، ويقوم بالقذف عشرين مرة، وعلى أي حال لن يتقدم أبعد من النملة، هل يمكن أن تذكر لي ممثلًا واحدًا عن أدبنا الذي كان سيحتفى به لو لم تنتشر الشائعات في العالم بأنه قتل في مبارزة، أو فقد عقله، أو أرسل إلى المنفى، أو غش في أوراق اللعب؟ ؟[٣٢]

كان المسافر منفعلًا لدرجة أنه أوقع السيجار من فمه ونهض.

ثم أكمل بانفعال:

- نعم، ويمكنني إلى جانب هذه الناس أن أذكر لك المئات من شتى الأصناف من المغنين ولاعبي البهلوان والمهرجين، والأسماء المعروفة لكل رضيع، أي نعم!

---

[٣٢] يبدو أنها إشارة من المؤلف لكبار الأدب الروسي الذي عاشوا المأساة في حياتهم. بوشكين الذي قُتل في مبارزاة دفاعًا عن شرف زوجته، ونيكولاي غوغل الذي أنهى حياته بحرق الجزء الثاني من رواية الأنفس الميتة ومات على سريره وهو يرفض الطعام، وتشيخوف نفسه الذي أثقل عليه مرض السل ومات في سن الرابعة والأربعين، وفيودور دوستويفسكي الذي خسر أمواله في أوراق اللعب والقمار في شبابه، والذي تجلى ذلك بوضوح في روايته «المقامر».المترجم

صرّ الباب، وهبت رياح خفيفة، ومشت قامة مخيفة الطلة، ترتدي معطفًا طويلًا وتضع قبعة عالية، ونظارات زرقاء في المقصورة، ونظرت القامة حولها بتجهم نحو المقاعد، وأكملت في الاتجاه الآخر.

واعتلى همس خجول من آخر المقصورة:

- هل تعرف من يكون؟

- هذا (ن.ن) لاعب الورق الغشاش المشهور في تولا [٣٣] الذي كان على صلة بشؤون البنك (ي)

وضحك المسافر:

- ها هو أخونا! إنه يعرف لاعب الورق الغشاش في تولا، لكن اسأله عما إذا كان يعرف سيميردزكي، تشايكوفسكي، أو سولوفيوف الفيلسوف، فسيهز رأسه.. ياللدناءة!

ومرت ثلاثة دقائق في صمت.

وسعل الرجل المقابل وقال في خجل:

- اسمح لي بدوري أن أسألك سؤلًا.. هل تعرف اسم بوشكوف؟

- بوشكوف؟ همم.. بوشكوف!. لا، لا أعرف!

وقال المقابل وتملكه الشعور بالاحراج:

- هذا هو اسمي... إذن أنت لا تعرفه؟ وأنا لا زلت بروفيسورًا في إحدى الجامعة الروسية منذ خمسة وثلاثين عامًا.. وعضوٌ في أكاديمية العلوم... ونشرت أكثر من عمل...

وتطلع المسافر والرجل المقابل على بعضهما البعض وانفجرا في الضحك.

---

[٣٣] مدينة جنوب موسكو.المترجم

الممثل التراجيدي [٣٤]

كانت ليلة مميزة للممثل التراجيدي «فينوجينوف».

كانوا يمثلون «الأمير سيربراني» ، [٣٥]وكان التراجيدي نفسه يلعب دور «فيازيمسكي»، في حين كان «ليمونادوف»، مدير المسرح، يلعب دور «موروزوف»، والسيدة بوياختوف دور «إلينا»، سار العرض بشكل مبهر، فالتراجيدي فعل العجائب بحق حين حمل إلينا بيد واحدة ورفعها فوق رأسه وهو يهرول فوق المسرح، لقد صرخ، وفحَّ بصوته، وخبّط بقدميه، ومزق الفروة التي على صدره، وعندما رفض محاربة موروزوف، ارتعش بكل جسده في حين لم يرتعش أحد في الواقع، وشهق بصوت عالٍ. واهتز المسرح بالتصفيق، واعتلت هتافات لا نهاية لها. وقُدّم إلى فينوجينوف علبة سجائر فضية وباقة أزهار مربوطة بأشرطة طويلة، ولوحت السيدات بمناديلهن ودفعن رجالهن للتصفيق، وغرقن بدموعهن... لكن كان الشخص الأكثر حماسًا وانفعالًا هي «ماشا»، ابنة «سيدوريتسكي» قائد الشرطة، كانت تجلس في الصف الأمامي الأول بجانب أبيها وهي منتشية ولا تستطيع أن ترفع عينيها عن خشبة المسرح حتى وقت إنزال الستارة، ويداها الصغيرتان الناعمتان ورجلاها ترتعشان، وعيناها ممتلئتان بالدموع، وازدادت وجنتاها شحوبًا، ولا عجب... فهي في المسرح لأول مرة في حياتها.

وقالت لوالدها قائد الشرطة كل مرة نزلت فيها الستارة:

- كم تمثيلهم جيد! كم هو بديع! كم هو رائع فينوجينوف!

ولو بمقدور والدها قراءة الوجوه لقرأ النشوة الأشبه بالعذاب على وجه ابنته الصغير الشاحب، وانهارت من التمثيل، ومن المسرحية، ومن الأجواء المحيطة، وحين بدأت الفرقة العسكرية العزف بين الفصول، أغلقت عينيها وهي منهكة القوى.

وقالت لأبوها قائد الشرطة خلال الاستراحة الأخيرة:

- بابا! اذهب خلف المسرح واطلب منهم جميعًا أن يأتوا إلى العشاء غدًا.

وذهب قائد الشرطة خلف المسرح، ومدحهم جميعًا على حسن التمثيل، وأثنى على السيدة بوياختوف، ثم قال:

---

[٣٤] نشرت القصة لأول مرة في مجلة «الشذرات» في الثامن من اكتوبر عام ١٨٨٣ موقعة باسم «أ.تشيخونتا». المترجم

[٣٥] رواية تاريخية من تأليف «أليكسي تولستوي» «Алексей Толстой» (1817-1875) نشرت عام ١٨٦٢ في صحيفة روسيا الشهيرة «الرسول». المترجم

- وجهك الحسن يتطلب قماشًا أبيض، وأتمنى أن أكون أنا من يمسك بالريشة فقط!

وبشق الأنفس، قام بدعوة الشلة على العشاء.

وقال بهمس:

- الجميع باستثناء الجنس اللطيف، فأنا لا أريد الممثلات لأن عندي بنتا.

وفي اليوم التالي تناول الممثلون العشاء عند قائد الشرطة. وقد حضر ثلاثة فقط، المدير ليمونادوف، والتراجيدي فينوجينوف، والكوميدي فودولازوف، أما الآخرون فأرسلوا اعتذارهم، كان العشاء مملًا. واستمر ليمونادوف بالإطراء لقائد الشرطة عن مدى احترامه له، وكم أنه يشعر من قلبه بجميع الأشخاص العاملين في السلطة. وقلدّ فودولازوف التجار الثملين والأرمن بسخرية، وفينوجينوف (الذي كان اسمه على جواز السفر كينيش) الطويل القامة، وذو الشجاعة الأوكرانية، والعيون سوداء والجبين مقطب، فتكلم بأسلوب خطابي:

- «عند بوابات العظمة، أن تكون أو لا تكون ».[٣٦]

ووصف ليمونادوف الذي غرغرت الدموع عينيه، مقابلته مع الحاكم السابق الجنرال كانيوتشين. واستمع قائد الشرطة بضجر، وابتسم بعذوبة، كان يشعر برضى حسن على الرغم من أن ليمونادوف فاحت منه رائحة ريش محروق بقوة، وكان فينوجينوف يرتدي معطفًا مؤجر ويلبس حذاء ملوثا بالأسفل عند كعبيه، لقد أدخلوا البهجة على قلب ابنته وأفعموها بالحياة، وكان ذلك كافيًا بالنسبة إليه. ولم ترفع ماشا عينيها عن الممثلين مطلقًا، فلم تر من قبل مثل هؤلاء الناس الأذكياء، الاستثنائيين!

وذات مساء كان قائد الشرطة وماشا في المسرح ثانية، وبعد أسبوع تناول الممثلون وقائد الشرطة العشاء مجددًا، وأصبحوا بعد ذلك يأتون كل يوم تقريبًا إما على الغداء أو على العشاء. وتعلقت ماشا بالمسرح أكثر فأكثر، وأصبحت تذهب إلى هناك كل مساء.

لقد وقعت في حب التراجيدي، وفي صباح إحدى الأيام، عندما ذهب قائد الشرطة للقاء الأسقف، هربت ماشا مع شلة ليمونادوف، وتزوجت من بطلها في الطريق، وبعد حفل الزفاف، كتب الممثلون رسالة طويلة ومؤثرة وأرسلوها إلى قائد الشرطة.

كان العمل جهدًا مشتركا بينهم.

واستمر ليمونادوف في الكلام وهو يملي على الكوميدي:

---

[٣٦] من مسرحية «هاملت» لشكسبير. المترجم

- اكتب الدافع لفعلتك، الدافع!، أرسل لك احترامي... مثل هذه العبارات الرسمية، أضف شيئًا من نوع... يذرفه الدموع.

كان الجواب على هذه الرسالة لا يسر. فقد تبرأ قائد الشرطة من ابنته لزواجها، وقال:

- «أوكراني غبي عاطل وبلا منزل أو عمل».

وفي اليوم التالي من هذا الرد، كتبت ماشا رسالة لأبيها:

«بابا، انه يضربني! سامحنا!».

لقد ضربها، ضربها خلف خشبة المسرح، وبحضور ليمونادوف، والحواسة، واثنين من رجال الإضاءة، وتذكر كيف جلس قبل أربعة أيام من الزفاف في حانة لندن مع الشلة كلها، وكان الجميع يتحدثون عن ماشا، ونصحته الشلة أن «ينتهز الفرصة»، وحثه ليمونادوف والدموع تغرغر في عينيه:

- «سيكون من الغباء وغير المعقول أن ندع هذه الفرصة تفلت من أيدينا! لماذا، لأنه بمثل هذا المبلغ يمكن للمرء السفر إلى سيبيريا، ويصبح وحيدًا ويتزوج! وحين تتزوج وتملك مسرحك الخاص، أدخلني شريكًا معك، ولن أكون سيدًا بعد ذلك، ستكون أنت السيد. «

وتذكر فينوجينوف ذلك وتمتم وهو يمسك قبضتيه بشدة:

- إن لم يرسل المال سأسحقها! لن أسمح بخداعي، اللعنة على روحي!

وفي إحدى البلدات الريفية، حاولت الشلة أن تتملص من ماشا، لكن ماشا كشفت الأمر، وركضت صوب المحطة، ووصلت إلى هناك عندما قرع الجرس بالضربة الثانية واتخذ الممثلون مقاعدهم.

وقال التراجيدي:

- لقد عاملني والدك بخزي، انتهى كل شيء بيننا!

وعلى الرغم من أن المقصورة كانت تعج بالناس، إلا أنها ركعت على على ركبتيها وشبكت يديها وهي تتوسل إليه:

- أنا أحبك! لا تأخذني بعيدًا يا كوندراتي إيفانوفيتش، أنا ألا أستطيع العيش بدونك!

واستمعوا إلى تضرعها، وبعد التشاور فيما بينهم، ضموها إلى الشلة «ككونتيسة»...وهو الاسم الذي يستخدمونه للممثلة الصغيرة التي عادة ما تأتي إلى المسرح مع حشود وفرق مغفلة، في البداية، كانت ماشا تلعب دور الخادمات والمربيات، ولكن عندما هربت زهرة شلة ليمونادوف المدام بوباختوف بقصد الزواج، جعلوا منها الفتاة الساذجة. ومثلت بشكل سيء، وتلعثمت، وكانت متوترة. لكنها سرعان ما اعتادت على الأمر، وبدأ الجمهور يحبها، أما فينوجينوف فكان مستاءً للغاية.

واعتاد أن يقول:

- تدعونها بالممثلة! ليس عندها قوام، ولا ارتجال، لا شيء غير الحماقة».

وفي إحدى البلدات الريفية، مثلت الشلة مسرحية «اللصوص» لشيلر، ولعب فينجونوف دور(فرانز)، وماشا دور (إيميلي). وصاح التراجيدي وارتعش، ورددت ماشا دورها مثل درس حفظته جيدًا، وكانت المسرحية ستسير كما تدربوا على العموم لولا حادث تافه، وسار كل شيء على ماي رام إلى الحد الذي أعلن فيه فرانز عن حبه لإميلي وهي تنتزع منه سيفه، وصاح التراجيدي، وفخَّ بصوته، وارتعش، وشد ماشا إلى صدره الحديدين وماشا بدلًا من صده وصراخها «من الآن!» ارتجفت في ذراعيه مثل الطائر ولم تتحرك... وبدا أنها تسمرت في مكانها.

وهمست في أذنه:

- أشفق علي! آه، أشفق علي! أنا تعيسة جدًا!

وفحّ التراجيدي بصوته ودفعها بسيفه:

- أنتِ لا تعرفين أن تمثلي دورك! استمعي للمُخرج!

وبعد العرض، جلس ليمونادوف وفينوجينوف في كشك بيع التذاكر وهما منشغلان بالحديث.

وكان المدير يقول:

- زوجتك لا تجيد التمثيل، معك حق بذلك، إنها لا تعرف دورها... كل إنسان عنده دوره الخاص... لكن هي لا تعرف دورها...

واستمع فينوجينوف، وتنهد، وعبس بوجهه وتجهم.

وفي صباح اليوم التالي، جلست ماشا في حانوت وهي تكتب:

«بابا، إنه يضربني! سامحنا! أرسل لنا بعض المال!».

الخطيئة [٣٧]

توقف مدرس جامعي يدعى «ميغوف» عند مبنى التلغراف أثناء نزهته المسائية وتنفس الصعداء، وقبل أسبوع بينما كان عائدًا إلى منزله من نزهته المسائية، مر من هذه البقعة بالذات مع خادمته السابقة «إجنيا»، التي قالت له بضراوة:

- «انتظر قليلًا! سأخرب بيتك بمصيبة تعلمك أن تحطم الفتيات الأبرياء! سأترك الرضيع على بابك، وسأرفع عليك دعوى، وسأخبر زوجتك أيضًا...».

وطالبته أن يودع خمسة آلاف روبل في البنك باسمها، وتذكر ميغوف ذلك وزفر، ولام نفسه ثانية بندم نابع من قلبه على النزوة العابرة التي سببت له الكثير من الهم والبؤس.

وعندما وصل إلى مصيفه، جلس يستريح على عتبة الباب. كانت الساعة تمام العاشرة، واختلس القمر النظر من وراء الغيوم، ولم تكن هناك من روح في الشارع ولا بالقرب من المصايف، كان المصطافون المسنون ذاهبين إلى الفراش، بينما كان الشباب يتمشون في الغابة، وأثناء تحسس ميغوف جيوبه على كبريت لإشعال سيجارته، ضرب مرفقه بشيء ناعم، ونظر إلى مرفقه الأيمن بتراخٍ، والتوى وجهه من الذعر على الفور كأنه رأى ثعبانا بجانبه، فعلى بعد خطوة من الباب تمددت صرة ملفوفة بشيء مستطيل الشكل... وبالحكم على ملمسها، تبدو مثل لحاف محشو، كان أحد طرفي الصرة مفتوحًا بعض الشيء، وشعر المدرس الجامعي وهو يضع يده عليها بشيء رطب ودافئ. وقفز على قدميه بهلع، ونظر حوله كمجرم يحاول الهرب من حراسه...

وتمتم بغضب وهو يكز على أسنانه ويضغط على قبضتيه:

- لقد تركته هنا!. تركته ممدًا هنا... هنا ترقد خطيئتي! آه يا رب!

كان فاقد الحس من الرعب والغضب والعار... ماذا سيفعل الآن؟

ماذا ستقول زوجته إذا اكتشفت؟ ماذا سيقول زملائه في المكتب؟ من المؤكد أن صاحب السعادة سيقهقه وينحره بمرفقه ويقول:

- «أهنئك! هيه هيه هيه! بالرغم من أن لحيتك قد شابت إلا أن قلبك مازال مرحًا... يا لك من وغد يا سيميون إراستوفيتش!».

---

[٣٧] نشرت لأول مرة في صحيفة «الشظايا» في الرابع من يوليو عام ١٨٨٧ موقعة باسم «أ.تشيخونتا». المترجم

وستعرف جالية المصطافين سره الآن، والأرجح أن أمهات العائلات المحترمة ستغلق أبوابها أمامه، إن مثل هذه الحوادث دائمًا ما تصل إلى الجرائد، وسينتشر اسم ميغوف المتواضع في جميع أنحاء روسيا...

كانت النافذة الوسطى للمصيف مفتوحة، وتمكن بوضوح من سماع زوجته، آنا فيليبوفنا، وهي تفرش المائدة من أجل العشاء، وفي الساحة القريبة من البوابة، كان يرمالوي، البواب، يعزف بحزن على البلالايكا [٣٨]. كان على الرضيع أن يستيقظ فقط ويبدأ في البكاء وينفضح أمره. وكان فينغوف يحس برغبة جامحة للاستعجال.

وتمتم قبل أن يراه أحد:

- بسرعة، بسرعة! سأحمله بعيدًا وأضعه على عتبة أحد الأبواب...

وحمل ميغوف الصرة في يد واحدة بهدوء، ومشى بتأنٍ لتجنب أي شك، ونزل إلى الشارع...

وردد محاولًا افتراض جو من عدم الاكتراث:

- يا له من وضع مقرف رائع! مدرس جامعي يمشي في الشارع مع طفل رضيع! يا ملكوت السموات! لو رآني أحد ما وفهم الموقف، فقد قضي عليّ... الأفضل أن أضعه على عتبة هذا الباب... لا، لحظة، النوافذ مفتوحة وربما كان شخص ما يتطلع، أين يجب أن أضعه؟ عرفت! سآخذه إلى بيت التاجر ميلخين... إن التجار أناس أغنياء وقلبهم كبير، من المحتمل جدًا أن يشكروني ويتبنوه.

وعزم ميغوف أن يأخذ الرضيع إلى ميلخين على الرغم من أن فيلا التاجر تقع في أبعد شارع قرب النهر.

وفكر المدرس:

- «إن لم يبدأ بالصراخ أو التلوي خارج القماط، فستكون مفاجأة سارة بالفعل! ها أنا أحمل إنسانًا أسفل ذراعي كما لو أنه حقيبة، إنسان حي بروح ومشاعر مثل أي إنسان آخر... إذا كنت محظوظًا وتبناه ميلكنز فقد يجعل منه شخصية ما... ربما سيصبح أستاذًا أو جنرالًا عظيمًا أو كاتبًا... أي شيء قد يحدث! أنا الآن أحمله بيدي مثل كيس قمامة، وربما في ثلاثين أو أربعين سنة لا أجرؤ على الجلوس في حضوره...».

وبينما كان ميغوف يمشي في زقاق ضيق مهجور بجانب صف طويل من الأسوار، وتحت الظلال السوداء الكثيفة لأشجار الزيزفون، تراءى له فجأة أنه يفعل شيئًا قاسيًا وإجراميًا للغاية.

---

[٣٨] آلة عزف وترية مشهورة في روسيا تشبه الغيثار. المترجم

وفكر:

- «ماذا يعني ذلك حقًا؟! يعني أنه لا يمكن للمرء أن يتصور أي شيء أرذل.. لماذا نذهب بهذا الطفل المسكين من باب إلى باب؟ ليس ذنبه أنه ولِد، لم يحدث لنا أي ضرر نحن الأوغاد... الذين استمتعنا، وعلى الأطفال الأبرياء أن يدفعوا الذنب، لأفكر فقط بكل هذه الأفعال الحقيرة! لقد أذنبت وانكتب للطفل مصير قاس قبل كل شيء، إن وضعته على باب ميلكنز، فسوف يرسلونه إلى مشفى اللقطاء، وهناك سيربى مع الغرباء، في روتين آلي... بلا حب، ودون ملاعبة، وبلا دلال.. وثم سيُأخذ ليصير إسكافيا.. وسيأخذ ليشرب، وسيتعلم كلمات قذرة، وسيصاب بالجوع. إسكافي! وهو ابن مدرس جامعي، ومن أسرة طيبة... إنه من صلبي ودمي...»

خرج ميغوف من تحت ظلال أشجار الزيزفون إلى ضوء القمر على الطريق المفتوح، وفتح الصرة وألقى نظرة على الطفل.

وغمغم:

- نائم! أيها الوغد الصغير! لماذا عندك أنف معقوف مثل أبيك... إنه نائم ولا يشعر بأن أباه ينظر إليه! إنها مسرحية يا ولدي... طيب، طيب، ينبغي عليك أن تسامحني. سامحني أيها الولد العجوز... يبدو أن مصيرك...

وتطلع المدرس بخلسة وشعر بتشنج في خديه... ولف الطفل ووضعه تحت ذراعه، واستمر في المشي. كانت الاسئلة متخبطة في رأسه على طول الطريق إلى فيلا ميلكينز، وكان عذاب الضمير ينخز في صدره.

وفكر:

- «إن كنت رجلًا محترمًا ونزيهًا، فينبغي عليّ أن ألعن كل شيء وأذهب مع هذا الطفل إلى آنا فيليبوفنا وأركع على ركبتي أمامها وأقول: (سامحيني! لقد أذنبت! عذبيني، لكننا لن ندمر حياة طفل بريء. نحن لم نرزق بأطفال؛ دعينا نتبناه!) إن معدنها طيب، ستوافق... وبعدها سيعيش طفلي معي... ايبه!».

وصل إلى فيلا ميلكنز ووقف وهو مازال مترددًا. كان يتخيل نفسه جالسًا في صالة المنزل يقرأ الجريدة بينما الصبي الصغير ذو الأنف المعقوف يلعب بشراريب روبه، وراودته في ذات الوقت رؤية غمز زملاءه ونحره بمرفقهم والقهقهة وفرضت نفسها على عقله وعلى سعادته... وإلى جانب وخز الضمير، كان هناك شيء دافئ، حزين، ورقيق في قلبه...

مدد المدرس الطفل بحذر على حرف الشرفة ولوّح بيده.

ومرة أخرى شعر بتشنج يزحف على وجهه...

وتمتم:

- سامحني يا صاحبي القديم! أنا وغد! لا تتذكرني بسوء.

وتراجع خطوة للوراء، لكنه سعل على الفور عن قصد وقال:

- ايه... ليحدث ما يحدث، اللعنة على كل شيء! سوف آخذه، وليقل الناس ما يحلو لهم».

وأخذ ميغوف الرضيع وتراجع بسرعة إلى الخلف.

وفكر:

- «فليقولوا ما يحلو لهم، سأذهب على الفور، وأركع على ركبتيّ وأقول: (آنا فيليبوفنا!) إن معدنها طيب، وستتفهم الأمر... وسنربيه... إن كان صبيًا فسنسميه فلاديمير، واذا كانت بنتًا فسنسميها آنا! على أي حال، سيكون سندنا في كبرتنا».

وفعل ما قرر به وهو يبكي بصوت خافت من العار والذعر المشبعين بالأمل والنشوة المبهمة، وذهب إلى مصيفه، وصعد إلى زوجته، وركع على ركبتيه أمامها.

ومدد الطفل على الأرض، وقال وهو يشهق:

- آنا فيليبوفنا! اسمعيني قبل أن تعاقبيني... لقد أذنبت! هذا هو طفلي... تتذكرين إجنيا؟ طيب، إنه الشيطان من قادني لذلك...

وكاد أن يغمى عليه من العار والذعر، وقفز دون أن ينتظر ردًا، وركض في الهواء الطلق كما لو أنه تلقى ضربًا عنيفًا...

وفكر:

- «سأبقى هنا بالخارج حتى تناديني، سأمنحها الوقت الكافي لتستعيد رشدها وتفكر في الأمر...».

ومر البواب يرميلوف مع آلته الموسيقية، وألقى نظرة عليه وهز كتفيه. وبعد دقيقة عبر من أمامه ثانية وهز كتفيه مرة أخرى.

وتمتم وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

- ها أنت هنا! هل أخبرتك! لقد كانت الحواسة أكسينيا هنا للتو يا سيميون إراستوفيتش. لقد وضعت المرأة الحمقاء رضيعها على الدرجات هنا، وبينما كانت في الداخل معي، حمل شخص ما الرضيع وأخذه... من يخطر على باله فعل ذلك!

- ماذا!؟ ماذا تقول؟

(صاح ميغوف بأعلى صوته)

وحكّ يرمولاي رأسه وتنهد وهو يفّسر حنق سيده بأسلوبه الخاص.

وقال:

- أنا آسف يا سيميون إراستوفيتش، لكن في العطلة الصيفية... لا يمكن للواحد أن يستمر دون... دون امرأة، أعني...

ونظر إلى عيني سيده التي تتوهج بالغضب والدهشة، وسعل بذنب ومضى:

- إنها معصية بالطبع، ولكن هكذا... ما الذي على الواحد فعله؟ لقد منعتنا أن ندخل الغرباء إلى البيت، أنا أعرف، لكن ليس لدينا أي منهن الآن. عندما كانت إجنيا هنا لم يكن لدي نساء لتراني، لأن لدي واحدة في البيت، لكن الآن، يمكنك أن ترى بنفسك يا سيدي... لا يمكن للواحد أن يستغني عن الغرباء. أيام إجينا، بالطبع، لم يكن هناك شيء غير منتظم، لأنه...

صرخ ميغوف عليه وقال:

- انقلع أيها الوغد!

وعاد إلى الغرفة

كانت آنا فيليبوفنا جالسة وهي مندهشة وغاضبة مثلما كانت، وتذرف عيناها الدموع وهي مثبتة على الرضيع...

وتمتم ميغوف بوجه شاهب وهو يلتوي بشفتيه مبتسمًا:

- حسنًا! حسنًا! لقد كانت مزحة... إنه ليس رضيعي.. إنه رضيع الحواسة!. أنا.. أنا كنت أمزح.. خذيه إلى البواب».

قلية صغيرة [٣٩]

- «سيدي صاحب السعادة، أيها الأب المحسن! (كان موظف لا وزن له يدعى «نيفيرزيموف» يكتب مسودة رسالة للمعايدة بعيد الفصح)، أتمنى في هذا اليوم المقدس أن تنعم بالصحة وراحة البال. ولعائلتك كذلك...»

كانت المسرجة التي ينخفض فيها الزيت تدخن وتفوح منها رائحة. وصرصور تائه يركض حول الطاولة بفزع بالقرب من يد نيفيرزيموف. وعلى بعد غرفتين بعيدًا عن المكتب، كان «بارمون» الحارس ينظف أحسن أحذيته للمرة الثالثة، وكان صوت فرشاة التلميع ونخمه مسموعًا بحيوية في كل الغرف.

وتساءل نيفيرزيموف وهو يرفع عينيه إلى السقف القذر:

- «ماذا سأكتب له أيضًا، ذاك الوغد؟»

ورأى على السقف دائرة مظلمة... وكانت تلك من ظل المسرجة، وتحته الإفريز المغبر، وبالكاد يظهر الحائط الذي تم تدهينه ذات مرة بلون كدر ضارب للزرقة. وبدا له بأن المكتب أشبه بخربة أشعرته بالأسى ليس هو وحده، بل حتى الصرصور.

وفكر وهو يتمطط:

«عندما أسرّح من الخدمة سأسافر بعيدًا، لكنه سيبقى في الخدمة هنا طوال حياته صرصور الليل، أشعر بالملل! هل أنظف حذائي؟»

وتمطط نيفيرزيموف ثانية ومشى بكسل متثاقل نحو غرفة الحارس، كان بارمون قد انتهى من تنظيف حذائه، وواقفًا عند شباك النافذة المفتوح يرسم الصليب بيد ويمسك الفرشاة في اليد الأخرى وهو ينصت.

وهمس إلى نيفيرزيموف وهو يتطلع إليه بعيون مبحلقة وواسعة:

- إنها تقرع بالفعل!

ووضع نيفيرزيموف أذنه على الشباك المفتوح وأنصت، وملأ قرع أجراس عيد الفصح الغرفة مع نفحة من هواء الربيع المنعش، واختلط مع دمدمة العربات، وفوق صخب الأصوات، اعتلت أناشيد صادحة من الكنيسة القريبة وارتفع صوت ضحك عال وصاخب.

---

[٣٩] نشرت القصة لأول مرة في الثالث والعشرين من مارس عام ١٨٨٥ في مجلة «شذرات» موقعة باسم «أ.تشيخونتا». المترجم

تنهد نيفيرزيموف وهو يتطلع إلى الأسفل نحو الشارع حيث ترفرف ظلال الناس واحدًا تلو الآخر عبر أضواء المصابيح:

- يا لها من بشر! إنهم جميعًا يستعجلون لقداس منتصف الليل... لقد شرب زملاؤنا الآن، وتأكد بأنهم يتجولون في المدينة، كم سيضحكون وكم سيثرثرون! وأنا الوحيد السيء الحظ الذي يجب أن يجلس هنا في مثل هذا اليوم، ينبغي أن أفعل ذلك كل سنة!

- طيب، لا أحد يجبرك أن تشتغل. اليوم ليس دورك بالمناوبة، لكن زاستوبوف وضعك مكانه، بينما يستمتع الناس الآخرون تؤجر أنت نفسك، هذا طمع!

- أي طمع بحق الشيطان! ليس من الطمع كثيرًا أن يعطيني فوق الروبلين اللذان يعطيني إياهما... ربطة عنق إضافية... إنه الفقر، وليس الطمع، وسيكون ممتعًا الآن، كما تعرف جنابك، أن تكون ذاهبًا إلى حفلة القداس، وثم تفطر... وأن تشرب وتتعشى قليلًا وترجع وتسقط للنوم... يجلس الواحد إلى الطاولة، ها هنا كعكة عيد الفصح والسماور الذي يغلي، وشيء صغير ساحر بجانبك... تشرب كأسًا وتتشوك تحت ذقنك، وتكون من النخب الأول... تشعر أنك شخص ما... اييه هه!. أموري مخربطة! انظر إلى قليلة الحياء تلك التي تقاد بعربتها، بينما ينبغي عليّ أن أقعد هنا وأمعن في التفكير.

- كل منا له نصيبه من الحياة يا إيفان دانيليتش. إن شاء الله، ستتم ترقيتك وتتجول بعربتك يومًا ما.

- أنا؟ لا يا أخي، لا يبدو كذلك، أنا لن أتجاوز «اعتباري»، ليس إذا حاولت بل حتى لو فقعت، أنا لست رجلًا متعلمًا.

- جنرالنا ليس عنده علم يعني، ولكن...

- تمام، لكن الجنرال سرق مائة ألف قبل أن يحصل على منصبه، ولديه أخلاق وسلوك مختلفان عني تمامًا يا أخي. بأخلاقي وسلوكي لا يمكن للمرء أن يترفع! وبمثل هذا اللقب الوضيع، نيفيرزيموف! حالة ميؤس منها. فقد يبقى الواحد كما هو، أو قد يشنق نفسه...

وابتعد عن النافذة ومشى بتعب حول الغرف، واعتلت ضجة الأجراس أكثر فأكثر... ولم يكن هناك حاجة للوقوف قرب النافذة لسماعها، وأغلب ما تمكن من سماعه هو قرع الأجراس وقرقعة العربات الصاخبة. وبدت الجدران الطينية والافريز القذر أقتم، ودخنت المسرجة أكثر.

وفكر نيفيرزيموف:

- «هل أعلق الرسالة وأغادر المكتب؟»

لكن مثل هذه الجولة لم تعد بشيء يستحق... فقد أراد نيفيرزيموف بعد الخروج من المكتب والتجول في المدينة، أن يعود إلى مسكنه، ولكن حتى مسكنه رمادي وكئيب أكثر ممن هو الحال في المكتب... وعلى فرض أنه سيقضي ذلك اليوم بابتهاج وراحة، فما الذي بعده؟ لاشيء سوى الجدران الرمادية، ونفس المهمة ورسائل المجاملة...

بقي نيفيرزيموف واقفًا في منتصف المكتب وغرق في التفكير، إن شوقه إلى حياة جديدة أفضل يكوي قلبه بألم لا يطاق، إن في روحه لهفة جارفة بأن يجد نفسه في الشارع فجأة، ليختلط مع الجموع الحية، وليشارك في الاحتفال المهيب لأجل كل تلك الأجراس التي كانت تقرع وتلك العربات التي تقرقع، لقد كان يتوق لما كان يعرفه في الطفولة... دائرة الأسرة، الوجوه المحتفلة لذويه، المفرش الأبيض، الضوء، الدفء...! وفكر في العربة التي كانت تقود السيدة للتو، وفي معطف رئيس الدائرة الذي كان أنيقًا فيه للغاية، وفي القلادة الذهبية التي زينت صدر الوزير... لقد فكر في سرير دافئ، بنظام ستانيسلاف، بحذاء جديد، وببدلة غير مثقوبة من المرفقين... فكر في كل هذه الأشياء لأنه لم يكن لديه أي منها.

وشرع يفكر:

- «هل أسرق؟ حتى لو كانت السرقة مسألة سهلة، فإن الاختباء أمر صعب. يقولون أن الرجال يهربون بما سرقوه إلى أمريكا، لكن الشيطان يعرف أين تقع أمريكا الميمونة. ينبغي على الواحد أن يكون متعلمًا حتى يسرق على ما يبدو».

وتلاشى قرع الأجراس، وسمعَ فقط ضوضاء بعيدة من العربات وسعال بارامون، في حين زاد اكتئابه وغضبه حدة أكثر فأكثر بشكل لا يحتمل، ودقت الساعة التي في المكتب الثانية عشر والنصف.

«هل سأكتب تقريرًا سريًا؟ بروشكين كتب وأنهى عمله بسرعة».

وجلس نيفيرزيموف على طاولته وأخذ يفكر، كانت المسرجة التي جف الزيت فيها تمامًا تدخن بكثرة وتهدد بالخمود، وكان الصرصور التائه لا يزال يركض حول الطاولة ولم يجد مكانًا يستريح فيه.

يمكن للمرء دائمًا ارسال تقرير سري، لكن كيف يمكن عمله؟ أحتاج أن أكتب كل أنواع التلميحات والإشارات، مثل بروشكين، وأنا لا يمكنني القيام بذلك، إذا كتبت أي شيء فيتعين علي أن أكون أول من يواجه المشكلة، أنا حمار، اللعنة على روحي!

وحدّق نيفيرازيموف وهو يكدّ ذهنه بحثًا عن وسيلة للهروب من حالته اليائسة إلى المسودة التي كتبها، كانت الرسالة مكتوبة لرجل يخافه ويكره بكل كيانه، والذي كان يحاول أن يحصل بوساطته على مدار السنوات العشر الماضية على وظيفة بمرتب ثمانية عشر روبل في الشهر، بدلًا من التي يعمل فيها بستة عشر روبل.

وصفع بكفه بقوة على الصرصور الذي كان من سوء حظه أنه شتت انتباهه:

- أخخ، سأعلمك أن تركض هنا أيها الشيطان! يا مقرف!

وسقط الصرصور على ظهره وتلوى بساقيه في يأس، ومسكه نيفيرازموف من ساق واحدة وألقاه في المسرجة. وتوهجت المسرجة وزفرت.

وشعر نيفيرازيموف بتحسن.

قداس صلاة الجنازة [٤٠]

انتهت صلاة الجنازة في كنيسة قرية (فيرني زابرودي) للتو، وبدأ الناس بالتحرك وهم يحتشدون للخروج من الكنيسة، والشخص الوحيد الذي لم يتحرك هو «أندريه أندريتش»، البقال والمقيم العجوز في فيرني زابرودي، ووقف ينتظر مسندًا مرفقيه على درابزين الجوقة اليمنى. وعبّر وجهه السمين والحليق، والمغطى بالتثليم الذي تركته البثور، عن شعورين متناقضين في هذه المناسبة: الاستسلام في وجه القدر الذي لا مفر منه، وازدراء غبي لا حدود له على الثياب المطرزة والمناديل المخططة التي تمر أمامه، وكما هو الحال في يوم الأحد، كان يلبس ثيابًا كالغندور. فقد ارتدى معطفًا طويلًا من القماش مع أزرار عظم صفراء وسروالًا أزرق لا يلامس جزمته المتينة.. تلك الجزمة الكبيرة الرديئة التي لا ترى إلا بأقدام الناس الإيجابيين والرازنين ذوي القناعات الدينية الراسخة.

كانت عيناه الذابلة والغارقة في السمنة مثبتة على حامل الأيقونة، ورأى لوقت طويل وجوهًا وقامات مألوفة للقديسين، الشماس ماتفي يملأ خديه وينفخ الشموع، حاملات الشمع القاتمة، السجادة البالية، اندفاع مساعد الشماس لوبوخوف من مذبح الكنيسة وهو يحمل الخبز المقدس إلى حارس الكنيسة... كل هذه الأشياء التي رآها لسنوات وشوهدت مرارًا وتكرارًا مثل أصابع يده الخمسة... ولكن كان هناك أمر واحد فقط غريب بعض الشيء وغير عادي، وهو الأب غريغوري الذي لا يزال واقفًا بردائه الكهنوتي عند الباب ومقطبًا حاجبيه الكثيفين بغضب.

وفكر البقال:

- «لمن يلمز؟ بارك الله فيه! ويومأ بإصبعه! ويضرب بقدمه! ماذا بعد! ما الحكاية، أيتها الملكة والأم المقدسة! لمن يقصد بذلك؟».

وتطلع أندريه أندرييتش حوله ورأى الكنيسة مهجورة تمامًا. ووقف نحو عشرة أشخاص عند الباب، لكنهم أداروا ظهورهم للمذبح.

وسَمع صوت الأب غريغوري الغاضب:

- هلا تتفضل حين ينادى عليك! لماذا تقف مثل لوحة منحوتة؟ إنني أناديك.

تطلع البقال إلى وجه الأب غريغوري الأحمر الحانق، وعندها فقط أدرك أن انقطاب الحواجب وايماء الإصبع تشير إليه. وخرج من الدرابزين وأخذ يمشي بتردد نحو المذبح مترنحًا بجزمته الثقيلة.

وسأل الكاهن وهو يحدق بعينيه الغاضبتين إلى كرش البقال ووجه المتعرق:

---

[٤٠] نشرت القصة لأول مرة في الخامس عشر من فبراير عام ١٨٨٦ في صحيفة «الزمن الجديد» موقعة باسم «أن. تشيخوف». المترجم

- هل دعوت الناس للصلاة على روح ماريا يا أندريه أندريتش؟

- نعم يا أبانا.

- إذا أنت من كتب هذه؟ أنت!؟ /

(ورمى الأب غريغوري ورقة صغيرة أمام عينيه بغضب)

وعلى هذه الورقة الصغيرة التي وزعها أندريه أندرييتش قبل الصلاة كتب بخط كبير وبأحرف مائلة:

«الرحمة على روح الفقيرة لله، العاهرة ماريا»

وأجاب البقال:

- نعم، بالطبع أنا كتبتها...

- كيف تجرأت على كتابتها؟

(همس الكاهن، وفي همسه المبحوح نبرة من الحنق والفزع)

نظر إليه البقال بدهشة فارغة، كان مرتبكًا، ومذعورًا أيضًا. فلم يسبق أن تحدث الأب غريغوري في حياته بمثل هذه النبرة مع أحد كبار المقيمين في فيرني زابرودي. وبقيا صامتين لدقيقة ويحدقان في وجوه بعضهما البعض. كانت دهشة البقال كبيرة لدرجة أن وجهه السمين تفشى بكل جانب مثل عجينة مندلقة.

وكرر الكاهن:

- كيف تجرأت؟

سأل أندريه أندرييتش في حيرة:

- ماذا؟... ماذا؟

همس الأب غريغوري وتراجع بدهشة وهو يشبك يديه:

- ألا تفهم؟ ما الذي على كتفيك، رأس أم شيء آخر؟ أرسلت ورقة إلى المذبح وتكتب فيها كلمة من العيب أن ينطق بها حتى في الشارع! لماذا تدير عينيك؟ أمتأكد أنك تعرف معنى الكلمة؟

تمتم البقال وهو يحمّر ويرمش:

- هل تقصد كلمة العاهرة؟ لكن أنت تعلم، أن الرب برحمته... سامح هذا الأمر بالذات... سامح عاهرة يعني... وقد أعد لها منزلة، ومن حياة الأولياء المقدسة في الواقع، ماريا المصرية [٤١]، يمكن للواحد أن يفهم بأي معنى تستخدم الكلمة... بلا مؤاخذة...

وأراد البقال أن يقدم بعض الحجج في تبريره، لكن انتابه الارتباك ومسح شفتيه بكمه.

وصرخ الأب غريغوري وهو يقبض على يديه:

- إذًا لهذا فعلت ذلك! لكنك ترى أن الله قد غفر لها... ألا تفهم؟ لقد غفر، لكن أنت حكمت عليها، أنت فضحتها، وتدعوها باسم معيب، ومن! ابنتك المرحومة! لن تقرأ مثل هذا الإثم لا في الكتاب المقدس فقط، بل حتى في الأدب الدنيوي! أقول لك ثانية يا أندريه، لا يجب أن تتفلسف! لا لا، لا يجب أن تتفلسف يا أخي! إن اعطاك الله عقلًا متسائلًا ولا تستطيع توجيهه فالأفضل ألا تخوض الأمور فيه... لا تخض فيه الأمور والتزم الصمت!

ونطق أندريه أندريتش مهزومًا:

- لكنك تعلم، أنها... وعدم المؤاخذة لقولي ذلك، كانت ممثلة!

- ممثلة! ومهما كانت، ينبغي أن تنسى كل شيء بعد وفاتها، بدلًا من أن تكتب ذلك على ورقة.

وافق البقال:

- صحيح بالضبط...

ودوى صوت الشماس من عمق المذبح وهو يتطلع بازدراء إلى وجه أندريه أندرييتش المحرج:

- يجب أن تكفّر عن الذنب الذي سيعلمك أن لا تتذاكى! لقد كانت ابنتك ممثلة معروفة، وكان هناك نعوات بوفاتها في الصحف حتى.. أيها الفيلسوف!

وتمتم البقال:

- على حد معرفتي.. فالكلمة ليست مهذبة بلا شك، لكنني لم أقل ذلك لأحكم عليها أيها الأب غريغوري، إنما قصدت فقط أن أتكلم بروحانية... فذلك قد يكون أوضح لك لمن كنت تصلي عليه، يكتبون في النعوات الدعوات المختلفة، مثل الرضيع جون، المرأة الغارقة بيلاجايا، المحارب ايغور، بافيل المقتول، وهكذا... كنت أقصد أن أفعل نفس الشيء.

---

[٤١] قديسة مصرية ولدت في سنة ٣٤٤ م وتوفيت في سنة ٤٢١ م. قيل أنها في بداية حياتها كانت زانية، ولكن عندما ذهبت إلى القدس تابت وقررت عيش حياتها في صحراء الأردن وحيدة. المترجم

- لقد كانت حماقة يا أندريه! سيغفر الله لك، لكن احذر المرة القادمة، الأهم من هذا وذاك، لا تتفلسف، بل فكر مثل الآخرين، عدّ للعشرة واذهب في طريقك.

وقال البقال سامحًا لوجهه باستعادة تعبيره بالأهمية والوقار، وارتاح لأن التوبيخ قد انتهى:

- كلامكم أوامر، أعد للعشرة؟ جيد جدًا، مفهوم، لكن الآن يا أبانا، اسمح لي أن أطلب منك معروفًا... ترى يعني بأنني والدها على أي حال... وأنت تعرف جنابك، مهما كانت، فهي لا تزال ابنتي، لذلك كنت... بلا مؤاخذة، المقصد أن أطلب منك بأن تنشد في يوم الجنازة، واسمح لي أن أطلب منك يا أبانا الشماس!

قال الأب غريغوري وهو يخلع رداءه:

- حسنًا، هذا جيد، ذلك الذي أوصي به! يمكنني الموافقة على ذلك! حسنًا، اذهب وسنخرج نحن على الفور.

ومشى أندريه أندريتش بوقار من المذبح، وبتعبير جاد شبيه بوقت الصلاة على وجهه الأحمر وأخذ مكانه وسط الكنيسة. ووضع الشماس ماتفي طاولة صغيرة عليها الطعام التذكاري أمامه، وبعد ذلك بقليل بدأ قداس الجنازة.

كان السكون التام يعم الكنيسة، ولم يكن بالإمكان سماع شيء سوى النقر المعدني للمبخرة والنشيد البطيء... وبالقرب من أندريه أندريتش وقف الشماس ماتفي، والقابلة ماكاريفنا وابنها ذي الذراع الواحدة ميتكا، ولم يكن هناك أحد آخر. وأنشد مساعد الشماس بصوت رديء غائر مزعج، لكن اللحن والكلمات كانت حزينة لدرجة أن البقال فقد تعبير الوقار شيئًا فشيئًا وغرق في الحزن، لقد فكر في ماشوتكا [٤٢]... وتذكر أنها ولدت حين كان خادمًا عند سيد من فيرهاني زابرودي، لم يلاحظ في حياته المشغولة كخادم كيف كبرت فتاته، لقد مرت تلك الفترة الطويلة التي كانت تزهر فيها مخلوقة لطيفة برأس كتاني صغير وعينان حالمتان كبيرتان كقطع الكوبيك دون أن يلاحظها. لقد ترعرعت مثل كل أطفال الخدم المحبوبين، في رخاء وراحة بصحبة الآنسات الشابات، لقد علمتها الطبقة الراقية - ليملؤوا وقت الخمول - القراءة، والكتابة، والرقص، ولم يكن له يد في تربيتها- كان يقابلها من وقت لآخر بالصدفة فقط عند البوابة أو أثناء النزول من الدرج، كان يتذكر أنها ابنته، وسيبدأ بقدر ما عنده من فراغ بتعليمها الأدعية والكتاب المقدس، آه، كان وقتئذ معروف كخبير في قواعد الكنيسة والكتب المقدسة! وبالتحريم وتبلد الحس مثل وجه والدها استمعت الفتاة مع ذلك عن طيب خاطر، ورددت الأدعية وراءه بتثاؤب، ولكن من جانب آخر، حين كان يتردد وهو يحاول التعبير عن نفسه باستفاضة، ويبدأ بحكاية القصص لها، كانت تسمع بآذان صاغية، كوخ عيسو، عقاب سدوم، ومشاكل الفتى جوزيف جعلتها بدورها شاحبة وتفتح عينيها الزرقاوتين بشكل واسع.

---

[٤٢] تدليل لاسم ماريا. المترجم

وعندما تخلى فيما بعد عن عمله كخادم، وفتح حانوتًا في القرية بأموال كان قد وفرها، كانت ماشوتكا قد ذهبت إلى موسكو مع عائلة سيده...

وقبل ثلاث سنوات من وفاتها، جاءت لرؤية والدها، وكان بالكاد قد تعرف عليها، كانت امرأة فتية رشيقة تتصرف كآنسة شابة، وترتدي مثل واحدة منهن، وتكلمت بذكاء، كما لو أن كلامها مأخوذ من كتاب، ودخنت، ونامت حتى منتصف النهار، وعندما سألها أندريه أندريتش عما كانت تفعله، تطلعت بجرأة في وجهه مباشرة وصرحت:

- «أنا ممثلة!» لقد أثارت مثل هذه الصراحة لخادم سابق أوج السخرية، وأخذت ماشوتكا تتفاخر بنجاحها وحياتها المسرحية، لكنها توقفت عندما رأت والدها يحمرّ وينفض يديه، وأمضيا أسبوعين معًا دون التحدث أو النظر إلى بعضهما البعض حتى اليوم الذي سافرت فيه، وقبل أن تمضي بعيدًا، طلبت من والدها المجيء ليتمشيا على ضفة النهر، كان الأمر مؤلمًا بالنسبة إليه أن يمشي في وضح النهار على مرأى كل الناس الشرفاء مع ابنته الممثلة، لكنه استسلم لطلبها.

وقالت بحماس:

- يا له من مكان جميل تعيش فيه! يا لها من وديان وأهوار! يا للسماء! كم هو جميل موطني!

وانفجرت بالبكاء...

وفكر أندريه أندرييفيتش وهو يتطلع بلا اكتراث إلى الوديان ولا يفهم حماس ابنته:

- «المكان ببساطة يحتل مساحة غرفة.... إن حليب الماعز أنفع منهم»

وأجهشت بالبكاء وهي تسحب أنفاسها بقوة بكل صدرها، وشعرت كأنها لن تترك وقتًا طويلًا للتنفس.

وهز أندريه أندرييتش رأسه كحصان أليح عليه السوط، وشرع يرسم الصليب بسرعة لكبت الذكريات المؤلمة.

وتمتم:

- ارحم يا رب عبدتك الراحلة العاهرة ماريا، واغفر خطاياها التي علمتْ بها وما لم تعلم...

وخرجت الكلمة البشعة من شفتيه مرة أخرى، لكنه لم يشعر بها، فما هو راسخ بقوة في الوعي لا يمكن أن يكون مدفوعًا بمواعظ الأب غريغوري، حتى لو تم طرقه بمسمار! وتنهدت ماكريافنا وهمست بشيء ما وهي تأخذ نفسًا عميقًا، في حين كان ميتكا ذو الذراع الواحدة يمعن التفكير بشيء ما...

ودندن مساعد الشماس وهو يغطي خده الأيمن بيده:

- «حيث لا يكون هنالك مرض، ولا حزن، ولا أنين»

والتف الدخان المزرق من المبخرة وغمر البقعة الفسيحة المائلة لأشعة الشمس التي تتقاطع مع الفراغ الكئيب الهامد للكنيسة. وبدا وكأن روح المرأة الميتة تحلق صوب ضوء الشمس مع الدخان، ودارت لفائف الدخان مثل ضفائر الطفلة والتفت بشكل حلزوني وهي تطفو صعودًا إلى النافذة وتبتعد كما هي بمعزل عن الأحزان والبلاء اللذان كانا يملآن تلك الروح المسكينة.

في مخزن العربات [٤٣]

كان ذلك بين الساعة التاسعة والعاشرة مساءً. «ستيبان» الحوذي، و«ميخايلو» البواب، و«أليوشكا» حفيد الحوذي الذي جاء من القرية ليبقى مع جده، و»نيكاندر» العجوز ذو السبعين الذي اعتاد على القدوم إلى الساحة كل مساء ليبيع سمك الرنجة المملح يجلسون حول الفانوس في المخزن [٤٤] ويلعبون «الملوك»، وكان بالإمكان عبر الباب المفتوح على مصراعيه رؤية الساحة كلها، البيت الكبير حيث تسكن عائلة السيد، البوابات، الأقبية، وكوخ الحارس. كل شيء كان مسجّى في ظلمة الليل، ووحدها الشبابيك الأربعة في إحدى النزل مضاءة ببهاء، ومالت ظلال العربات والزلاجات بأعمدتها وانبسطت نحو الأعلى بدءًا من الجدران إلى الأبواب وهي تهتز وتقطع الظلال التي يلقيها الفانوس واللاعبون...و على الجانب الآخر من الحاجز الرفيع الذي يفصل المخزن عن اسطبل الخيول فاحت رائحة القش، وخرجت من العجوز نيكاندر زنخة سمك الرنجة المملح.

وفاز البواب وصار هو الملك، واتخذ وضعية من وجهة نظره أنها تليق بملك، ومخّط أنفه بصوت عال بمنديل منقوش عليه مربعات حمراء.

وقال:

- الآن لو أردت، يمكنني قطع رأس أي إنسان.

ونظر أليوشكا، الصبي ذو الثامنة والشعر الكتاني الذي لم يقصه منذ فترة طويلة، والذي فاته أن يكون ملكًا بخدعتين بغضب وحسد إلى البواب، وبرطم وعبس وجهه.

وقال وهو يمعن التفكير في أوراقه:

- سأخدعك يا جدي، أنا أعرف أن لديك ملك الدينار.

- طيب، طيب، أيها السخيف الصغير، لقد فكرتَ بما فيه الكفاية!

ولعب أليوشكا بشاب الدينار بتردد. وسُمع في تلك اللحظة طرقًا يأتي من الساحة.

وتمتم البواب وهو يقوم:

- آخ، ما هذه العلقة! اذهب وافتح البوابة أيها الملك!

---

[٤٣] نشرت لأول مرة في الثالث من أغسطس عام ١٨٨٧ في جريدة بطرسبرغ موقعة باسم «أ.تشيخونتا». المترجم

[٤٤] يمكن أن يقال «زريبة» أيضًا. المترجم

وعندما عاد بعد قليل، كان أليوشكا قد صار أميرًا، وصياد السمك جنديًا، والحوذي فلاحًا.

وقال البواب وهو يوزع البطاقات مرة أخرى:

- عمل مقرف. لقد وصل الأطباء لكنهم لم يخرجوها.

- وكيف يخرجونها؟ شغّل مخك فقط، سيكون عليهم أن يشقوا الدماغ، إذا كانت هناك رصاصة في الرأس فما نفع الأطباء؟

وأكمل البواب:

- إنه ممد بلا وعي. إنه يموت حتمًا. أليوشكا، لا تتطلع للأوراق أيها الجرو الصغير وإلا قصيت أذنيك! نعم، أحضرت الأطباء، والأب والأم في... لقد وصلا للتو على بكاء ونواح، يا رب احفظنا! يقولون أنه الابن الوحيد... شيء يحرق القلب!

ونظر الجميع ماعدا أليوشكا الذي كان غارقًا في اللعبة حولهم نحو شبابيك البيت المضاءة ببهاء.

وقال البواب:

- عندي أوامر للذهاب إلى المخفر غدًا. وسيفتحون تحقيقًا... لكن ماذا أعرف عن ذلك؟ أنا لم أر شيئًا. لقد ناداني هذا الصباح وأعطاني رسالة وقال «ضعها في صندوق الرسائل لخاطري» وكانت عيناه محمرّة من البكاء، لم تكن زوجته وأولاده في المنزل، كانوا قد خرجوا في نزهة، وعندما ذهبت بالرسالة كان قد وضع رصاصة مسدس في جبينه. وعندما عدت وجدت خادمته تنوح على مسمع الساحة كلها.

وقال الصياد بصوت مبحوح وهز رأسه:

- هذه خطيئة كبيرة... خطيئة كبيرة!

وقال الحارس وهو يضع ورقة التسعة الرابحة فوق ملك الدينار:

- يبدو أن الجنس اللطيف وراء ذلك. وأنه كان مغرمًا بزوجة رجل ما ولا يحب زوجته، وهكذا صار.

وقال البواب:

- الملك يتمرد.

وسمع في تلك اللحظة قرع من الساحة مرة أخرى، وبصق الملك المتمرد بغضب وخرج، ورفرفت الظلال باتجاه شبابيك البيت مثل الراقصين، واعتلت أصوات وخطوات مستعجلة في الساحة.

وقال الحوذي:

- أظن أن الأطباء رجعوا ثانية، أخونا ميهايلو يطير بساقيه...

وارتفع صوت نحيب في الهواء للحظةن وتطلع أليوشكا بذعر إلى جده الحوذي، ثم إلى الشبابيك، وقال:

- لقد ضربني على رأسي عند البوابة البارحة وقال: «من أي حي أنت يا ولد؟»... جدي، من الذي كان يصيح الآن؟

قلّص جده ضوء الفانوس ولم يجب بشيء.

وقال بعد حين:

- ضاع الرجل. ضاع ودمرت حياة أولاده أيضًا. إنها وصمة عار لأولاده طوال حياتهم.

عاد البواب وجلس بجانب الفانوس وقال:

- لقد ماتن وأرسلوا على العجائز في الميتم ليمدّدنه خارج المنزل.

وهمس الحوذي ورسم الصليب:

- يا ملكوت السموات، الله يرحمه!

ورسم أليوشكا الصليب وهو ينظر إليه أيضًا

وقال الصياد:

- لا تترحم عليه

- لِمَ؟

- إنها خطيئة

وقال البواب مؤيدًا:

- صحيح. لقد ذهبت روحه الآن إلى جهنم مباشرة، إلى الشيطان...

وردد الصياد:

- إنها خطيئة، ليس لمثله جنازة، ولا قداس، بل يدفن مثل الفطيسة بلا تقدير.

ووضع العجوز قبعته ونهض.

وقال وهو يسوي قبعته:

- نفس القصة حدثت مع سيدتنا، كنا أقنانًا في تلك الأيام، وأطلق الابن الأصغر لسيدتنا، زوجة الجنرال، النار على فمه بمسدس، من التعلم المفرط، أي نعم، يبدو أنه بالشرع يجب أن يدفن خارج المقبرة، دون قساوسة، وبلا صلاة جنازة، ولإنقاذ سيدتنا من الفضيحة، كما تعرفون، رشت الشرطة والأطباء، وأعطوها ورقة تقول أن ابنها مات تحت الهذيان، ولم يكن يدري ماذا يفعل، يمكنك عمل أي شيء بالمال، لذا كان له جنازة مع قسيسين وبكل تقدير، وعزفت الموسيقى، ودفن في الكنيسة، لأن الجنرال المتوفي بنى تلك الكنيسة بأمواله، وكل عائلته دفنت هناك. هذا ما حدث حتى الآن يا جماعة، ومر شهر، ثم شهر آخر، وكل شيء على ما يرام، في الشهر الثالث، أبلغوا زوجة الجنرال بأن حراس الكنيسة قد أتوا، ماذا يريدون؟ وأُحضروا إليها، وركعوا عند قدميها وقالوا «لا يمكننا الاستمرار في العمل يا صاحبة السعادة، ابحثي عن حراس آخرين وافصلينا بلطف».

- ولِمَ؟

- لا لا يمكننا ذلك، إن ابنك يصيح تحت الكنيسة طوال الليل».

وارتعش أليوشكا وغطى وجهه بظهر الحوذي كي لا يرى الشبابيك.

وتابع العجوز:

- في البداية لم تصغِ زوجة الجنرال، وقالت: «كل هذه أوهام أيها القوم البسطاء، لا يمكن للميت أن يصيح.»

وبعد ذلك بقليل جاء إليها الحراس ثانية ومعهم مساعد الشماس. وقد سمع مساعد الشماس صياحه أيضًا، رأت زوجة الجنرال أنه أمر سيء، وأغلقت الباب في غرفة نومها مع الحراس، وقالت: «ها هي يا أصدقائي، هذه خمسة وعشرون روبلًا لكم، واذهبوا بالليل سرًا بحيث لا يسمعكم أحد أو يراكم، واحفروا قبر ابني التعيس وادفنوه خارج المقبرة.» وأظن أنها أكرمتهم بكأس... وفعل الحراس ذلك، وشاهدة القبر على حالها حتى يومنا هذا، لكن هو، ابن الجنرال، خارج المقبرة....

وتنهد الصياد:

- يا رب اغفر خطايانا! ليس هناك إلا يوم واحد في السنة يصلي الواحد فيه لمثل هؤلاء الناس؛ يوم السبت قبل الثالوث...

يجب ألا تتصدق للشحاذين على روحهم، إنها خطيئة، ولكن يمكنك إطعام الطيور على روحهم. لقد اعتادت زوجة الجنرال الخروج إلى المفرق كل ثلاثة أيام لإطعام الطيور. وذات مرة ظهر لها كلب أسود فجأة على المفرق، وركض نحو الخبز، وكان مثل... كلنا نعرف ماذا كان ذاك الكلب. وظلت زوجة الجنرال نصف مجنونة لخمسة أيام بعد ذلك، ولم تأكل ولم تشرب... وركعت على ركبتيها على الفور في الحديقة، ودعت وصلت... طيب، طيب يا جماعة، بارك الله والأم المقدسة بكم، دعونا نذهب، ميخايلو، ستفتح البوابة لي.

وذهب الصياد والبواب، وخرج الحوذي وأليوشكا أيضًا حتى لا يتركا في المخزن.

وقال الحوذي وهو ينظر إلى الشبابيك حيث لا زالت الظلال ترفرف جيئا وذهابًا:

- كان الرجل حيّا ومات! هذا الصباح فقط كان يتمشى في الساحة، والآن يرقد ميتًا.

وقال البواب وهو يمشي بعيدًا مع الصياد:

- سيأتي اليوم الذي نموت فيه نحن أيضًا.

وتلاشى عن الأنظار في الظلام على الفور.

وذهب الحوذي وتبعه أليوشكا بتردد إلى حد ما نحو الشبابيك المضاءة. وكانت سيدة شاحبة للغاية وغارقة بالدموع، ورجل حسن الطلة وأشيب يحركان طاولات الورق إلى منتصف الغرفة، الأرجح بنية تمديد الرجل الميت عليها. وعلى المفرش الأخضر لا زال بالإمكان رؤية أرقام الجداول مكتوبة بالطبشور، كانت الخادمة التي ركضت في الفناء وهي تبكي واقفة على كرسي، وتشد جسدها محاولة تغطية الزجاج الشفاف بمنشفة.

وسأل أليوشكا هامسًا:

- ماذا يفعلون يا جدي؟

أجاب جده:

- سيمددونه على الطاولات، لنذهب يا ولد، حان وقت النوم.

وعاد البواب وأليوشكا إلى الحظيرة، وتليا صلواتهما وخلعا أحذيتهما.

واستلقى ستيبان في ركن على الأرض، وأليوشكا على الزلاجة. وأغلقت أبواب المخزن، وخرجت رائحة كريهة من الفانوس المطفأ، جلس أليوشكا بعد ذلك بقليل وتطلع حوله، لا زال يتسلل شيء من بريق تلك الشبابيك المضاءة عبر شق الباب.

وقال:

- جدي، أنا خائف!

- هيا، اخلد للنوم، للنوم!

- قلت لك أنني خائف!

- مما أنت خائف، يا لك من طفل!

وصمتا

قفز ألوشكا من الزلاجة فجأة، وبكى بصوت عال، وركض نحو جده.

وصرخ الحوذي بفزع ونهض هو أيضًا:

- ماذا هناك؟ ما الأمر؟

- إنه يصيح!

- من يصيح؟

- أنا خائف يا جدي، هل تسمع؟

وقال:

- هذا بكاؤهم، هيا! أيها الصغير السخيف! إنهم حزينون، ولذلك يبكون.

أكمل حفيده وهو ينتحب ويرتعش بكل جسده:

- أريد أن أذهب للبيت... جدي، دعنا نعود إلى القرية، إلى ماما، هيا، جدي الغالي، سيدخلك الله الجنة لذلك....

- يا للسخافة، أخ!، هيا، اهدأ، أهدأ! اهدأ، سأشعل الفانوس...سخيف!

تلمس الحوذي الكبريت وأشعل الفانوس. لكن الضوء لم يرِح أليوشكا.

والتمسه وهو يبكي:

- جدي ستيبان، لنذهب إلى القرية! أنا خائف هنا، هأه هأه، كم أنا خائف! لماذا أحضرتني من القرية أيها الملعون؟

- من الملعون؟ لا ينبغي أن تستخدم هذه الكلمات البشعة مع جدك، سأجلدك.

- تجلدني يا جدي، اجلد، اضربني مثل المعزة، لكن فقط خذني إلى ماما! من أجل الله!

قال الحوذي بلطف:

- هيا، هيا، يا حفيدي، هيا! كل شيء على ما يرام، لا تخف... أنا نفسي خائف... أدع!

صرّ الباب وظهر رأس البواب، وسأل وهو يدخل:

- هل نمت ستيبان؟ أنا لن أنام الليلة، سأفتح وأغلق البوابات طوال الليل... لماذا تبكي يا أليوشكا؟

أجاب الحوذي عن حفيده:

- إنه خائف.

واعتلى صوت نحيب في الهواء مرة أخرى

قال البواب:

- إنهم يبكون، الأم لا تصدق عينيها... فظيع كم هي متضايقة.

- وهل الأب هناك؟

- نعم... الأب على ما يرام، إنه يجلس عند الركن ولا ينطق بشيء، لقد أخذوا الأطفال إلى الأقارب... طيب سيتيبان، هل سنحظى بلعبة رابحة؟

وافق الحوذي وهو يحك جسده:

- نعم، وأنت أليوشكا، اذهب للنوم، أنت كبير بما يكفي على ما أظن لتتزوج وتنتحب، يا عفريت، هيا تحرك يا حفيدي، اذهب...

طمأن وجود البواب أليوشكا. وذهب بتردد نحو الزلاجة واستلقى عليها، وبينما كان على وشك النوم سمع وشوشة.

وقال جده:

- أنا أضرب وأغطي.

وردد البواب:

- أنا أضرب وأغطي.

وقرع الجرس في الساحة، وصرّ الباب وبدا كأنه يقول «أنا أضرب وأغطي». وحين حلم أليوشكا بالرجل وشعر بالخوف من عينيه، قفز وانفجر باكيًا، وعندها كان الصباح قد طلع، وجده يشخر، ولم يعد مخزن العربات مرعبًا.

مخاوف [٤٥]

خلال كل الأعوام التي أعيش فيها في هذه الدنيا شعرت بالرعب ثلاث مرات فقط.

كان الرعب الحقيقي الأول، الذي جعل شعر بدني يقف على الآخر وجعل الرعشة تسري في كل جسدي، سببه ظاهرة تافهة ولكنها غريبة، فقد حدث أنه لم يكن لدي ما أفعله في إحدى أمسيات شهر يوليو، حيث ذهبت إلى المحطة لشراء الجرائد، كانت أمسية دافئة وخانقة بعض الشيء، مثل كل الأمسيات الرتيبة في شهر يوليو، والتي تكون الليلة فيها أشبه بأسبوع، أسبوعين، أو أطول في بعض الأحيان، وفي تعاقب منتظم وغير منقطع، ثم يتم قطعه فجأة بعاصفة رعدية وهطول أمطار غزيرة تنعش كل شيء لفترة طويلة.

كانت الشمس قد غابت لبعض الوقت قبل أن أخرج، واستلقى غسق رمادي على كل أنحاء الأرض، وروائح العشب والزهور الجميلة والمثيرة للغثيان تفوح غليظة في الهواء الساكن بلا حراك.

كنت أركب حنطورًا ثقيلًا. وكان خلف ظهري ابن البستاني باشكا، وهو صبي يبلغ من العمر ثمانية سنوات، والذي اصطحبته معي لرعاية الحصان في حال تطلب الأمر ذلك، وكان يشخر بهدوء، ويضع رأسه على كيس من الشوفان. وطريقنا ممتد على طول خط ضيق ومستقيم مثل المسطرة، والذي يختبئ مثل ثعبان كبير في الجاودار الكثيف الطويل. واعتلى لمعان باهت من شفق الغروب، ثم سلسلة من الأضواء تشق طريقها عبر سحابة هزيلة وفظة الشكل، التي تارة بدت وكأنها قارب، ورجل ملفوف في لحاف تارة أخرى...

كنت قد قطعت مسافة ميل ونصف، أو ميلين، عندما ظهرت على الخلفية الشاحبة لوهج المساء في الأفق بعض أشجار الحور الطويلة الناضرة شجرة تلو شجرة، وأومض النهر ورائها بوهن، وانبثقت أمامي لوحة خلابة فجأة كما لو كان الأمر سحرًا، واضطررت إلى إيقاف الحصان لأن طريقنا المستقيم انقطع على حين غرة، وتوقفنا على منحدر حاد مغطى بالشجيرات، وكنا نقف على سفح التل وتحتنا في القعر حفرة ضخمة مليئة بالشفق والأشكال الرائعة والفضاء، وأسفل هذه الحفرة، على سهل واسع تحرسه أشجار الحور ويداعبه النهر المتلألئ، كانت هنالك قرية، وكانت نائمة... ووقفت أكواخها، وكنيستها ذات الجرس، وأشجارها أمام الشفق الرمادي وانعكست بقتامة على السطح الناعم للنهر.

وأيقظت باشكا خوفًا من أن يقع خارج الحنطور، وأخذت في الهبوط بحذر.

وسأل باشكا وهو يرفع رأسه بكسل:

- هل وصلنا إلى لوكوفو؟

---

[٤٥] نشرت القصة لأول مرة في السادس عشر من يونيو عام ١٨٨٦ في صحيفة بطرسبرغ موقعة باسم «أ.تشيخونتا». المترجم

- نعم، أمسك باللجام!

وقدت الحصان إلى أسفل التل وألقيت نظرة على القرية. وللوهلة الأولى، لفت انتباهي أمر غريب، ففي الجزء العلوي من الناقوس، عند النافذة الصغيرة بين القبة والأجراس، رأيت ضوءًا يومض. وكان هذا الضوء يشبه فانوسًا مشتعلًا، يخمد برهة، ثم يشتعل برهة أخرى. ماذا يمكن أن يكون؟

كان مصدر الضوء فوق أن أستوعبه، فلا يمكن أن يضيء شيء عند النافذة، لأنه لم تكن هناك أيقونات أو فوانيس في البرج العلوي للناقوس، لم يكن هناك شيء، كما أعرف، ليس إلا العوارض، والغبار وشباك العناكب، وكان من الصعب الصعود إلى هذا البرج، لأن المسلك إليه من الناقوس مسدود.

كان من المرجح أكثر من أي شيء آخر أن يكون انعكاسًا لضوء خارجي ما، لكن على الرغم من أنني حاولت جاهدًا أن أحدق بقدر ما أستطيع؛ إلا أنني لم أتمكن من رؤية بقعة ضوء أخرى على الامتداد الواسع الذي كان أمامي، لم يكن هناك قمر، وليس بالإمكان الآن للخط الشاحب الخافت للشفق أن ينعكس ضوءُه، لأن النافذة لا تطل على جهة الغرب، بل نحو الشرق، هذه الاعتبارات وغيرها من الأفكار المماثلة ظلت تائهة في عقلي طوال الوقت الذي كنت أسير فيه على المنحدر مع الحصان، وعند القعر، جلست على قارعة الطريق وتطلعت إلى الضوء مرة أخرى، وكان لازال يومض ويشتعل مثلما كان من قبل.

وفكرت وأنا شارد في التخمين:

«غريب.. غريب جدًا»

واستحوذ عليّ إحساس مزعج شيئًا فشيئًا، ظننت في البداية أن هذا الأمر مغيظ لعدم قدرتي على تفسير ظاهرة بسيطة، ولكن حين أدرت وجهي فيما بعد عن الضوء برعب وأمسكت باشكا بيد واحدة، أصبح جليًا أنني كنت صريعًا من الرعب...

واستولى عليّ شعور الوحشة، والبؤس، والرعب، كما لو كنت قد سقطت رغم إرادتي في هذه الحفرة الكبيرة المليئة بالظلال، بحيث أقف وحدي تمامًا مع الناقوس وهو يحدق صوبي بعينيه الحمراوتين.

وصرخت وأنا أغلق عيني في رعب:

- بوشكا!

- ماذا؟

- بوشكا ما هذا الوميض على الناقوس؟

- من يدري؟

طمأنتني هذه المحادثة القصيرة مع الصبي قليلًا، ولكن ليس لفترة طويلة. فقد رأى بوشكا قلقي، وثبّت عينيه الواسعتين على الضوء، وتطلع إليّ ثانية، ثم إلى الضوء مرة أخرى....

وهمس:

- أنا خائف

عند هذه اللحظة، وبجانب الرعب الذي أنا فيه، أمسكت الصبي بيد واحدة، وقرفصت عليه، وألقيت بالسوط على الحصان بعنف.

وقلت لنفسي:

- «هذا غباء! هذه الظاهرة مرعبة لأنني لا أفهمها فقط، إن كل شيء لا نفهمه يكون مبهمًا بالنسبة لنا».

وحاولت أن أقنع نفسي، لكنني في الوقت نفسه لم أوقف التلويح بالسوط على الحصان، وعندما وصلنا إلى محطة البريد بقيت ساعة كاملة أتحدث مع المشرف عن قصد، وقرأت صحيفتين أو ثلاثة، لكن الشعور بالقلق لم يتركني وشأني، وفي طريق العودة لم يكن بالإمكان رؤية الضوء، ولكن من ناحية أخرى، بدت لي ظلال الأكواخ وأشجار الحور والتلال التي اضطررت للقيادة عبرها وكأنها تتحرك، ولماذا كان الضوء هناك فهذا ما لا أعرفه حتى يومنا هذا.

أما الذعر الثاني الذي عشت به فكان مفتعلًا عن حالة ليست بأقل تفاهة... كنت عائدًا من موعد رومانسي، وكانت الساعة الواحدة ليلًا، وهو الوقت الذي تختبئ الطبيعة فيه بأعمق وأعذب نوم قبل الفجر، ولم تكن الطبيعة نائمة آنذاك، وليس بوسع المرء أن يصف الليلة بأنها هادئة، فقد كانت طيور الصفرد، والسمان، والعنادل، ودجاج الأرض تصيح، وصراصر الليل والجنادب تصرّ، وهناك ضباب يعتلي فوق العشب، والغيوم تهرول بسرعة في السماء بجوار القمر. لقد كانت الطبيعة مستيقظة، وكأنها خائفة أن تضيّع أفضل لحظات حياتها.

ومشيت على طول مسار ضيق على حافة مرتفع سكة حديدية. وانساب ضوء القمر فوق خطوط السكة المغطاة بالندى. وبقيت الظلال الكبيرة للغيوم ترفرف فوق المرتفع. وبعيدًا نحو الأمام، كان ضوء أخضر خافت يومض بهدوء.

وفكرت وأنا أتطلع حولي: «كل شيء على ما يرام»

كان لدي شعور هادئ، ومسالم، ومريح في قلبي، وكنت عائدًا من موعد، وليس عندي حاجة للعجلة. لم أكن أشعر بالنعاس، وكنت أحس بالشباب والصحة في كل زفرة، وفي كل خطوة أخطوها، ويملؤني الحماس بصدى ممل لهمهمة الليل الرتيبة. ولا أعلم ماذا كان شعوري بعد ذلك، لكنني أتذكر أنني كنت سعيدًا، سعيدًا جدًا.

لم أمضِ إلى أكثر من ميل حين سمعت ورائي فجأة صوتًا مضطردًا، صوت هدير، يشبه هدير جدول كبير إلى حد ما. وعلا أكثر فأكثر في كل ثانية، وبدا أقرب فأقرب، ونظرت حولي وكانت الأيكة المظلمة التي أتيت منها للتو على بعد مائة خطوة، حيث تحول المرتفع إلى اليمين بانعطاف رشيق واختفى بين الأشجار، ولا زلت أنا أقف في حيرة وانتظر. وظهر على الفور شيء أسود ضخم، وتسلل نحوي بصخب، وحلق من حولي طائر على طول السكة. ومرت أقل من نصف دقيقة، وتلاشى طمس الضباب، واختفى الهدير بعيدًا في جلبة الليل.

كانت عربة نقل بضائع عادية، ولم يكن هناك من شيء غريب في ذلك بحد ذاته، لكن ظهورها بدون قاطرة وفي الليل حيرني، من أين يمكن أن تأتي وما القوة التي دفعتها لتطير بسرعة على طول السكك؟ من أين أتت وإلى أين تطير؟

لو كنت قد خرفت، لوجهت تفكيري إلى أنها مجموعة من الشياطين والساحرات الذين يسافرون في يوم سبت الشياطين، ولذهبت في طريقي، ولكن الحكاية مثلما كانت، ظاهرة لا يمكن تفسيرها على الإطلاق بالنسبة لي، لم أصدق عيني، وكنت عالقًا بتخمينات مثل ذبابة في شبكة العنكبوت...

وأدركت فجأة أنني كنت وحدي تمامًا على امتداد السهل الواسع، كان ذاك الليل، والذي يبدو مقفرًا الآن، يختلس النظر على وجهي ويطارد خطواتي، كل الأصوات، وصياح الطيور، وحفيف الأشجار، بدت شريرة وموجودة ببساطة لتفزع مخيلتي، واندفعت مثل المجنون وركضت دون وعي لما أفعله، محاولًا الجري أسرع فأسرع، وعلى الفور، سمعت شيئًا لم أكن أعير انتباهًا إليه من قبل، ألا وهو الأنين الحزين لأسلاك التلغراف.

وقلت محاولًا الخجل من نفسي:

- «طفح الكيل، هذا جبن! سخافة!».

لكن الجبن كان أقوى من الحس السليم، وتباطأت وتيرتي فقط عندما وصلت إلى الضوء الأخضر، حيث رأيت كشك السكة القاتم، وقربه على الحاجز قامة رجل، الأرجح أنه عامل الإشارة.

وسألته وأنا منقطع الأنفاس:

- هل رأيت ذلك؟

- رأيت من؟ ماذا؟

- لما، تهرع العربة...

وقال الفلاح على مضض:

- رأيتها... لقد انفصلت عن قطار البضائع. هناك منحدر قبل تسعين ميلا... كان القطار يمضي صعودًا. وقد انكسر مشبك التوصيل عن العربة الأخيرة، لذا انفصلت وعادت إلى الوراء... لا يمكن لحاقها الآن!

وتم تفسير هذه الظاهرة الغريبة واختفى ذاك الشخص الرائع، وانقضى فزعي وكنت قادرًا على السير في طريقي.

أما ذعري الثالث فهو حين كنت عائدًا إلى البيت من منصة الرماية في بدايات الربيع، كان ذلك عند غسق المساء، وكان طريق الغابة مغطى ببرك من هطول الأمطار الأخير، ووجه الأرض يسحق تحت أقدام المرء، وغمرت حمرة الغروب الغابة بأكملها، ملونةً السيقان البيضاء للبتولا والأوراق الفتية. وكنت منهكًا وبالكاد أستطيع التحرك.

وعلى بعد أربعة أو خمسة أميال عن المنزل، وأثناء السير على طول طريق الغابة، قابلت فجأة كلبًا أسودًا كبيرًا من سلالة سبانيل، ونظر الكلب بينما هو يجري إليّ بتمعن، وحدّق في وجهي مباشرة، ثم ركض.

وفكرت:

- «كلب جميل! لمن هو يا ترى؟»

ونظرت حولي، كان الكلب واقفًا على بعد عشر خطوات بعينيه المحدقتين بي، ودققنا ببعضنا البعض بصمت لدقيقة، ثم قام الكلب، الذي على الأرجح أنه ازدلف باهتمامي، وتقدم نحوي ببطء وهو يهز ذيله.

ومشيت والكلب يتبعني...

وبقيت أسأل نفسي:

- «لمن يمكن أن يكون الكلب؟ من أين أتى؟»

كنت أعرف كل العائلات الراقية في الريف على امتداد عشرين أو ثلاثين ميلًا حولي، وأعرف كلابهم. ولا أحد منهم عنده سبانيل مثل هذا، كيف جاء إلى أعماق الغابة؟ وعلى المسار المستخدم لنقل الخشب؟ كان بالكاد يستطيع أن يترك خلفه شخص يمر، لأنه لم يكن هناك مكان يستطيع فيه السادة السير على طول هذا الطريق.

جلست على جذع للراحة، وبدأت أتمعن في رفيقي، وجلس هو أيضًا ورفع رأسه وركز عليّ بقصد التفرس، وحدّق في وجهي دون أن يرف له جفن، ولا أعرف ما إذا كان من تأثير السكون، أو ظلال الغابة وأصواتها، أو ربما نتيجة الإرهاق، لكنني شعرت بالقلق بغتة في ظل النظرة الثابتة لعينيه

الكلبيتين العاديتين، وفكرت في فوست وبكلبه البولدج ، [٤٦]فالحقيقة أن الناس المتوترين يهلوسون في بعض الأحيان عندما ينهكون، وكان ذلك كافيًا لجعلي أنهض بعجالة وأركض بسرعة، وتبعني الكلب.

وصرخت:

- ابتعد!

والأرجح أن الكلب أحب صوتي، لأنه أخذ يقفز بمرح ويركض أمامي.

وصرخت مرة أخرى:

- ابتعد!

ونظر الكلب حوله، وحدّق في وجهي بتركيز، وهز ذيله بمزاج حسن، من الواضح أن نبرتي المهددة سلتّه، كان عليّ أن أربت عليه، لكنني لم أستطع إخراج كلب فاوست من رأسي، وازداد شعوري بالذعر أكثر فأكثر... كان الظلام يحل، وهو ما زاد تشويشي، وفي كل مرة يركض الكلب نحوي يلمسني بذيله، وأغمضت عيني مثل الجبان، وحدث ذات الشيء كما هو الحال مع ضوء الناقوس وعربة السكة الحديدية، ولم أتمكن من الوقوف وهرعت.

وفي المنزل وجدت ضيفًا، وكان صديقًا قديمًا، وبعد أن سلمت عليه، بدأ يشكو من أنه بينما كان آتيًا إلي فقد طريقه في الغابة، وأن كلبًا ثمينًا رائعًا قد تركه وراءه.

---

[٤٦] من مشهد «خارج أبواب المدينة «الجزء الأول لمسرحية فاوست للكاتب المسرحي الألماني «يوهان غوته «(١٧٤٩-١٨٣٢)، وهو تصوير لمشهد يظهر فيه فاوست أثناء مشواره مع فاغنر مفستوفيليس في المساء بصورة كلب بليغ بالذئب أسود. المترجم

قصة كبير البستانيين [٤٧]

كان سوق الزهور يقع في الدفيئات في الشارع ن، وكان عدد الزبائن قليلا... مالك الأرض كان جارًا لي، تاجر أخشاب شاب وأنا، وبينما كان العمال يحملون مشترياتنا الجميلة ويحزمونها في العربات، جلسنا عند مدخل الدفينة وتبادلنا أطراف الحديث من موضوع لآخر، فأمر ممتع للغاية أن تجلس في حديقة في إحدى صباحيات أبريل، وتصغي للطيور، وتتأمل الزهور في الهواء الطلق وتنعم بأشعة الشمس.

كان كبير البستانيين، «ميخائيل كارلوفيتش»، عجوزا محترما ذا وجه حليق بالكامل، يرتدي صدرية من الفرو وبلا معطف، وقد أشرف على حزم النباتات بنفسه، لكنه استمع في ذات الوقت إلى حديثنا على أمل سماع شيء جديد، كان رجلًا ذكيًا، طيب القلب، ومحترمًا من كل الناس، وكان ينظر الجميع إليه لسبب ما على أنه ألماني، ولو أنه كان كذلك في الواقع إلى جانب أن والده سويدي، وأمه روسية، ويعتنق الكنيسة الأرثوذكسية، وكان يجيد الروسية والسويدية والألمانية، فقد قرأ الكثير بتلك اللغات، وليس بإمكان المرء أن يهبه السعادة أكثر من إعطائه كتابًا جديدًا أو التحدث معه عن إبسن [٤٨] مثلًا.

كان عنده شيء من الوهن، لكنه كان من الوهن البريء؛ فقد أطلق على نفسه لقب كبير البستانيين، ولو أنه لا يوجد درجات للبستانيين، وكانت تعابير وجهه وقورة ومتغطرسة بشكل غير اعتيادي، ولا يمكنه تحمل أن يعارضه أحد، ويحب أن يصغى إليه باحترام وانتباه.

وقال جاري وهو يشير إلى عامل أسمر غجري الوجه كان يسحب براميل المياه:

- يمكنني تزكية هذا الرجل الشاب هناك على أنه نذل وأزعر، الأسبوع الماضي حكم عليه في المدينة بتهمة السطو وخرج براءة، أعلنوا أنه مختل عقليًا، ولو نظرت إليه الآن ترى عين العافية، غالبًا ما يتم تبرئة الأوغاد في هذه الأيام في روسيا على مباعث الخلل والاضطراب، وبعد هذه البراءات، وهذه الأدلة التي لا لبس فيها من التسامح مع الجريمة، لن تصل الأمور إلى خير. إنهم يثبطون همة الشعب، والشعور بالعدالة ينجلف في كل شيء لأنهم اعتادوا على رؤية الرذيلة بلا عقاب، وكما تعلمون أنه يمكن للمرء في أيامنا أن يقول بجرأة على حد تعبير شكسبير أنه يجب على الفضيلة أن تطلب المغفرة من الرذيلة في زماننا الشرير والفاسد [٤٩].

---

[٤٧] نشرت القصة لأول مرة في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٨٩٤ في «فيدوموستي» موقعة باسم «أنطون تشيخوف». المترجم

[٤٨] هنريك يورهان إبسن (١٨٢٨ - ١٩٠٦). كاتب مسرحي له دور كبير في ظهور الحركة الواقعية المعاصرة. المترجم

[٤٩] من مأساة "هاملت» لشكسبير. الفصل الثالث، المشهد الرابع. المترجم

وأيّد التاجر:

- صحيح جدًا، وبسبب هذه البراءات المتكررة، أصبح القتل العمد وحرق الممتلكات أكثر شيوعًا، اسأل الفلاحين.

والتفت ميخائيل كارلوفيتش نحونا وقال:

- بالنسبة لي أيها السادة، يسعدني دائمًا أن أرى هذه الأحكام بعدم الإدانة، لست أخاف على الأخلاق والعدالة حين يقولون «بريء»، بل على العكس أشعر بالسعادة، حتى عندما يخبرني ضميري أن هيئة المحلفين قد ارتكبت خطأ في تبرئة المجرم، حتى ذلك الحين أنا منتصر، أحكموا على أنفسكم أيها السادة؛ إن كان عند القضاة وهيئة المحلفين إيمان أكبر بالإنسان من الدليل، والبراهين المادية، وخطابات النيابة العامة، أفلا يكون هذا الإيمان في حد ذاته أعلى من أي اعتبارات عادية؟ مثل هذا الإيمان لا يمكن تحقيقه إلا من قِبل أولئك الذين يفهمون ويشعرون بالسيد المسيح.

وقلت أنا:

- منطق سليم.

وقال البستاني وهو يبتسم:

- لكنه ليس بجديد، أذكر أنني سمعت منذ زمن بعيد أسطورة حول هذا الموضوع، أسطورة مدهشة لأبعد حد، أخبرتني بها جدتي، والدة أبي، سيدة طاعنة في السن، وقد روتها لي بالسويدية، ولن تكون مبهرة ولها وقعها في الروسية.

لكننا توسلنا إليه أن يخبرنا بها وأن لا يكترث لخشونة اللغة الروسية، كان يشعر بالامتنان الشديد، وأشعل غليونه بتروٍّ، وتطلع بغضب إلى العمال، وبدأ:

- استقر في بلدة صغيرة رجل انعزالي، بسيط، وطاعن في السن يدعى تومسون أو ويلسون... لكن هذا لا يهم، المسألة ليست في الكنية، لقد سلك مهنة شريفة؛ كان طبيبًا، وكان متجهمًا دومًا ومنطويا على نفسه، ولا يتحدث إلا بمهنته حين يتطلب الأمر. لم يزر أحدًا أبدًا، ولم يوسع دائرة معارفه بأكثر من انحناءة صامتة، وعاش بتواضع مثل الناسك، الحقيقة أنه كان رجلًا مثقفًا، والمثقفون في تلك الأيام لم يكونوا مثل بقية الناس، فقد أمضوا أيامهم ولياليهم في التأمل، وفي القراءة وعلاج الأمراض، ونظروا إلى كل شيء آخر على أنه تافه، وليس عندهم وقت ليضيعوا كلمة. لقد تفهم سكان البلدة هذا، وحاولوا ألا يزعجوه بزياراتهم وبالثرثرة بلا فائدة، كانوا سعداء للغاية أن الله أرسل لهم أخيرًا رجلًا يعرف كيف تعالج الأمراض، وكانوا فخورين بأن هذا الشخص الرائع يسكن في بلدتهم.

وقالوا عنه: «إنه يعرف كل شيء».

لكن هذا لم يكن كافيًا، ينبغي أن يقولوا أيضًا: «إنه يحب الجميع»، في صدر ذلك الرجل المثقف ينبض قلب ملائكي رائع، فعلى الرغم من أن سكان تلك البلدة كانوا غرباء وليسوا من خلقه، إلا أنه كان يحبهم مثل الأطفال، ولم يكن يتجنبهم، وكان هو نفسه مريضًا بالسل، ويعاني من السعال، لكن عندما يتم استدعاؤه للمرضى، فإنه ينسى مرضه، ولا يتوارى عن نفسه، ويصعد لاهثًا بأنفاسه التلال مهما كانت عالية.

ولم يكن يبالي بالقيظ والعطش القاسي والجاف والجوع، من الغريب القول أنه لم يكن يقبل أي أموال، وحين توفي أحد مرضاه، مشى وراء النعش مع أقاربه وهو يبكي.

وسرعان ما صار الرجل ضروريًا للبلدة لدرجة أن السكان تساءلوا كيف استطاعوا العيش من قبل دون الرجل، كان امتنانهم لا حدود له، وكبار الناس وصغارهم، الصادقون منهم والمخادعون... جميعهم احترموه في الحقيقة وعرفوا قيمته، لم يكن هناك في البلدة الصغيرة وكل الأحياء المحيطة بها رجل يسمح لنفسه أن يفعل أي شيء مزعج له، في الواقع، لم يحلموا بمثله أبدًا، وعندما يخرج من منزله، لم يكن يغلق الأبواب أو النوافذ أبدًا، فهو على ثقة تامة أنه لم يكن هناك سارق بمقدوره تسليمه لارتكابه خطأ. وغالبًا ما كان عليه أثناء تأدية واجباته الطبية المشي على طول الطرق السريعة، عبر الغابات والجبال المسكونة بعدد من المتشردين الجائعين، لكنه كان يشعر أنه في أمان تام.

وكان ذات ليلة عائدًا من عند مريض حين وقع بين أيدي لصوص في الغابة، لكن عندما عرفوه، رفعوا قبعاتهم باحترام وقدموا له شيئًا ليأكله،

وحين أجاب بأنه لم يكن جائعًا، أعطوه بطانية دافئة ورافقوه إلى آخر حدود البلدة وهم سعداء أن القدر قد منحهم فرصة ليظهروا امتنانهم للرجل الخيّر بطريقة بسيطة، حسنًا، إن ما خاب ظني، فقد أخبرتني جدتي أنه حتى الخيول والأبقار والكلاب كانت تعرفه وأعربت عن سعادتها حين قابلته.

وهذا الرجل الذي بدا بقداسته يحرس نفسه من كل شر، والذي حتى قطاع الطرق والمسعورون من الرجال لا يتمنون له إلا الخير، وذات صباح لطيف عثر عليه مقتولًا، غارقًا بالدماء، وجمجمته مكسورة، وكان ممدًا في وادي، وعبّر وجهه الشاحب عن الدهشة، نعم، ليس الهلع وإنما الدهشة هو التعبير الذي كان بارزًا على وجهه عندما رأى القاتل أمامه. يمكنكم أن تتخيلوا الحزن الذي طغى على سكان البلدة والمناطق المحيطة بها، كان الجميع في حالة من اليأس، وغير قادرين على تصديق أعينهم، ويتساءلون عمن يمكنه أن يقتل الرجل، والقضاة الذين أجروا التحقيق وفحصوا جثة الطبيب قالوا: _»لدينا هنا كل علامات جريمة القتل، لكن بما أنه لا يوجد رجل في العالم قادر على قتل طبيبنا، فمن الواضح أنها ليست جريمة قتل، ودمج الأدلة يشير إلى احتمال بسيط، ينبغي عليه الافتراض أنه في وقع في الظلام في الوادي وأصيب بجروح قاتلة».

ووافقت البلدة كلها على هذا الرأي، وتم دفن الطبيب، ولم يقل أي شيء عن موت عنيف، فوجود رجل يمكن أن يملك الخسة والشر ليقتل الطبيب بدا أمرا لا يصدق، فحتى الشر له حدود، أليس كذلك؟

ذات مرة، إن صدقتم ذلك، قادتهم الفرصة إلى اكتشاف القاتل، وكان ذلك أن شوهد متشرد أُدين مرات عديدة وُعرف بأفعاله الشريرة، يبيع علبة سعوط وساعة تعود للطبيب مقابل مشروب، وعندما تم استجوابه، كان مرتبكًا، وأجاب بكذب واضح، وتم إجراء عملية تفتيش، ووجد في سريره قميص عليه بقع دماء على الأكمام، ومشرط طبيب ذهبي، ماذا هنالك أكثر من هذا الدليل؟ ووضعوا المجرم في السجن، وكان السكان غاضبين، وفي الوقت نفسه قالوا:

- «أمر لا يصدق! لا يمكن أن يكون كذلك! احرصوا على عدم ارتكاب الخطأ، وإن حدث، كما تعلمون، فإن الأدلة تروي حكاية خاطئة».

ونفى القاتل ذنبه بعناد في محاكمته، كان كل شيء ضده، وكانت مواجهته بذنبه أمرًا سهلًا مثل الايمان بأن هذه الأرض كانت سوداء، لكن يبدو أن القضاة مجانين تمامًا، ودرسوا كل دليل عشر مرات، واستمعوا للشهود بلا ثقة، وتوردوا باللون الأحمر ورشفوا المياه... وبدأت المحاكمة في الصباح الباكر ولم تنته حتى المساء.

وقال رئيس المحكمة، مخاطبًا القاتل، «أيها المتهم! لقد حكمت المحكمة عليك بتهمة قتل الدكتور فلان، وحكم عليك بـ...».

قصد رئيس القضاة أن يقول «بالإعدام»، لكنه أسقط الورقة التي كُتب عليها الحكم من يديه، ومسح العرق البارد من وجهه، وصرخ قائلًا:

- «لا! قد يعاقبني الله إذا حكمت على خطأ، لكنني أقسم أنه غير مذنب، ليس بمقدوري التفكير أن هناك رجلًا يجرؤ على قتل صديقنا الطبيب! لا يمكن للإنسان أن يكون حقيرًا جدًا!»

وأقر القضاة الآخرون:

- «لا يمكن أن يكون هناك مثل هذا الإنسان!».

وبكى الحشد:

- «لا، أفرج عنه!»

وتم إطلاق سراح القاتل ليذهب حيث يشاء، ولم يلم رجل واحد المحكمة على الحكم الجائر، واعتادت جدتي القول أنه بسبب هذا الإيمان بالإنسانية، فإن الله قد غفر خطايا كل سكان تلك البلدة، ويفرح عندما يعتقد الناس أن الإنسان هو صورته ومثاله، ويحزن إذا ما حكموا على الناس بسوء نية كرامتهم الإنسانية أكثر من الكلاب، قد يؤدي حكم البراءة إلى إلحاق الأذى بسكان البلدة، ولكن من ناحية أخرى، فكروا بالأثر المفيد لهم على ذلك الإيمان بالإنسان... إيمان لا يموت، كما تعلمون؛ فإنه يغرس فينا مشاعر سخية ويدفعنا دائمًا إلى حب واحترام كل إنسان، كل إنسان! وهذا شيء مهم.

وانتهى ميخائيل كارلوفيتش، وكان عند جاري بعض الاعتراضات، لكن كبير البستانيين أشار أنه لا يحب الاعتراضات، ثم ابتعد نحو العربات، واستمر في الإشراف على التحزيم بوقار.

مهمة رسمية [٥٠]

كان قاضي التحقيق وطبيب المقاطعة ذاهبين للتحقيق في قرية سيرنيا، وفي الطريق ضربتهما عاصفة ثلجية وأمضيا وقتًا طويلًا في الالتفاف والدوران، ووصلا، لكن ليس منتصف النهار مثلما أرادا، بل مساءً عند حلول الظلام، وتوقفا للمبيت في إحدى أكواخ مجلس زيمتوف [٥١]، وبالصدفة، حدث أن كان في هذا الكوخ جثة ممدة على الأرض... جثة «ليسنتسكي» وكيل التأمين لدى زميتوف، الذي وصل إلى سيرنيا قبل ثلاثة أيام، وبعد أن طلب بإحضار السماور إلى الكوخ، قام بإطلاق النار على نفسه ليثير دهشة الجميع، والحقيقة أنه قد أنهى حياته بطريقة غريبة للغاية بعد فتح مطبقية الطعام ووضعها على الطاولة، والسماور الذي كان أمامه، ما أعطى الكثير من الشك أنها جريمة قتل، وبحاجة إلى تشريح جنائي.

عند الردهة نفض الطبيب والقاضي الثلج من ثيابهما وخبطا أحذيتهما، وفي تلك الأثناء وقف شرطي القرية العجوز «إيليا لوشادين» ممسكًا بسراج من التنك، وفاحت في الجو رائحة شمع قوية.

وسأل الطبيب:

- من حضرتك؟

وأجاب:

- أنا الشورطي...

وكان قد اعتاد على تهجئتها «شورطي» حين يوقّع على الايصالات في مكتب البريد.

- وأين الشهود؟

- لا بد أنهم ذهبوا لشرب الشاي معاليكم.

من جهة اليمين كانت تقع صالة الاستقبال، وغرفة المسافرين أو السادة، ومن اليسار كان المطبخ وبداخله موقد كبير ورفوف مركونة تحت العوارض الخشبية، ودخل الطبيب والقاضي إلى صالة الاستقبال، وتبعهم الشرطي وهو يرفع السراج فوق رأسه، وهنا ما تزال الجثة الطويلة المغطاة بقماش أبيض ممددة بالقرب من أرجل الطاولة. وعلى ضوء السراج الخافت، تمكنوا بوضوح من رؤية جزمة مطاطية جديدة بجانب القماش الأبيض، وكان كل شيء حول الجثة غريبًا ويبعث في النفس التشاؤم:

---

[٥٠] نشرت لأول مرة في العام ١٨٩٩ في مجلة «كتب الأسبوع» موقعة باسم «أنطون تشيخوف». المترجم

[٥١] كوخ تابعة لمجلس زيمتوف للزوار من المسؤولين. المترجم

الجدران القاتمة، والهدوء، والجزمة، وسكون الجثة الهامدة، وعلى الطاولة وضع السماور الذي صار باردًا مع الوقت، وأوعية فارغة موضوعة حوله، والأرجح أنها مطبقية الطعام.

وقال الطبيب:

- يطلق النار على نفسه في كوخ لزيمتوف، يا لها من قلة حياء! إن كان يريد المرء أن يضع رصاصة في دماغه، فينبغي عليه أن يفعل ذلك في المنزل داخل الزريبة.

ورمى بنفسه على المقعد دون أن يخلع القبعة ومعطف الفرو، وأحس بثقل في قدميه من الحذاء، أما زميل السفر، قاضي التحقيق، فجلس مقابلا له.

ومضى الطبيب يتحدث بحرارة:

- إن الهستيريون ومرضى الأعصاب أنانيون كبار، لو كنت تنام مع شخص واهن الأعصاب في نفس الغرفة، فسيزعجك بحفيف جريدته، وحين يتناول العشاء معك، يقوم ويتشاجر مع زوجته دون أن يكترث لحضورك، وعندما يشعر برغبة في الانتحار، يطلق النار على نفسه في قرية داخل كوخ زيمتوف، ليقدم أقصى قدر من المتاعب للجميع، إن هؤلاء السادة في كل الظروف لا يفكرون في أحد إلا بأنفسهم! لهذا السبب يكره كبار السن «جيلنا العصبي».

وقال قاضي التحقيق بتثاؤب:

- كبار السن يكرهون الكثير من الأمور، يجدر بك الإشارة إلى الجيل الأكبر والفرق بين الانتحار في الماضي والانتحار في أيامنا هذه، في الماضي يطلق الرجل الذي يدعى بالرجل المحترم النار على نفسه لأنه سرق أموال الحكومة، أما في أيامنا فمن شعوره بالسأم من الحياة والاكتئاب... أيهما أفضل؟

- السأم من الحياة والاكتئاب، ولكن يجدر بنا الاعتراف أنه ربما أطلق النار على نفسه لسبب آخر.

وقال الشرطي:

- يا لها من مصيبة! يا لها من مصيبة! بلوى حقيقية حقًا! الناس قلقون للغاية يا أصحاب المعالي، إنهم لم يناموا طوال هذه الأيام الثلاث، والأطفال يبكون، وينبغي أن تحلب الأبقار، لكن النساء لا تردن الذهاب إلى الحظيرة، إنهن خائفات من... خائفات أن يظهر لهن الرجل في العتمة، إنهن نساء حمقاوات بالطبع، لكن بعض الرجال خائفون كذلك، وبمجرد أن يحلّ الظلام لا يجرؤون على المرور بجانب الكوخ واحدًا بمفرده، بل في حشد معًا. والشهود نفس الأمر أيضًا...

كان الطبيب «ستراتشنكو» [٥٢] رجلا في منتصف العمر وبلحية سوداء ونظارة، أما قاضي التحقيق «ليجين»، فرجل أشقر، ولا يزال شابًا، وقد حصل على شهادته قبل عامين فقط وبدا بأنه طالب أكثر من كونه مسؤولًا، وجلسا في صمت وهما يتأملان، وشعرا بالضيق لتأخرهما، فينبغي عليهما الآن أن ينتظرا حتى الصباح، وأن يباتا الليلة هنا على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز السادسة بعد، وأمامهما أمسية طويلة، وليل مظلم، وملل، وأسرّة غير مريحة، والخنافس، والبرد في الصباح، والاستماع للعاصفة الثلجية التي تهب في المدخنة والطابق العلوي. كان كلاهما يفكر كيف أن كل هذا على خلاف الحياة التي اختاراها لأنفسهما والتي كانا يحلمان بها ذات يوم، وكيف أنهما متباعدان عن أبناء جيلهم الذين يتمشون في الشوارع المضيئة في المدينة دون أن يكترثوا للطقس، أو يستعدون للذهاب إلى المسرح، أو يجلسون في مكاتبهم لقراءة كتاب، آه، كم كانا سيدفعان الغالي والنفيس الآن للتنزه فقط على طول شارع نيفسكي، أو على شارع بتروفكا في موسكو، للاستماع إلى الغناء اللطيف، والجلوس لساعة أو ساعتين في إحدى المطاعم...

«فوو ووو ووو!» وهبت العاصفة في الدور العلوي، وسقط شيء ما بقوة في الخارج، على الأرجح أنها كانت اللافتة المعلقة على الكوخ، «فوو ووو ووو!»

وقال ستراتشنكو وهو ينهض:

- افعل ما تشاء، لكن عن نفسي لا أرغب في البقاء هنا. إن الساعة لم تتجاوز السادسة بعد، والوقت مبكر جدًا للنوم. أنا ذاهب، فون تونيتز يقطن على مسافة ليست بعيدة عن هذه المنطقة، على بعد بضعة أميال فقط من سيرنيا، سأذهب لرؤيته وقضاء الليلة هناك، أيها الشرطي، اذهب واطلب من الحوذي أن يجهز الخيول.

ثم سأل:

- وأنت ماذا ستفعل يا ليخين؟

- لا أعلم. أظنني سأخلد للنوم.

والتقط الطبيب بمعطف الفرو وخرج. وكان صوته وهو يتحدث مع الحوذي وصوت الأجراس التي بدأت تهتز على الخيول المتجمدة مسموعًا. ثم انطلقا.

وقال الشرطي:

---

[٥٢] تدليل لاسم سترانكوف. المترجم

- ليس من اللائق أن تقضي الليلة هنا أيا المحترم، تفضل إلى الغرفة الأخرى، صحيح أنها قذرة، ولكن لا يهم في ليلة من الليالي سأجلب السماور من إحدى الفلاحين وأسخّنه مباشرة، وسأحضر بعض القش لتنام عليه، بارك الله بك أيها المحترم.

وبعد ذلك بقليل كان قاضي التحقيق يجلس في المطبخ وهو يشرب الشاي، بينما كان الشرطي، لوشادين، واقفًا عند الباب ويتحدث. كان رجلًا عجوزًا بحدود الستين من العمر، قصيرا ونحيلا للغاية، ومتقوس الجسد وأبيض البشرة، وذا ابتسامة ساذجة مرسومة على وجهه وعينين دامعتين، واستمر في لعق شفتيه كما لو أنه يمص الحلوى، وكان يرتدي معطفًا قصيرًا من الجلد وحذاء عالي الكعب، ويمسك بعصاه طوال الوقت. لقد أثار السن الصغير لقاضي التحقيق عاطفته، والأغلب أن هذا هو السبب في مخاطبته برأفة.

وقال:

- لقد أمرني الرقيب فيودور مكاريتش أن أخبره بقدوم قائد الشرطة أو قاضي التحقيق...لذا أظن أنه عليّ الذهاب الآن... إنه على بعد ثلاثة أميال تقريبًا باتجاه الأبرشية، وبهذه العاصفة، والركام الثلجية، مسألة فظيعة، قد لا يصل الواحد إلى هناك قبل منتصف الليل، يا رب! كيف تصفر الرياح!

وقال ليجين:

- لا حاجة لي بالرقيب، لا يوجد ما يفعله هنا.

ونظر إلى الرجل العجوز بفضول وسأل:

- قل لي يا جدي، منذ متى وأنت في الشرطة؟

- منذ متى؟ منذ ثلاثين سنة، بعد خمس سنوات على الحرية [٥٣] بدأت العمل كشرطي، ذلك كما حسبتها، ومنذ ذلك الوقت أذهب إلى العمل كل يوم، بقية الناس عندهم أيام عطل، أما أنا فأعمل دائمًا، وحين يأتي عيد الفصح وتقرع أجراس الكنيسة ويقوم المسيح، أظل أنا أهرع بحقيبتي إلى الخزينة العامة، والبريد، ومساكن ضباط الشرطة، ومسؤول الريف، ومفتش الضرائب، ومكتب البلدية، والسادة، والفلاحين، وإلى جميع مسيحي الأرثوذكس. وأحمل الطرود والإشعارات والأوراق الضريبية والرسائل، وشتى التعميمات في هذه الأيام، وإن لم يخب ظني، يا صاحب المعالي، يوجد كل أنواع المصنفات في أيامنا هذه، بعضها ما يمكن تدوين الأرقام أسفله، الأصفر والأبيض والأحمر، ويجب على كل سيد أو كاهن أو فلاح ميسور الحال أن يكتب عشرات المرات مقدار ما زرع وما حصد في السنة، وكم ربعًا أو بودًا [٥٤] لديه من الجاودار، وكم عنده من الشوفان، وكم من التبن،

---

[٥٣] يقصد بقانون تحرير العبيد الذي صدر عام ١٨٦١. المترجم

[٥٤] وحدة وزن روسي تقدر بـ ١٦ كيلو ونصف تقريبًا. المترجم

وكيف كانت حالة الطقس، فكما تعرف، يوجد حشرات من جميع الأنواع أيضًا، وإن لم يخب ظني تستطيع كتابة ما تريد، إنه مجرد إجراء قانوني، ولكن يجب على الواحد أن يذهب ويعطي الأوراق ثم يذهب ثانية ويجمعها، وهنا على سبيل المثال، ليس هناك داعٍ لأن تحاسب رجل من السادة، فهذا أمر سخيف كما تعرف حضرتك، إنك تتعب نفسك فقط، وقد تكون وضعت نفسك في مصيبة أيها المحترم، لقد جئتَ لخدمة القانون، لكنك لن تستطيع تطبيقه، ثلاثون سنة وأنا أذهب خدمةً للقانونن كل شيء يكون على ما يرام في الصيف، فالجو دافئ وجاف، لكن في الشتاء والخريف يكون الشغل متعبًا وأكاد في بعض الأحيان أن أموت غرقًا وأوشك أن أتجمد، لقد رأت عيناي كل المصائب بأنواعها... أخذني الذعران إلى الغابة وسرقوا حقيبتي وضربوني، ومثلت أمام المحكمة القانونية.

- وماذا كانت تهمتك؟

- النصب.

- ماذا تقصد؟

- كما تعرف، قام خريسانف غريغوريف، الموظف، ببيع بعض الألواح المغشوشة للمقاول، ولعب الشيطان بعقلي وشاركت في القصة، وأرسلوني إلى الحانة لشرب الفودكا، نعم، ولم يعطني الموظف حصتي... ولم يدعني لشرب كأس حتى، ومن فقري كنت في مظهر... أعني... ليس بالرجل الذي يمكن الاتكال عليه، وليس بالرجل الذي يساوي أي قيمة، وتم تقديمنا إلى المحاكمة، وأرسل هو للسجن، لكن أنا، والحمد لله!، تمت تبرئتي من كل التهم، وقرأوا الحكم كما تعرف في المحكمة، وكانوا جميعًا في الزي الرسمي... في المحكمة، أعني... ما يمكنني أن أقول لك، أيها المحترم، أن واجباتي تعتبر مصيبة لشخص غير معتاد عليها، موت بكل معنى الكلمة، لكن بالنسبة لي هي لا شيء، والصراحة أن قدمي تؤلمني عندما لا أمشي. والقعود في البيت أسوء لي، ينبغي على الواحد أن يكره المدفأة في البيت لخاطر الموظف الذي في المكتب الريفي، ليجلب الماء له، وينظف حذائه.

وسأل ليجين:

- وكم هو راتبك؟

- أربعة وثمانون روبل في السنة.

- أراهن بأنك تحصل على عائدات صغيرة أخرى، أليس كذلك؟

- عائدات صغيرات أخرى؟ لا أبدًا! السادة نادرًا ما يعطون الاكراميات هذه الأيام، إن السادة في أيامنا صارمون، ويأخذون أي شيء على محمل الإهانة، إذا أحضرت لهم إخطارًا يشعرون بالإهانة، وإذا نزعت قبعتك أمامهم يشعرون بالإهانة، ويقولون: «لقد قرعت الباب الخاطئ، إنك سكير، رائحتك مثل البصل، أنت أحمق وابن عاهرة». بالطبع هناك أناس طيبو القلب، لكن ماذا يمكن للواحد أن

يحصل منهم؟ إنهم يضحكون فقط وينادون الواحد بشتى الألقاب، السيد آلتخين، مثلًا، طلق المحيا، ولو نظرت إليه سترى بأنه رجل واعٍ وفي عقله المتزن، ولكن ما إن يراني حتى يبدأ بالصياح وهو نفسه لا يعرف ما الغرض من ذلك، ويطلق عليّ اسم...

ونطق الشرطي بالاسم ولكن بصوت خافت يستحيل فيه معرفة ما قال.

قال ليجين:

- ماذا؟ قلها مجددًا.

وكرر الشرطي بصوت عالي:

- يا حكومة! كان يصيح عليّ طوال هذه السنين الستّ الماضية: «أهلا، يا حكومة!»، لكنني لا أمانع، دعه وشأنه، أصلحه الله! ترسل سيدة ما أحيانًا كاسًا من الفودكا وبعض الفطائر ويشرب الواحد بصحتها، لكن الفلاحين يكرمونني أكثر، إن الفلاحين طلقو المحيا أكثر، وعندهم خوف من الله في قلوبهم، واحد يعطي القليل من الخبز، والثاني حساء الكرنب، والثالث يتكرم بكأس. وشيوخ القرية يكرمون الواحد بالشاي في الحانة. حيث ذهب الشهود لشرب الشاي، وقالوا لي «لوشادين، ابق هنا وراقب لنا»

وأعطاني كل منهم كوبيكًا، كما ترى، إنهم خائفون، وغير معتادين على ذلك، وبالأمس أعطوني خمسة عشر كوبيكًا وعرضوا عليّ كأسًا.

- وأنت، ألا تخاف؟

- أخاف يا سيدي، بالطبع، ولكن هذا واجبي وليس هناك مهرب، في الصيف حين كان محكومًا عليّ في المدينة كان يهجم عليّ ويضربني! وكل ما حولي هي الحقول والغابات... كيف يمكنني أهرب منه؟ نفس القصة هنا. أتذكر السيد ليسنتسكي عندما كان يشغل منصبا كبيرًا، وكنت أعرف أباه وأمه، فأنا من قرية نيدوشتوكوفا، وعائلة ليسنتسكي لم تكن تبعد عنا ثلاثة أرباع ميل بل أقل من ذلك، كانت أرضهم بجوار أرضنا، وكان للسيد ليسنتسكي أخت طيبة القلب وتتقي الله، يارب ارحم روح عبدتك لوليا واغفر لها! لم تتزوج أبدًا، وعندما كانت تلفظ آخر أنفاسها وزّعت جميع أملاكها تاركة ثلاثمائة فدان للدير، وستمائة لفلاحي نيدوشتوكوفا ليترحموا على روحها، لكن أخاها أخفى الوصية، ويقولون أنه أحرقها في الموقد وأخذ كل أراضيها لنفسه، واعتقد هو، إن لم يخب ظني، بأن ذلك لمصلحته، لكن... كلا، تمهل قليلًا، فلن تملك الدنيا بالظلم يا أخي، وبقي السيد على هذه الحال ولم يعترف إلا بعد مضيّ عشرين سنة، ولم يعد يأتي الكنيسة، وإن لم يخب ظني، فقد مات بلا توبة، لقد فقع، كان رجلًا سمينًا للغاية، لذا انفجر بالطول، وتم أخذ كل شيء من السيد الشاب، من سيرجي، لدفع الديون... كل شيء، أي نعم، ولم يقض وقتًا طويلًا في دراساته، ولم يتمكن من فعل أي شيء، ورئيس مجلس زيمتوف، عمه، قال «سآخذه إلى سيرجي... أعني... أنه يفكر بالوكالة، ليسمح له بجمع التأمين، وهذا ليس بالأمر الصعب، وكان السيد شابًا ومتكبرًا، وأراد أن يعيش على نطاق أوسع أفضل وأكثر

حرية، وإن لم يخب ظني، كان تقليلًا لمكانته أن يرتج في عربته في المنطقة ويتحدث مع الفلاحين، كان يمشي ويبقي عينيه للأسفل، ويحدق في الأرض دون أن يتكلم بشيء، واذا ناديته باسمه في أذنه مباشرة «سيرجي سيرجيتش!» فسيلتفت حوله ويقول «هاه؟» ويحدق في الأرض مرة أخرى، وكما ترى الآن، قد جنى على نفسه، لا يوجد مغزى من ذلك، أيها المحترم، هذا ليس أمرًا صحيحًا، ولا يوجد معنى يدفع لهذه الفعلة، يا رب أنت الرحيم! قل بأن والدك كان غنيًا وأنك فقير، إنه الكبح، لا شك في هذا، لكن عليك أن تتعود عليه، من عادتي أن أكون أنيق المظهر، وأنا يا صاحب المعالي، كان عندي حصانان، وثلاثة أبقار، وكنت أمتلك عشرين رأس غنم، لكن أتى الوقت الذي لم يتبق لي سوى حقيبة بائسة، وحتى تلك ليست ملكي بل ملك الدولة، وفي ضيعتنا نيدوشتوكوفا الآن، إذا كانت الصراحة تقال، فإن بيتي هو أسوء من بيوت الكثيرين، كان عند مايكي أربع خدم، والآن مايكي نفسه خادم، بتراك كان لديه أربعة عمال، والآن أصبح بتراك نفسه عاملًا [٥٥].

وسأل قاضي التحقيق:

- وكيف حدث وأصبحت فقيرًا؟

- أولادي يشربون الكثير من الفودكا، يشربون بفظاعة، لا أستطيع أن أخبرك كيف يشربون، فلن تصدق ذلك.

واستمع ليجين وفكر كيف سيعود عاجلًا أو آجلًا إلى موسكو، في حين أن هذا الرجل العجوز سيبقى هنا إلى الأبد، وسيظل يمشي ويمشي، وكم سيصادف في حياته مثل هؤلاء المسنين المبهدلين والمعتدى عليهم، «رجال ليس لهم أي وزن»، المعلقة نفوسهم بخمسة عشر كوبيكًا، وكؤوس الفودكا، والإيمان العميق أنه لا يمكنك العيش في هذه الحياة بالخيانة، كل ذلك كان مترسخا فيهم بشدة. ثم تعب من الاستماع، وطلب من العجوز أن يحضر له بعض التبن لينام عليه. وقد كان هنالك سرير حديدي مع وسادة ولحاف في غرفة المسافرين، ويمكن جلبه، لكن الرجل الميت كان ينام عليه منذ ثلاثة أيام تقريبًا (وربما كان يجلس عليه قبل وفاته مباشرة) وسيكون من غير المريح النوم عليه الآن...

وفكر ليجين وهو يلقي نظرة على ساعته:

- إنها السابعة والنصف فقط، يا له من أمر فظيع!

لم يكن يراوده النعاس، ولكن ليس عنده ما يقضي وقته به، واستلقل وغطى جسده بلحاف، وكان لوشادين يدخل ويخرج عدة مرات وهو ينظف عدّة الشاي، ويتلمظ بشفتيه ويزفر، وظل يدور حول الطاولة، وفي النهاية حمل سراجه الصغير وخرج، وفكر ليجين وهو يتطلع إلى قامته الطويلة المنحنية من الخلف ورأسه الشائب، «إنه تمامًا مثل ساحر في الأوبرا».

---

[٥٥] الأرجح انه مثل من إحدى الأمثال عن القصص الشعبية الروسية. المترجم

كان الظلام دامس، ولا بد أن القمر مختبئ خلف الغيوم، ويمكن للمرء رؤية النوافذ والثلج الذي على إطاراتها بوضوح.

وهبت العاصفة «فووو!» «فوووو!».

وأتى صوت نحيب امرأة من الدور العلوي، وبدا أنه يقول: _»أيها القديسون!.. أيها القديسون!».

واصطدم شيء من الخارج بالجدار «بووف!»

وأصغى قاضي التحقيق، ولم يكن هناك من امرأة في الأعلى، وإنما هي الرياح تعصف، وصار الجو باردًا بعض الشيء، ووضع معطفه الفروي فوق اللحاف، وعندما بدأ يشعر بالدفء، ذهب يفكر كم هو بعيد كل مايحدث... العاصفة، والكوخ، والرجل العجوز، والجثة الممددة في الغرفة المجاورة... كم هو بعيد كل شيء عن الحياة التي كان يتوق إليها، وكم كل شيء غريب عليه، وتافه، ورتيب. لو كان هذا الرجل قد قتل نفسه في موسكو أو في مكان آخر ما في الجوار، وكان عليه أن يتولى التحقيق هناك، فسيكون الأمر ممتعًا، ومهمًا، ولربما لن يكون خائفًا من النوم في الغرفة المجاورة للجثة حتى، لكن هنا على بعد حوالي ألف ميل عن موسكو، كل شيء يبدو مختلفًا بطريقة أو بأخرى، وليس هناك من حياة ولا بشر، بل شيء واحد موجود فقط وهو «تطبيق القانون» كما قال لوشادين، ولن يترك الأمر أدنى أثر في الذاكرة، وسيتم نسيانه بمجرد أن يسافر ليجين بعيدًا عن سيرنيا. إن الوطن، روسيا الحقيقية، هما موسكو، بطرسبرغ، لكنه هنا في المقاطعات، والمستعمرات، حيث يحلم المرء بلعب دور القيادي، وفي أن يصبح شخصية شعبية، أو أن يكون على سبيل المثال قاضي تحقيق في قضايا مهمة أو مدعيا عاما في ساحة المحكمة، بأن يكون سيد المجتمع، إن المرء دائمًا ما يفكر في موسكو، ولأجل العيش، ينبغي على المرء أن يكون في موسكو، فهنا لا أحد يهتم بأي شيء، ويستسلم المرء بسهولة إلى وضعه التافه، ولا يتوقع إلا شيء واحد من الحياة... وهو أن يهرع بسرعة وسرعة. وركض ليجين بعقله في شوارع موسكو، وذهب إلى منازل مألوفة، والتقى بأقاربه، ورفاقه، وشعر بوخزة لطيفة في قلبه عندما تذكر أنه في السادسة والعشرين من العمر فقط، وأنه ما إذا أمكنه في خمس أو عشر سنوات أن يترك الوظيفة هنا ويسافر إلى موسكو، حتى ولو كان متأخرًا، فستبقى أمامه حياة بأكملها، وبينما هو غارق في تخيلاته وأفكاره بدأ يتشوش، وتخيل الممر الطويل للمحكمة في موسكو وهو يلقي خطابًا، وتخيل أخواته...

وظلت الأوركسترا تدندن لسبب ما:

«فووو!» «فوووو!».

وعاد الصوت مجددًا، «بووم!» «بووف!» «بووم!».

وتذكر فجأة كيف أنه كان ذات يوم يتحدث مع المحاسب في المكتب التابع لمجلس زيمنتوف، ورأى رجلًا نحيلًا، شاحبًا، ذا شعر أسود وعينين داكنتين يخطو في المكتب، كانت له نظرة كريهة في عينيه

كالتي يراها المرء في عيون الناس النيام طويلًا بعد الغداء، وقد أفسد ذلك مكانته الرفيعة والحساسة، ولم تكن الأحذية العالية التي كان يرتديها مناسبة، بل بدت بشكل أرعن، وقد قدمه المحاسب قائلًا:

- «هذا هو وكيل زيمتوف في مقاطعتنا».

وفكر ليجين:

- «إذن ذاك الرجل كان هو ليسنتسكي... نفس الرجل.»

وتذكر نبرة ليسنتسكي الهادئة، وتخيل مشيته، وخيّل إليه بأن شخصًا ما كان يسير بجواره الآن ويخطو مثل ليسنتسكي.

وشعر بالخوف بغتة، وتجمد الدم في رأسه.

وسأل في ذعر:

- من هناك؟

- الشورطي!

- ماذا تريد من هنا؟

- جئت لأسألك يا صاحب المعالي... لقد قلت هذا المساء أنك لا تريد الرقيب، لكنني أخشى أن يغضب، فقد طلب مني أن أذهب إليه، ألا يجدر بي أن أذهب؟

وقال ليجين منزعجًا:

- كفى، أنت تزعجني...

وغطّى نفسه مرة أخرى.

- ربما يغضب... سأذهب يا صاحب المعالي، وأتمنى أن تنعم بالراحة.

وخرج لوشادين.

واعتلى سعال وأصوات خافتة في الرواق، لا بد أنهم الشهود قد عادوا.

وفكر قاضي التحقيق:

- «سنسمح لأولئك الشحاذين الفقراء أن يذهبوا باكرًا ويعودوا في اليوم التالي.. سنبدأ التشريح بمجرد بزوغ الفجر».

وغرق في السهو قبل أن يعتلي وقع خطوات على حين فجأة مجددًا، ولم تكن خجولة هذه المرة، بل سريعة وصاخبة. وارتفع طرق على الباب، وأصوات، وخدش أعواد ثقاب.

- هل أنت نائم؟ هل أنت نائم؟

كان الطبيب ستراتشنكو يصيح بغضب ويشعل عود ثقاب تلو الآخر، وكان مغطى بالثلج، وجلب معه نفحة من الرياح الباردة.

- هل أنت نائم؟، انهض! لنذهب إلى فون تونيتز، لقد أرسل خيوله من أجلك، هيا انهض، سيكون هناك عشاء ونوم مثل البشر على أي حال، كما ترى فقد جئت من أجلك بنفسي، إن الخيول رائعة، سنصل إلى هناك في عشرين دقيقة.

- كم الساعة الآن؟

- الحادية عشرة إلا الربع.

وارتدى ليجين الناعس والساخط حذائه، ووضع معطفه الفروي وقبعته وقلنسوته، وخرج مع الطبيب، لم يكن الجو شديد البرودة، لكن الرياح كانت عنيفة وحادة وتهب حاملة معها السحب الثلجية التي بدت وكأنها تتسابق بذعر، وتكدست كتل الثلج العالية تحت الأسوار وأمام عتبات المنازل، وصعد الطبيب وقاضي التحقيق على الزلاجة، وانحنى الحوذي الأبيض تحتهما لربط المصد، وكان كلاهما يشعر بالدفء.

- جاهزون!

وانطلقوا عبر القرية «قطعًا بالأخدود الريشي» [٥٦]، وفكر قاضي التحقيق وهو يراقب بتراخٍ ما ترسمه الآثار التي تتركها أرجل الحصان، كانت جميع الأكواخ مضاءة، كما لو أنه عشية عطلة عظيمة، فلم يذهب الفلاحون إلى الفراش لأنهم خائفون من الجثة، وحافظ الحوذي على صمته المتجهم، ربما لأنه شعر بالضجر أثناء انتظاره عند كوخ زيمتوف، وهو الآن يفكر في الرجل الميت أيضًا.

قال ستراتشينكو:

- لقد وبخني الجميع عند بيت فون تونيتز حين سمعوا بأنك بقيت لتقضي الليلة وحدك في الكوخ، وسألوني لماذا لم أحضرك معي.

وعلى مشارف القرية، صاح الحوذي فجأة بأعلى صوته عند المنعطف:

---

[٥٦] من الرواية الشعرية الروسية الشهيرة «يفغيني اونيغين» الفصل الخامس، المقطع الثاني. المترجم

- ابتعد عن الطريق!

وأخذوا نظرة خاطفة على رجل واقف على ركبتيه في الثلج، ثم أخذ يبتعد عن الطريق ويحدق في الخيول. ورأى قاضي التحقيق رجلا أزعر ذا لحية ويحمل مع عصاة حقيبة، وخيّل له أنه لوشادين، وخمّن أنه يبتسم، ثم مر كالبرق واختفى.

وقادوا الطريق في البداية على طرف الغابة، ثم داخل الغابة عبر مساحة واسعة مقطوعة أشجارها، ووقعت أنظارهم على أشجار الصنوبر المتهدمة وأجمة من البتولا الصغيرة، وأشجار البلوط الفتية المعقدة غصونها والتي تقف منفردة حيث تم قطع الأشجار مؤخرًا، ولكن سرعان ما اختلط كل شيء مع الغيوم الثلجية، قال الحوذي أن بإمكانه أن يرى الغابة، أما قاضي التحقيق فلم يستطع رؤية شيء سوى آثار الحصان، وهبت الرياح خلف ظهورهم.

وتوقفت الخيول على حين فجأة.

وسأل ستراتشينكو صارخًا:

- حسنًا، ماذا هنالك الآن؟

ونزل الحوذي من مقعده دون أن ينطق بكلمة وبدأ يدور حول الزلاجة، ويدوس بكعب حذائه وهو يصنع دوائر أكبر فأكبر، ثم ابتعد عن الزلاجة أكثر فأكثر، وبدا الأمر وكأنه يرقص، وأخيرًا عاد وانعطف نحو اليمين.

وسأل ستراتشينكو:

- خرجت عن الطريق، هاه؟

- كل شيء على ما يرام...

وبعد ذلك وصلوا إلى قرية صغيرة ليس فيها من ضوء واحد، ثم ظهرت لهم الغابة والحقول ثانية، وتاهوا عن الطريق مجددًا، وينزل الحوذي مرة أخرى من مقعده ويرقص حول الزلاجة.، وانطلقت الزلاجة على طريق رئيسي مظلم، ومضت فيه بسرعة، وارتطمت حوافر الحصان الدافئ بالزلاجة، واعتلى هنا صوت حفيف مرعب من الأشجار، ولم يكن بالإمكان رؤية شيء، كما لو أن الزلاجة تطير في الهاوية، وعلى الفور ومض الضوء الساطع للمدخل والنوافذ على عيونهم، وسمعوا نباح الكلاب اللطيف... وها قد وصلوا.

وبينما كانوا يخلعون معاطفهم الفروية وأحذية اللباد، كانت معزوفة «كأس صغير من الكليكوه» [٥٧] تعزف على البيانو من الطابق العلوي، وسمعوا صوت الأطفال وهم يضربون الأرضية بأقدامهم مع

---

[٥٧] بالفرنسية في الأصل، وهي معزوفة من رقص الفالس الجماعي. المترجم

العزف. وشعروا على الفور بالركن الدافئ والرائحة المميزة للغرف القديمة في القصور، حيث تكون الحياة دافئة للغاية ونظيفة ومريحة مهما كان الطقس في الخارج.

وقال فون تويتنز، وكان رجلًا سمينًا برقبة سميكة بشكل لا

يصدق وسوالف، مصافحًا بيده مع المحقق:

- عظيم! عظيم! أهلا وسهلًا بك، مسرور بالتعرف عليك. فنحن زملاء إلى حد ما، فكما تعلم، كنت ذات مرة أشغل منصب نائب المدعي العام، ولكن ليس لفترة طويلة، عامان فقط، وجئت إلى هنا لأعتني بالعذبة، وها قد صرت عجوزًا... عجوز ممل في الواقع، يا مرحبًا بك...

وواصل كلامه، وكان فيما يبدو يقيّد صوته كي لا يتكلم بنبرة عالية، وقال وهو يصعد مع ضيوفه إلى الطابق العلوي:

- ليس عندي زوجة، لقد توفيت، لكن سأعرفك على بناتي.

والتفت وصرخ أسفل الدرج بصوت كالرعد:

- قل لإيغان أن يجهز الزلاجة عند الثامنة صباح الغد.

كانت بناته الأربع فتيات صغيرات وحِسان، وجميعهن يرتدين فساتين رمادية ومضفّرن شعرهن بنفس الشكل، وكانت ابنة عمهن شابة وجذابة أيضًا، وكانت مع أولادها في غرفة الجلوس.

وبدأ ستراتشينكو الذي كان يعرفهم بالفعل يترجاهن أن يغنين شيئا ما، وأمضت اثنتان من السيدات الشابات وقتًا طويلًا في التبرير بعدم قدرتهن على الغناء وعن عدم وجود موسيقى، ثم جلست ابنة عمهن على البيانو، وبأصوات مرتجفة، غنت الاثنتان «ملكة البستوني» [٥٨] ثم عزفت «كأس صغير من الكليكوه» مرة أخرى، وقفز الأطفال حولهم، وضربوا بأقدامهم مع المعزوفة، وتبختر ستراتشينكو حولهم أيضًا، وضحك الجميع.

ثم قال الأطفال: «ليلة سعيدة» ومضوا إلى الفراش، أما قاضي التحقيق فضحك، ورقص الكوادريل، وغازل، واستمر في التساؤل ما إذا لم يكن كل هذا حلمًا؟ المطبخ في كوخ زميتوف، كومة القش في الزاوية، حفيف الخنافس، البيئة المحيطة المنكوبة بالفقر، أصوات الشهود، الرياح، العاصفة الثلجية، خطر الضياع، ثم على الفور هذه الغرفة الرائعة المضاءة بألوان زاهية، وأصوات البيانو، والفتيات الحسان، والأطفال ذوي الشعر المجعد، والضحك الغريب والمبهج؛ لقد بدا هذا التحول وكأنه قصة خرافية، وبدا أنه أمر لا يصدق أن تحدث مثل هذه التحولات على مسافة ميلين خلال ساعة واحدة،

---

[٥٨] أوبيرا قام بتأليفها الملحن تشايكوفسكي المستندة على قصة ملكة البستوني للشاعر والكاتب ألكسندر بوشكين.المترجم

وأن الأفكار الكئيبة هي من منعته من إمتاع نفسه، واستمر في التفكير بأن هذا المكان ليس الحياة، بل فتات من شظايا الحياة، وأن كل شيء هنا عرضي، وأنه لا يمكن لأحد استخلاص أي مآل منه، وشعر بالأسف تجاه تلك الفتيات، اللاتي يعشن وتفنى حياتهن في البرية، في مقاطعة بعيدة عن مركز الثقافة، حيث ليس هناك من شيء عرضي، وإنما كل شيء يتوافق مع العقل والقانون، وحيث يكون على سبيل المثال، سببًا واضحًا لكل عملية انتحار، ويمكن للمرء أن يشرح لماذا حدثت، وما هي أهميتها إذا تم أخذ كل شيء بعين الاعتبار، وتخيل أنه إذا كانت الحياة المحيطة به هنا في البرية غير مفهومة له، وإذا لم يرها، فهذا يعني أنها لم تكن موجودة على الإطلاق.

وعند العشاء، تحول الحديث حول ليسنتسكي، وقال ستراتشينكو:

- لقد ترك وراءه زوجة وطفلا، كم أود أن أمنع مرضى الأعصاب وكل الناس الواهنين من الزواج، وأحرمهم من الحق في مضاعفة نسلهم، إن جلب الأطفال المرضى بالأعصاب والعاجزين إلى الدنيا جريمة.

وقال فون تونيتز وهو يتنهد بلطف ويهز رأسه:

- شاب يحزن عليه، يجدر على المرء أن يعاني ويفكر قبل أن يأتي ويقضي على حياته... الحياة الشابة! مثل هذه المحنة قد تحدث عند أي عائلة، وهذا أمر فظيع، من الصعب تحمل مثل هذا الأمر، إنه لا يطاق...

وكانت الفتيات جميعهن يستمعن بصمت وبوجوه مشحوبة، ويتطلعن إلى والدهن، وشعر ليجين أنه ينبغي عليه أن يقول شيئًا أيضًا، لكنه لم يستطع التفكير بأي شيء، وقال فقط:

- نعم... الانتحار ظاهرة سيئة.

ونام في غرفة دافئة، على سرير ناعم ومغطى بلحاف ذو أغطية جيدة نظيفة، لكن لسبب ما لم يكن يشعر بالراحة، ربما لأن الطبيب وفون تونيتز كانا يتحدثان في الغرفة لفترة طويلة، وسمع فوق صوتهما هبوب الريح عبر السقف والموقد، وكان العصف تمامًا كما في كوخ زيمتوف، ويصيح بعويل حزين: «فوو وو وو!».

لقد توفيت زوجة فون تونيتز قبل عامين، ولا زال غير قادر أن يتأقلم بنفسه مع ما قد فقده، وكان دومًا ما يذكر زوجته في كل موضوع يتحدث عنه،، ولم يكن هناك من أثر لمنصب وكيل نيابة قد تركه.

وفكر ليجين وهو يستسلم للنوم ولا يزال يسمع صوت مضيفه الحزين يأتي عبر الحائط، كما لو أنه صوت إنسان مفجوع:

- «هل من الممكن أن أصل يومًا لما أنا عليه»

لم ينم قاضي التحقيق بسلام، فقد شعر بالحر والانزعاج، وخيّل له في نومه أنه لم يكن عند فون تونيتز، ولا فوق سرير نظيف ناعم، وإنما لا زال فوق القش في كوخ زميتوف، ويسمع أصوات الشهود المستكينة، وتراءى له أن ليسنتسكي يرقد بالقرب منه وليس على بعد خمسة عشر خطوة، ورأى في أحلامه كيف دخل وكيل التأمين، ذا الشعر الأسود والباهت، وهو يرتدي أحذية طويلة مغبرة إلى مكتب المحاسب:

- «هذا هو وكيل التأمين في منطقتنا...»

ثم رأى في حلمه ليسنتسكي ولوشادين الشرطي وهما يتمشيان على طول الريف الخاوي فوق الثلج جنبًا إلى جنب، ويؤازر كل منهما الآخر، والثلج يلتف حول رأسيهما، وتهب الرياح على ظهورهما، لكنهما سارا وهما يغنيان:

- «نحن نعمل، ونعمل، ونعمل...».

وكان الرجل العجوز يشبه ساحر الأوبرا، وكان كلاهما يغني كما لو أنه يقف على خشبة المسرح «نحن نعمل، ونعمل، ونعمل!.. وأنت تنعم بالدفء، في الضوء والراحة، ونحن نمشي في الصقيع والعاصفة، عبر الثلج السحيق... لا نعرف شيئًا عن الراحة، ولا نعرف شيئًا عن البهجة... نتحمل كل أعباء هذه الدنيا، دنياك ودنيانا... هوو هوو هوو! نحن نعمل، ونعمل، ونعمل...»

واستيقظ ليجين وجلس على السرير. يا له من كابوس مبهم وسيء! ولماذا يحلم بالشرطي والوكيل معًا؟ يا لها من سخافة! والآن بينما يخفق قلب ليجين بعنف وهو جالس على السرير وممسكًا برأسه بين يديه، بدا له أن هناك بالفعل شيء مشترك بين حياتي الوكيل والشرطي، ألا يذهبان بالفعل جنبًا إلى جنب ويساند بعضهما البعض؟ إن بعض العلاقات غير مرئية، لكنها مهمة وضرورية، وموجودة بين هؤلاء، بل حتى بينهم وبين فون تونيتز وبين كل الرجال... كلهم. ليس هناك في هذه الحياة، حتى في الصحراء النائية، من شيء عرضي، وكل شيء ينبع من فكرة واحدة مشتركة، كل شيء له روح واحدة، هدف واحد، وإن التفكير لا يكفي لفهم ذلك، إن العقل لا يكفي، يجب على المرء، على ما يبدو، أن يمتلك هبة البصيرة النفاذة للحياة أيضًا، هبة من الواضح أنها لم تُمنح على الإطلاق. ووحده الرجل التعيس الذي انهار وقتل نفسه... «المريض بالوهن العصبي» كما وصفه الطبيب... والفلاح العجوز الذي قضى كل يوم من حياته يتنقل من رجل لآخر، هما الأمر العرضي، مجرد فتات من الحياة لإنسان ظن بأن حياته أمر عرضي، ولكنها فتات من حياة كائن رائع وعقلاني، كائن اعتقد أن حياته جزءٌ من هذا الكون برمته وأنه فهمه.

هكذا فكر ليجين، وكانت فكرة مخبئة في نفسه منذ فترة طويلة، والآن فقط قد كشف عنها على نطاق واسع وواضح لوعيه.

واستلقى وبدأ يستسلم للنوم، ومرة أخرى يتمشيان معًا وهما يغنيان «نحن نعمل، ونعمل، ونعمل... ونأخذ من الحياة ما هو أشقاها وأمرّها، ونترك لك ما هو سهل وبهيج، والجلوس على العشاء، ويمكنك النقاش ببرودة وعقلانية لماذا نعاني، ولماذا لسنا كاملين وراضين مثلك».

وخطر على باله ما كانا يغنيانه من قبل، لكن الفكرة كانت في مكان ما وراء أفكاره الأخرى، وتومض على استحياء مثل ضوء بعيد في الضباب. وشعر أن هذا الانتحار ومعاناة الفلاحين يقعان على عاتقه أيضًا، أن يستسلم لحقيقة أن على هؤلاء الناس الخانعين لقدرهم أن يتحملوا عبء ما هو أشقى وأغم ما في الحياة... يا له من أمر فظيع أن يتقبّل هذا! ويتوق هو لحياة يملأها النور والحركة بين الناس السعداء والمرتاحين، وأن يظل يحلم على الدوام بمثل هذا، يحلم بالانتحارات الجديدة للرجال المسحوقين من العناء والقلق، أو بالرجال الضعفاء والمنبوذين الذين يتحدث الناس عنهم أحيانًا وقت العشاء فقط على نحو منزعج وساخر، دون السعي لمساعدتهم... ومرة أخرى «نحن نعمل، ونعمل...» كما لو أن شخصًا ما يضرب بمطرقة على صدغيه.

واستيقظ في الصباح الباكر وهو مصدوع الرأس، وأفاق على الضوضاء التي في الغرفة المجاورة حيث كان فون تونيتز يقول للطبيب بصوت عال:

- من المستحيل أن تذهبا الآن، انظر ما يحدث في الخارج، لا تجادل، إن من الأفضل أن تسأل الحوذي، فهو لن يأخذك في مثل هذا الطقس ولو بمليون.

وقال الطبيب بنبرة متوسلة:

- إن المكان على بعد ميلين فقط.

- حسنًا، ولو على بعد نصف ميل فقط، إذا كنت لا تستطيع، فإنك إذن لا تستطيع، إن القيادة خارج البوابات مباشرة جحيم حقيقي، وستخرج عن مسار الطريق في غضون دقيقة، لا شيء يدفعني بأن أدعك تذهب، تكلم ما يحلو لك.

وقال الفلاح الذي كان يشعل الموقد:

- لابد أن العاصفة ستهدأ بحلول المساء.

وبدأ الطبيب في الغرفة المجاورة بالتحدث عن المناخ القاسي وتأثيره على الإنسان الروسي، والشتاء الطويل الذي يمنع التنقل من مكان لآخر، ويعيق التطور الفكري للناس. وأنصت ليجين إلى هذا الحديث بانزعاج وتطلع من النافذة إلى أكوام الثلج المكدسة على السياج، وحدّق في الغبار الأبيض الذي غطى كل امتداد بصري، وفي الأشجار التي انحنت رؤوسها بيأس نحو اليمين ثم الشمال، وأصغى إلى العصف والهبوب، وشرع بالتفكير على نحو كئيب:

- «حسنًا، ما المغزى الذي يمكن أخذه من هذا؟ إنها عاصفة ثلجية وهذا كل ما في الأمر».

وعند منتصف النهار تناولوا الغداء، ثم تجولوا حول المنزل بلا هدف، وذهبوا صوب النوافذ.

- وفكر ليجين وهو يتأمل الثلج الذي سرعان ما يلتف ويدور على الأكوام: «وليسنتسكي ممدد هناك، إنه ممدد هناك والشهود ينتظرون...».

وتحدثوا عن الطقس، قائلين بأن العاصفة الثلجية عادة ما تنتهي في يومين، ونادرًا ما تكون أطول، وعند الساعة السادسة تناولوا الغداء، ثم لعبوا الورق، وغنوا، ورقصوا، وفي النهاية تناولوا العشاء. وانتهى اليوم، وذهبوا إلى الفراش.

وفي الليل، وعلى مقربة من الصباح، هدأ كل شيء، وعندما نهضوا ونظروا من النافذة، كانت أشجار الصفصاف العارية وأغصانها الضعيفة المتدلية تقف بسكون تام، وكانت باهتة مثلما كانت، كأن الطبيعة أصبحت تخجل الآن من عربدتها، من الليالي المجنونة، ومن الحرية التي منحتها لعواطفها. وكانت الخيول، التي سرجت بترادف تنتظر عند الباب الأمامي منذ الخامسة صباحا، وحين طلع الضوء بشكل تام، ارتدى الطبيب وقاضي التحقيق معطفيهما ذوي الفرو وأحذيتهما وودعا مضيفهما، وخرجا.

وعلى بعد خطوات بجانب الحوذي وقف شرطي مألوف القامة، وكان ايليا لوشادين يحمل حقيبة جلدية قديمة على كتفه ودون قبعة على راسه، ومغطى بالثلج من كل مكان، ووجهه أحمر ومتعرق، وتطلع الخادم الذي خرج لمساعدة السادة بازدراء وقال:

- ما الذي تفعله هنا أيها الشيطان العجوز؟ ابتعد!

وقال لوشادين وهو يبتسم بسذاجة بكل وجهه، ومن الواضح أنه سرَّ برؤية الأشخاص الذي أراد أن يراهما منذ فترة طويلة:

- يا أصحاب المعالي، إن الناس قلقون، إنهم مضطربون للغاية، والأطفال يبكون... لقد ظنوا، أيها المحترمون، أنكم عدتم إلى المدينة ثانية، أظهروا لنا الرحمة السماوية أيها المحسنون!

ولم يقل الطبيب وقاضي التحقيق أي شيء، وصعدا على الزلاجة، واتجها إلى سيرنيا.

تجار المواشي [٥٩]

ظل قطار البضائع الطويل واقفًا لساعات عند المحطة الصغيرة، وكانت القاطرة ساكنة كما لو أن نار محركها قد أخمدت، ولم يكن هناك من روح بجوار القطار أو في ساحة المحطة.

خط ضوء شاحب يأتي من إحدى العربات وينساب عبر سكك القطار التي على جانب الطريق. وفي تلك العربة يجلس رجلان على عباءة ممدودة. الأول رجل طاعن في السن، بلحية بيضاء طويلة، يرتدي معطفًا من الجلد ويضع قبعة عالية من جلد الخاروف، تشبه إلى حد ما قبعة الجنود البريطانيين. أما الآخر فشاب أمرد يلبس سترة من القماش المهترئ وجزمة ملطخة بالطين، إنهما من التجار. العجوز يمدد ساقيه أمامه ويتأمل في صمت، أما الشاب فمضطجع بنصف جسمه ويداعب الأكورديون الرخيص بهدوء. والفانوس مركون على الحائط بالقرب منهما وبداخله شمعة من الشحم.

كانت المقطورة ممتلئة تمامًا، وما إن يلقي المرء نظرة على الظل المنبعث عبر الفانوس، فسيأخذ انطباعًا من الوهلة الأولى عن شيء بشع وعديم الشكل، لكنه لا يزال على قيد الحياة بلا شك، شيء يشبه إلى حد كبير سلطعونات البحر العملاقة التي تحرك مخالبها ومجساتها، وتتدافع مع بعضها، وتتسلق الجدران نحو السقف بصمت.

لكن لو نظر المرء عن كثب فسيرى القرون وظلالها، الظهور النحيلة الطويلة، الجلود القذرة، الذيول، والعيون التي تلمع في الغسق.

إنها العجول وظلالها. حيث يوجد ثمانية منها في العربة، بعضهم يلتفتون ويحدقون بالرجال وهم يؤرجحون ذيولهم، والبعض الآخر يحاول الوقوف أو التمدد براحة أكثر. إنهم متكدسون، وإذا كان على أحدهم التمدد كان على الآخر الوقوف والتجمع قرب بعضهم. وليس هناك من معلف، ولا أرسان، ولا دلو للفضلات، ولا أي خصلة ممدودة من القش....

بعد سكون طويل، يسحب الرجل العجوز ساعة فضية من جيبه وينظر إلى الوقت. وكانت الثانية والربع بعد منتصف الليل.

ثم يقول بتثاءب:

- نحن هنا منذ حوالي ساعتين، الأحسن أن نقوم ونحركهم، فقد نبقى هنا حتى الصباح، لقد ذهبوا للنوم والله أعلم ما الذي يعتزمون فعله.

وينهض العجوز ويتبعه ظله الطويل، وينزل بحذر من العربة في الظلام. ويشق طريقه بجانب القطار صوب القاطرة، وبعد أن عبر نحو عشرين عربة تقع عينه على موقد أحمر مفتوح وجسد بشري

---

[٥٩] نشرت القصة لأول مرة في الحادي والثلاثين من أكتوبر عام ١٨٨٧ في صحيفة «الزمن الجديد» بعنوان «بدم بارد» «ХОЛОДНАЯ КРОВЬ» موقعة باسم «أن. تشيخوف» المترجم.

يجلس مقابله دون حراك. وأضاءت حافة القبعة، والأنف، والركبتان من وهج النار الأحمر، وكل ما تبقى كان أسودًا وبالكاد يمكن تمييزه في الظلام.

ويسأل العجوز:

- هل سنبقى هنا أطول؟

ولم يأته جواب. من الواضح أن الجسد الساكن يغط في نوم عميق. ويسعل العجوز بتبرم وينكمش بجسده من الرطوبة الحادة، ويتمشى حول القاطرة، وبينما هو يمشي يعمي الضوء اللامع لمصباحي القاطرة عينيه لوهلة ويجعل الليل أكثر قتامة عليه، ثم يشرع بالذهاب إلى المحطة.

كان الرصيف ودرجات المحطة رطبين. وندف الثلج الأبيض المنعش الذائب المتساقط مؤخرًا يتناثر هنا وهناك. أما داخل المحطة نفسها، فكان الجو مضاءً ودافئًا مثل حمام البخار. ورائحة الشمع تفوح في الهواء. وباستثناء الميزان والمقعد الأصفر الذي ينام عليه الرجل الذي يرتدي بدلة الحارس، فلم يكن هناك وجود للأثاث في المكان على الإطلاق. وعلى الجهة اليسرى بابان مفتوحان على مصراعيهما، ومن أحد الأبواب ظهرت معدات جهاز التلغراف ومصباح ينبثق منه ظل أخضر. وعبر الباب الآخر، بانت غرفة صغيرة تأكل نصف مساحتها خزانة قاتمة، وفي هذه الغرفة يجلس رئيس الحرس وسائق المقطورة على حافة النافذة، ويمسكان بقبعة بكلتا أصابعهما ويتجادلان.

ويقول السائق:

- هذه ليست مصنوعة من قندس حقيقي، إنها بولندية، فالقبعة الأصلية ليست بهذا الشكل. خمسة روبيلات بالكثير هو سعر القبعة كلها، إن كان يهمك أن تعرف!

ويقول رئيس الحرس مستاءً:

- تعرف الكثير عن ذلك!... خمسة روبلات بالفعل! هذا هو، سنسأل التاجر.

ثم يقول وهو يخاطب العجوز:

- أعطينا رأيك سيد مالخين، هل هذه بولندية أم أصلية؟

ويأخذ مالخين العجوز القبعة في يده، ويحدق فيها بنظرات رجل خبير، ويقرص الفرو، وينفخ عليه، ويشمه، وتضيء ابتسامة مزدرءة وجهه الغاضب.

ويقول مبتهجًا:

- لا بد أن تكون بولندية! هكذا هي القبعات البولندية.

واستمر الجدال. ورئيس الحرس يؤكد أن القبعة مصنوعة من قندس حقيقي، أما السائق ومالخين فيحاولون إقناعه بأنها بولندية. وفي منتصف المجادلة يتذكر العجوز فجأة سبب مجيئه. ويقول:

- القندس والقبعة على ما يرام، لكن القطار واقف ياجماعة، من ننتظر؟ دعونا نتحرك!

ويوافق رئيس الحرس على كلامه:

- دعونا نتحرك.. سندخن سيجارة أخرى ونسير. لكن لا داعي أن نستعجل.. سنتأخر في المحطة التالية على أي حال!

- لماذا سنتأخر؟

- أوه، طيب... لقد فاتنا الوقت كثيرًا... وإذا تأخرت في إحدى المحطات فلا يمكنك أن تتأخر في المحطات الأخرى لتسمح لباقي القطارات بالعبور في الاتجاه المعاكس. وسواء انطلقنا الآن أو في الصباح فلن نكون في الرقم الرابع عشر. سنكون بالرقم ثلاثة وعشرين.

- وكيف ستفعلون ذلك؟

- طيب، هكذا.

ويتطلع مالخين إلى رئيس الحرس، ويتمتم آليًا كما لو كان رغمًا عنه:

- أنت العليم يارب، لقد ضيعنا أربعة وثلاثين ساعة من الوقوف بلا حراك في الرحلة، لقد حسبت الأمر وقمت بتدوينه على الدفتر. وإذا بقينا على هذا النحو، فإن العجول ستموت، أو لن يدفع لي روبلين على كيلو اللحم حين أصل إلى هناك. هذا ليس سفرًا بل عذابًا!

ويرفع الحارس حاجبيه ويتنهد كالذي يريد أن يقول «كل هذا صحيح لسوء الحظ!». ويجلس سائق القاطرة بصمت، وينظر بإكتئاب إلى القبعة. ويمكن للمرء من وجههما أن يرى أن هناك سرًا مشتركًا بينهما، سر لا ينطقان به، ليس لأنهما يريدان إخفاءه، بل لأن مثل هذه الأفكار يعبّر عنها بالتلميحات أفضل من الكلمات. وكان العجوز يفهم الحكاية. وأخذ يتحسس جيبه، ويخرج ورقة من فئة العشرة روبل، وبدون أي ديباجة أو تغيير في نبرة صوته أو تعابير وجهه، بل بالثقة والصراحة التي على الأغلب أن الروس فقط من يعطي ويأخذ الرشاوي فيها، ويعطي الورقة لرئيس الحرس. ويأخذها الأخير، ويطويها أربع طيات ويضعها دون عجلة لا داعي لها في جيبه. ثم يخرج الثلاثة من الغرفة، ويوقظون الحارس النائم على الطريق، ويمضون نحو الرصيف.

ويتذمر رئيس الحرس ويهز كتفيه:

- يا له من طقس! ليس بإمكانك رؤية يدك التي أمام وجهك!

- أي نعم، طقس رديء.

ومن النافذة كان بالإمكان رؤية الرأس ذو الشعر الكتاني لكاتب التلغراف وهو جالس بجانب المصباح الأخضر وجهاز التلغراف، ويظهر بعد حين بجواره رأس آخر ملتحي ويضع قبعة حمراء.. كان هذا

بلا شك هو مدير المحطة.وينحني مدير المحطة على الطاولة، ويقرأ شيئًا ما من استمارة زرقاء، ويمرر سيجارته بسرعة على طول السطور.... ويذهب مالخين إلى عربته.

أما الشاب، مرافقه، فما يزال نصف مضطجع ويداعب الأوكوردين الذي بالكاد يسمع صوته. إنه أكبر بقليل من كونه ولدًا، ولم يطر شاربه، وكل قسمات وجهه الأبيض ذو الوجنتين العريضتين حالمة طفولية، وكأن في عينيه كآبة ونظرة هادئة لا تشبه نظرة شخص بالغ، لكنه كان عريض المنكبين، قوي البنية، ثقيل، وخشن مثل العجوز. ولم يتحرك أو يغير مكانه، كما لو أنه لا ينبغي تحريك جسده الكبير، ويبدو أن أي حركة يقوم بها ستمزق ملابسه وتحدث ضوضاء تخيفه هو والعجول. ومن تحت أصابعه الضخمة والكبيرة التي تعزف على مفاتيح الأكورديون بخشونة تنبعث طنطنة ثابتة خفيفة، وتتجانس في لحن بسيط ورتيب، ويصغي هو إليها، ومن الواضح أنه كان مبتهجًا كثيرًا من أدائه.

ويُقرع الجرس، لكن برنة مكتومة تبدو أنها أتت من مكان بعيد. وسرعان ما تبع الصوت رنة أخرى مسرعة، ثم الثالثة مع صوت صفارة الحارس. ومرت دقيقة في صمت عميق، والعربة لا تتحرك، بل ما زالت واقفة، لكن أصوات مبهمة بدأت تأتي من تحتها، مثل صوت هرس الثلج بحواف زلاجة، وتبدأ العربة بالاهتزاز وتتوقف الأصوات، ويسود الصمت ثانية. ثم يأتي صليل مصدات القطار، وتتحرك المقطورة من هول الصدمة العنيفة، وتترنح إلى الأمام، وتقع كل العجول فوق بعضها البعض.

ويتذمر العجوز وهو يسوي قبعته التي انزلقت من رأسه من وقع الضربة:

- إن شاء الله تضرب بنفس الضربة يوم القيامة. سيسبب إعاقة للعجول بعملته!

وينهض ياشا [٦٠] دون أن ينطق بكلمة، ويمسك بأحد العجول الواقعة من قرونه، ويساعده بالنهوض على ساقيه.... وتلى الارتجاج السكون ثانية. ثم صوت سحق الثلج يأتي من تحت العربة مجددًا، ويبدو أن القطار قد تحرك للخلف قليلًا.

ويقول العجوز:

- سيضرب مرة أخرى خلال دقيقة.

وتهتز العربة بتشنج فعلًا، ويصدع الاهتزاز على طول القطار، ثم يسمع صوت ارتطام، وتقع العجول فوق بعضها مرة أخرى.

ويقول ياشا وهو يستمع:

- يا لها من حكاية! ينبغي أن يكون القطار متينًا. وأن لا يتحرك بأي شكل من الأشكال.

---

[٦٠] تدليل لاسم «ياكوف». المترجم

- لم يكن متينًا من قبل، لكنه أصبح متينًا الآن فجأة، لا يا ولدي، إن الحارس لم يعطيه من البقشيش على ما أظن، اذهب وأعطه شيئًا وإلا سيظل يهتز بنا حتى الصباح.

ويأخذ ياشا ورقة من فئة الثلاثة روبل من العجوز ويقفز من العربة. ويُحدث وقع الأقدام البليدة والثقلية دويًا خارج العربة ثم يخفت شيئًا فشيئًا. ويعم سكون... ثم يخور عجل في العربة التالية «موووو» فجأة كما لو أنه يغني.

ويعود ياشا وتضرب الرياح الباردة داخل العربة.

ويقول العجوز:

- أغلق الباب يا ياشا، سننام.لماذا أشعلت شمعة دون حاجة؟

ويحرك ياشا الباب الثقيل، ويُسمع صوت صفارة، واشتغلت القاطرة وانطلق القطار.

ويمدد العجوز نفسه على العباءة ويضع رأسه على حزمة من القش، ثم يقول:

- الجو بارد. إنه مختلف تمامًا عن جو البيت! إن البيت دافئ، نظيف، هادئ، وهناك غرفة لتصلي فيها، لكن هنا نحن أسوء من وضع أي خنزير. لقد مرت أربعة أيام لم أخلع فيها حذائي.

ويتمايل ياشا من اهتزاز القطار، ويفتح الفانوس ويخمد الفتيلة بأصابعه الرطبة. ويتوهج الضوء، ويصدر فحيحًا مثل المقلاة ثم ينطفئ.

ويكمل مالخين وهو يشعر بياشا مستلقيًا بجانبه ويتقلب على ظهره الضخم:

- نعم يا بني.الجو بارد، إن الهواء يهب من كل شق. ولو كانت أمك أو أختك تنام هنا لليلة واحدة لماتتا في الصباح. وهكذا يا ولدي، لم ترغب أن تدرس وتذهب إلى المدرسة مثل إخوتك، لذا يجب عليك أن تنقل العجول مع أبيك. إنها غلطتك، وعليك أن تلوم نفسك فقط... إخوتك نائمون في أسرتهم الآن وينعمون بالدفءتحت اللحاف، لكن أنت المهمل والكسول بينهم، تقبع في نفس العربة مثل العجول.. أي نعم...

لم تُسمع كلمات العجوز من ضجيج القطار، لكنه بقي يتمتم ويتنهد ويكح طويلًا.... ويزداد الهواء البارد في العربة التي على السكة خنقًا. وتفوح الرائحة النفاثة للروث والشموع المحترقة وتجعل الجو مثيرًا للاشمئزاز ولاذعًا لدرجة أنها خنقت حلق ياشا وصدره وهو غارق في النوم. وظل يسعل ويعطس، في حين كان العجوز معتادًا على الأمر، وبقي يتنفس بكلتا رئتيه وكأنه ليس هناك من شي خاطئ، وظل يكح فحسب.

يمكن الحكم من اهتزاز العربة ودوي العجلات أن القطار يتحرك بسرعة وعلى نحو أعوج. والقاطرة تسحب أنفاسها بصعوبة، وتخرج زفيرًا مع نبضات القطار، وخليط من الأصوات يعتلي في الجو.وتتكدس العجول معًا باضطراب وتضرب قرونها بالحوائط.

عندما استيقظ العجوز، كانت سماء البكرة الزرقاء الساحقة تسترق النظر عند الفلوق وعند النافذة الصغيرة المكشوفة. وكان يشعر بالبرد الشديد، وخاصة في ظهره وقدميه. والقطار لا يزال واقفًا، وياشا الناعس والمتجهم، منشغل بالعجول.

وينهض العجوز بمزاج معكر. ووجه عبوس مكتئب، ويكح بغضب ويتطلع من أسفل حواجبه إلى ياشا الذي يسند عجلًا بكتفه القوي ويرفعه قليلًا، ويحاول فكّ ساقه.

ويتمتم العجوز:

- قلت لك ليلة البارحة أن الحبال طويلة جدًا، لكن لا، ليست طويلة يا بابا! لن يفعل أحد أي شيء عنك، ستفعل كل شيء بنفسك... يا عبيط!

ويحرك الباب ويفتحه بغضب ويندفع الضوء داخل العربة. ويقف مسافر مقابل الباب مباشرة، وخلف ظهره مبنى أحمر مسقوف على الرصيف.. وكانت محطة كبيرة وفيها حانة صغيرة. الأسقف والجسور والقطارت والأرض والناس النائمون، كل شيء مغطى بطبقة رقيقة من الثلج المنفوش المتساقط موخرًا. وفي المسافات التي بين عربات المسافرين يمكن للمرء رؤية الركاب وهم يتحركون ذهابًا وإيابًا، وشرطي أحمر الوجه والشعر يمشي للأمام والخلف، ونادل يرتدي معطفًا طويلًا وقميصًا أبيض مثل الثلج. بدت على وجهه علامات البرد والنعاس، والأرجح أنه غير راضٍ عن حياته، وكان يركض على طول رصيف المحطة وهو يحمل فنجانًا من الشاي وقطعتين من الكعك على صينية.

وينهض العجوز ويصلي باتجاه الشرق. ويضع ياشا المجرفة عند الزاوية بعد أن انتهى من تنظيف روث العجل، ويقف بجانب أبيه يصلي أيضًا. كان يحرك شفتيه فحسب ويرسم الصليب على صدره، والأب يصلي بهمس عال ويختم بصوت مسموع عند نهاية كل صلاة.

ويردد العجوز بصوت عال ويسحب أنفاسه:

- ... والحياة يوم القيامة. آمين

ثم يهمس بصلوات أخرى ثانية مرددًا بصوت واضح وحزم في النهاية:

- ... وآتنا من العجول رزقنا.

وبعد الانتهاء من صلاته، يرسم ياشا الصليب بسرعة ويقول:

- هات خمسة كوبيكات لو سمحت.

وبعد أخذه قطعة من فئة الخمسة كوبيكات، يتناول إبريق الشاي النحاسي الأحمر ويركض نحو المحطة ليغلي الماء. ويقفز طويلًا فوق السكك الحديدية وفوق النائمين، تاركًا آثار أقدام ضخمة على الثلج الناعم وراءه، ويفرغ شاي الأمس من الإبريق، ويجري صوب الحانة وهو ينقر بالخمسة كوبيكات التي لديه على إبريق الشاي. ومن العربة كان بالإمكان رؤية نادل الحانة وهو يدفع إبريق

الشاي الكبير ويرفض أن يعطي نصف شاي السماور بخمسة كوبيكات، لكن ياشا يدير الصنبور بنفسه ويفتح مرفقيه بالعرض حتى لا تدقر أثناء تعبئة الابريق بالماء المغلي.

ويصرخ النادل من خلفه وهو يركض إلى المقطورة التي على السكة الحديدية:

- أيها العبيط الملعون!

وأخذ وجه مالخين يستعيد اشراقه قليلًا على شرب الشاي.

وقال:

- نعرف كيف نأكل ونشرب لكن لا نعرف أن نتذكر عملنا. لم نتمكن البارحة من عمل شيء طوال النهار سوى الأكل والشرب، وسأضع على الخازوق لأننا نسينا أن نكتب ماذا صرفنا، يا لها من ذاكرة! يارب ارحمنا!

ويتذكر العجوز نفقات الأمس، ويردد بصوت عال وهو يكتب على دفتر ممزق أين وكم أعطى للحراس، وسائقي القطارات، وعمال الصيانة...

وفي هذه الأثناء كان قطار الركاب قد انطلق منذ فترة طويلة، والقاطرة ترجع إلى الخلف والأمام على الخط الفارغ وبلا أي هدف محدد على ما يبدو، بل تتمتع بحريتها ببساطة. وارتفعت الشمس وهي تضرب بأشعتها على الثلج، والقطرات اللامعة تسقط من سقف المحطة والمقطورات.

وبعد شرب الشاي، شرع العجوز يتمشى بكسل من العربة إلى المحطة.وهنا في منتصف غرفة الانتظار من الدرجة الأولى، يرى قامة مألوفة للحارس الذي يقف بجانب مدير المحطة الشاب، ذو اللحية الجميلة والمعطف الأنيق المحبوك من الصوف الخشن، وأغلب الظن أن الشاب قد عيّن حديثًا في منصبه. وظل يقف في نفس المكان ويتنقل بأرجله برشاقة مثل فرس السباق، وينظر من جانب إلى آخر ويحييّ كل شخص يمر وهو يبتسم ويغمز بعينيه.... كان أحمر الوجنتين، قوي البنية، حسن المزاج، ووجهه مفعم بالحماس، وكان منتعشًا بالكامل كما لو أنه قد سقط من السماء للتو مع الثلج الناعم. وعندما رأى مالخين، تنهد الحارس وتعابير الذنب على وجهه وفتح يديه تعبيرًا عن رجل ليس الأمر في يديه.

ثم قال:

- لا يمكننا الوصول مع الرقم أربعة عشر، لقد فاتنا الوقت كثيرًا وذهب قطار آخر بهذا الرقم.

ونظر مدير المحطة بسرعة إلى بعض الاستمارات، ثم رفع عينيه الزرقاوتين اللامعتين وتطلع إلى مالخين بوجه مبتسم ومنتعش، ثم ألقى عليه بوابل من الأسئلة:

- أنت السيد مالخين؟ ولديك عجول على ثمانية عربات؟ ما الذي يجب فعله الآن؟ لقد تأخرت وتركت الرقم أربعة عشر يذهب ليلًا. ماذا علينا أن نفعل الآن؟

ويمسك الشاب برصانة بياقة معطف مالخين الفروي باصبعيه الورديتين، ويثب على قدميه، ويشرح بعذوبة وإقناع أن رقم هذا الدور قد ذهب بالفعل ويمضي في طريقه الآن، وأنه مستعد أن يفعل ما في وسعه من أجل مالخين. وكان واضحًا من وجهه أنه على استعداد لفعل أي شيء لإرضاء ليس مالخين فقط، بل العالم أجمع.. إنه سعيد جدًا، مسرور جدًا، ومبتهج جدًا. والعجوز يصغي، وبالرغم من أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا على الإطلاق أمام النظام المعقد لترقيم القطارت، إلا أنه هز رأسه بالموافقة، ووضع اصبعيه هو أيضًا على الصوف الناعم للمعطف الرث. إنه يستمتع بالنظر والإنصات إلى الشاب المهذب اللطيف. ولإظهار المودة من طرفه أيضًا، يخرج عشرة روبلات من جيبه، وبعد التفكير للحظات، يضيف عليها عشرة روبلات أخرى، ويعطيها لمدير المحطة. ويأخذهم الأخير، ويضع أصبعه على قبعته، ويدفع النقود في جيبه برقة.

ويقول مالخين متأججًا بفكرة جديدة خطرت على باله:

- طيب يا جماعة، ألا يمكننا الوصول على هذا النحو؟ قطار العساكر متأخر... كما ترون، إنه ليس هنا.. فلماذا لا نذهب مثلما ذهب قطار العساكر؟ ونسمح لقطار العساكر بالذهاب عند الدور رقم ثمانية وعشرون، هاه؟

ويقول الحارس موافقًا:

- لك ذلك إذا أردت.

ويقول مدير المحطة بسرور:

- ممتاز! في هذه الحالة لست مضطرًا للإنتظار هنا، يمكنك الانطلاق في الحال، سأرسلك على الفور. ممتاز!

ويودّع مالخين ويهرع إلى غرفته وهو يقرأ الاستمارات.كان العجوز مبتهجًا للغاية أنه قد أخذ دورًا لعرباته، وكان يبتسم ويتطلع حول الغرفة كما لو أنه يبحث عن شيء آخر يفرحه. وقال وهو يأخذ بذراع الحارس:

- سنحتسي شرابًا بالإضافة إلى ذلك.

- يبدو أن الوقت ما زال مبكرًا للشرب.

- لا، عليك أن تدعني أكرمك بكأس من باب الود.

ويذهب الاثنان إلى البوفيه. وبعد احتساء مشروب، يأخذ الحارس وقتًا طويلًا في اختيار شيء ليأكله.

كان رجل بدينًا للغاية، وطاعنًا في السن، ومنتفخ الوجه وفيه بهاق، وكانت كرشه مزعجة ومترهلة، وشاحبًا كالناس الذين يشربون بكثرة ولا ينامون بانتظام.

ويقول مالخين:

- والآن لنأخذ كاسًا آخر، إن الجو بارد الآن، وليست معصية أن نشرب، صب قليلًا أرجوك. إذًا يمكنني الاعتماد عليك يا سيدي الحارس بأنه لن يكون هناك من عائق أو مكروه لبقية الرحلة. فكما تعلم أن كل ساعة في نقل العجول ثمينة. لحوم اليوم بسعر، ولحوم الغد بسعر، وإذا تأخرت يومًا أو يومين ولم تحصل على السعر الذي تريده، فبدلًا من الربح، وعدم المؤاخذة لقول هذا، ستعود للبيت بدون سروالك. الصلاة ستأخذ بعض الوقت... إنني أعتمد عليك، وإن أردت إكرامية لموقفك أو شيء ما تحبه، فيسعدني أن أبيّن لك تقديري في أي وقت.

وبعد أن أطعم الحارس، يعود مالخين إلى العربة.

ويقول لابنه:

- لقد تعاقدت للتو مع قطار العساكر. سنذهب بسرعة. يقول الحارس إذا ذهبنا على طول الطريق مع ذاك الرقم فإننا سنصل عند الساعة الثامنة مساء الغد. إن لم يحرك الواحد نفسه يا بني فلن يجني شيئًا.. هكذا هي الدنيا.. لذا شاهد وتعلم...

وبعد ضربة الجرس الأولى، يأتي رجل مسود من الفحم ويرتدي بلوزة وسروال قذر ممزق ومرتخي جدًا إلى باب العربة. كان هذا عامل الصيانة الذي يزحف تحت العربات ويضرب بالمطرقة.

وسأل:

- هل عربات المواشي هذه لك؟

- نعم، لماذا؟

- لماذا؟ لأن هناك عربتين غير آمنتين. لا يمكنكم الذهاب بهما، عليك أن تبقى هنا لإصلاحهما.

- أوف، قل شيء آخر أرجوك. أنت ببساطة تريد مشروبًا، كان عليك أن تقول ذلك لتحصل على شيء مني....

- كما تشاء، لكن من واجبي فقط أن أبلغك بذلك بنفس الوقت.

ودون سخط أو احتجاج، وببساطة كما لو أن الأمر يحدث آليًا، يسحب العجوز عشرين كوبيكًا من جيبه ويعطيها لعامل الصيانة. ويأخذها بهدوء شديد. وكان يظهر بمظهر الرجل اللطيف في محادثته مع العجوز أيضًا.

ويسأله:

- أنت ذاهب لبيع مواشيك على ما أظن... مصلحة حسنة!

ويتنهد مالخين، ويتطلع بهدوء إلى الوجه المسود لعامل الصيانة، ويخبره بأن تجارة المواشي عادة ما تكون تجارة مربحة، لكن المصلحة الآن أصبحت محفوفة بالمخاطر والخسارة.

ويقاطعه عامل الصيانة:

- معي زميل يعمل هنا. وقد تتكرم عليه أيها التاجر المحترم بهدية صغيرة...

ويعطي مالخين إكرامية للزميل أيضًا.ويمضى قطار العساكر بسرعة في حين كانت أوقات الانتظار في المحطات قصيرة نسبيًا. وكان العجوز مسرورًا. فالانطباع السار الذي أحدثه الشاب صاحب المعطف الرث قد تعمق في نفسه، والفودكا التي شربها تشوش عقله قليلًا، والجو بهيج، ويبدو أن كل شيء يسير على ما يرام. كان يتكلم بلا هوادة، ويتوقف عند كل محطة ويهرع إلى الحانة.وبعد أن شعر بالحاجة إلى من يصغي إليه، أخذ معه الحارس أولًا، ثم السائق، ولم يكن يشرب فقط، بل يزيد الأمر بالتعليقات وبقرع الكؤوس.

ويقول بابتسامة لطيفة:

- لديكم مصلحتكم ولدينا مصلحتنا، رزقنا الله وإياكم، والرزق ليس بإرادتنا بل بإرادته هو.

كانت الفودكا تثيره شيئًا فشيئًا وهو مفعم بقدر كبير من الطاقة. إنه يريد أن يحرك نفسه، أن يبتهج، أن يستفسر، أن يتحدث باستمرار. وبعد دقيقة واحدة يتحسس جيوبه ويبحث عن ورقة ما، ويفكر في شيء ما ولا يستطيع تذكره، ثم يخرج المحفظة من جيبه، ويعد المال في محفظته بلا سبب. ويهيج، ويتأوه، ويصفّق بيديه.... ويضع أمامه الرسائل والبرقيات من بائعي اللحوم في المدينة، والفواتير، والبريد واستمارات التلغراف، ودفتر ملاحظته، ويردد بصوت عال ويصرّ على إسماع ياشا.

وعندما تعب من قراءة الأوراق والتحدث عن الأسعار، خرج إلى أماكن التوقف، وأخذ يركض حول المقطورات التي بداخله عجوله، ولم يفعل شيئًا سوى أن شبك يديه وصرخ في رعب.

وقال في صوت مشتكي:

- آآه يا إلهي! يا إلهي! أيها الشهيد بلاسي المقدس! صحيح أنهم عجول، وصحيح أنهم حيوانات، لكنهم يريدون أن يأكلوا ويشربوا كما تفعل البشر، لقد مضى أربعة أيام لم يشربوا أو يأكلوا، آآه يا إلهي! آه يا إلهي!

ويتبعه ياشا وينفذ ما قيل له كما يفعل الابن المطيع. لكنه لم يكن يحب زيارات العجوز المتكررة إلى الحانات. وعلى الرغم من خوفه من والده، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من السكوت عن الأمر، وقال وهو يتطلع بصرامة إلى العجوز:

- هاقد بدأتَ إذًا! لما أنت فرحان هكذا؟ هل هو يوم ميلادك أم ماذا؟

- لا تتجرأ على تعليم أبيك.

- خيرًا إن شاء الله!

وعندما لم يتبع ياشا والده على طول العربة، ذهب يجلس على العباءة يعزف على الأكورديون. وكان يخرج بين الفينة والأخرى ويتمشى بكسل بجانب القطار، ويقف بجوار القاطرة ويلتفت طويلًا وهو يشيح بنظره إلى العجلات أو العمال الذين يضعون سواتر الخشب على حاجز السكة؛ القاطرة تنفث الدخان الساخن، وندف الثلج يتساقط مع نفحة عذبة، الحفيف الرقيق للأشجار المنعشة، سائق القطار ومساعده، الناس الباردو الأعصاب والهادئون للغاية، الذين يقومون بحركات غير مفهومة ودون أن يستعجلوا على أنفسهم. وبعد الوقوف لفترة بالقرب من القاطرة، تمشى ياشا نحو المحطة بكسل، وهناك بدأ ينظر إلى الأطعمة التي في البوفيه ويقرأ بصوت عال بعض الملاحظات المملة، ثم شرع يعود بخطوات متثاقلة إلى عربة العجول. لم يكن وجهه يعبر لا عن الملل ولا عن الرغبة، ويبدو أنه لا يهمه أين يكون، في البيت، داخل العربة، أو بجانب القاطرة.

عند حلول المساء توقف القطار بالقرب من محطة كبيرة. كانت المصابيح تضيء على امتداد السكة فقط، وعلى الخلفية الزرقاء في الهواء النقي المنعش كانت الأضواء ساطعة وشاحبة مثل النجوم، وكانت تتوهج بلونها الأحمر تحت سقف المحطة فقط، حيث قد حل الظلام هناك بالفعل. وكانت جميع الخطوط مليئة بالعربات، ويبدو أنه لو حدث وأتى قطار آخر فلن يكون له مكان. ويركض ياشا إلى المحطة ليغلي الماء من أجل شاي المساء. والسيدات الأنيقات وطلاب المدارس يسيرون على رصيف المحطة. وإذا نظر المرء من الرصيف نحو الأفق فسيرى أضواء بعيدة تتلألأ في غسق الليل على جانبي المحطة.. كانت تلك هي المدينة. ماذا يعني مدينة؟ لم يكن ياشا يهتم لمعرفة ذلك. فهو يرى الأضواء الخافتة والمباني البائسة التي خارج المحطة فقط، ويسمع صراخ الحوذين، ويشعر بالرياح اللاذعة والباردة على وجهه، ويتصور بأن المدينة على الأرجح متعبة، ومزعجة، ومملة.

وبينما كانا يشربان الشاي، والجو قد صار مظلمًا تمامًا والفانوس معلق على الحائط ثانية كما في مساء الأمس، اهتز القطار إثر ضربة خفيفة وبدأ يتحرك للخلف. وبعد أن ترنح قليلًا توقف، وسمعا صياحًا غير واضح، وشخص يضع الكبال بالقرب من مصد القطار ويصيح «جاهز». ويتحرك القطار ويذهب للأمام، ثم يجر بعد عشر دقائق مرة أخرى.

وعندما خرجا من العربة، لم يتعرف مالخين على قطاره. وكانت عرباته الثمانية المحملة بالعجول على نفس الصف مع بعض العربات التي لم تكن تابعة للقطار من قبل، وكانت عربتان أو ثلاثة منها محملة بالأنقاض أما البقية فكانت فارغة. والحراس الذين يركضون على الرصيف جيئة وذهابًا غرباء. ولم يعطوه إجابات واضحة وصريحة لأسئلته، ولم يكن عندهم معلومات ليقدموها لمالخين. وكانوا في عجلة من أمرهم ليركبوا القطار معًا وينتهون من عملهم في أقرب وقت ممكن ويعودون في الدفء.

ويسأل مالخين:

- ما هو رقم هذا القطار؟

- ثمانية عشر.

- وأين قطار العساكر؟ لماذا أخرجتني عن قطار العساكر؟

ودون أن يحصل على إجابة، يذهب العجوز إلى المحطة. ويبحث في البداية عن القامة المألوفة لرئيس الحرس، لكنه لم يجدها، ثم يذهب إلى مدير المحطة. وكان مدير المحطة يجلس أمام الطاولة في غرفته، ويقوم بتقليب حزمة من الأوراق. وكان منشغلًا ولم يغضض له طرف برؤية الوافد الجديد. وكان بهي الطلة؛ شعر أسود مقصوص، آذان بارزة، أنف طويل معقوف، ووجه أسمر، وبدت عليه تعابير حادة ومستاءة. وأخذ مالخين يقدم شكواه بإسهاب.

ويستفسر مدير المحطة:

- ماذا؟

ويلقي بظهره على كرسيه ويواصل كلامه بسخط:

- كيف هذا؟ ما القصة؟ ولماذا لا يجب أن تذهب بالرقم ثمانية عشر؟ تكلم بوضوح أكثر، أنا لا أفهم! كيف هذا؟ هل تريد مني أن أكون في كل مكان في نفس الوقت؟

كان يزخ الأسئلة عليه مثل المطر، ويزداد جدية وصرامة دون أي سبب واضح. ويتحسس مالخين محفظته التي في جيبه، ولكن في النهاية رأى أن مدير المحطة غاضب وساخط، ولسبب غير معروف قام من مقعده وهرع خارج الغرفة. ويهز مالخين كتفيه، ويخرج ليبحث عن شخص آخر يتحدث إليه.

من الملل أو من الرغبة في إكمال هذا اليوم الحافل، أو ببساطة لأن عينيه وقعتا على نافذة كتب عليها «تلغراف». يذهب صوب النافذة ويعبّر عن رغبته في إرسال برقية، ويأخذ القلم، ويفكر لدقيقة، ثم يكتب على ورقة زرقاء (عاجل. إلى مدير المرور. ثمانية عربات صغيرة من العجول، تتأخر في كل محطة. يرجى إرسال قطار سريع. الرد مدفوع. مالخين).

وبعد إرسال البرقية، يعود إلى غرفة مدير المحطة. وهناك يجد رجلًا يجلس على أريكة مغطاة بقطعة قماش رمادية، بدت على الرجل ملامح الخير، وكان يضع نظارات وقبعة من فرو الراكون، ويرتدي معطفًا غريب الشكل ويشبه إلى حد كبير معطف السيدات، وله حواف من الفراء وأكمام مقطوعة. وأمامه يقف رجل ضخم وناشف الوجه، ويلبس بدلة مفتش السكك الحديدية.

ويقول المفتش مخاطبًا الرجل صاحب المعطف الغريب:

- فكر في الأمر فقط.وسأخبرك بقصة ولا في الأحلام. قامت السكة الحديدية (ز) بسرقة ثلاث مائة عربة ببرودة أعصاب من الخط (ن). إنها الحقيقة يا سيدي وأحلف اليمين على ذلك! لقد استولوا على العربات، وأعادو طلائها، ووضعوا شعارهم عليها، وهذه هي كل القصة. والمسؤلون في الخط (ن) يرسلون وكلائهم إلى كل مكان، ويبحثون ويفتشون. وبعد ذلك يحدث أن تعثر الشركة على عربة محطمة من عربات الخط (ز) هل يمكنك أن تتخيل ذلك؟. إنهم يصلحونها في مستودعهم على الفور، رحماك يارب! وقد رأو علامة الشركة مسجلة على العجلات. ما رأيك؟ هاه؟ لو فعلت ذلك لنفوني إلى سيبيريا، لكن شركات السكك الحديدية تتصرف بإهمال ببساطة!

كانت متعة مالخين تكمن في التحدث مع المتعلمين والمثقفين من الناس. وأخذ يهذب لحيته وينضم للحديث بوقار.

ويقول:

- خذوا هذه القضية مثلًا أيها السادة، إنني أنقل العجول إلى المدينة الفلانية على ثماني عربات. حسن جدًا... الآن لنقل بأنهم يتقاضون رسومًا على كل حمولة وزنها عشرة أطنان، لكن ثمانية عجول لا تزن عشرة أطنان، بل أقل من هذا بكثير، ومع ذلك لا يأخذون هذا بالحسبان....

في تلك اللحظة يدخل ياشا إلى الغرفة بحثًا عن أبيه. ويصغي للحديث وهو على وشك الجلوس على الكرسي، ولكنه على الأرجح تذكر مكانته وذهب يجلس على حافة النافذة.

ويكمل مالخين:

- إنهم لا يأخذون ذلك في الحسبان، ويأخذون اثنين وأربعين روبلًا مني أنا وابني رسوم تذاكر من الدرجة الثالثة للسفر مع العجول في العربة.. هذا هو ابني ياكوف، ولدي اثنان آخران في المنزل، لكنهم اختاروا الدراسة.. طيب وبغض النظر عن ذلك، في رأيي أن السكك الحديدية قضت على تجارة المواشي. كان الحال أفضل في الأيام الخوالي عندما كانوا يقودونها في قطعان.

كان حديث العجوز طويلا وممتدًا. وظل يتطلع بعد كل جملة يقولها إلى ياشا كما لو أنه يقول له: «انظر كيف أتكلم مع الأذكياء «.

ويقاطعه المفتش:

- لا أحد ينتقد ويرفع صوته فوق كلامي! ولماذا؟ لأن الأمر بغاية البساطة.إن البغض يقلع العين ويثير السخط حين يكون مقصودًا فقط، أي عندما يتم خرق الأوامر بسببه. هنا، مع كامل احترامي، يوجد قانون ثابت، وجميع الايصالات والعائدات تدخل في الاستمارة نفسها، حيث يتحمل كل نائم على الخط النتيجة وقرفها، إن المرء يتعود بسهولة، نعم يا سيدي!

وقرع الجرس بالضربة الثانية، ونهض ذو المعطف الغريب. وأخذه المفتش من يده وهو لا يزال يتحدث بحرارة، وانطلق معه إلى رصيف المحطة. وبعد ضربة الجرس الثالثة، يركض مدير المحطة إلى غرفته، ويجلس على طاولته.

ويسأله مالخين:

- اسمعني، ماهو رقم الدور الذي سأذهب به؟

وينظر مدير المحطة إلى الورقة، ويقول بسخط:

- هل أنت مالخين صاحب الثماني عربات؟ عليك أن تدفع روبلًا عن كل عربة وستة روبلات وعشرين كوبيكًا عن الطوابع. وليس عندك في الإستمارة أي طوابع. يصبح المجموع أربعة عشر روبل وعشرين كوبيكًا.

ويستلم مدير المحطة النقود، ويقوم بكتابة شيء ما ويجففه من الحبر، ثم يمزق حزمة من الأوراق بغضب ويخرج بسرعة من الغرفة.

وعند العاشرة مساءً، يتلقى مالخين الإجابة من مدير المرور «تم إعطاء الأسبقية»

وعند قراءة برقية التلغراف، يغمز العجوز بعينه، ويشعر بسعادة شديدة من نفسه، ويضعها في جيبه

ويقول لياشا:

- هكذا الشغل. انظر وتعلم.

ومضى القطار عند منتصف الليل. كان الليل مظلمًا وباردًا مثل ليلة الأمس، وكانت ساعات الانتظار في المحطات طويلة. وكان ياشا يجلس على العباءة ويعزف على الأكورديون، في حين لا يزال العجوز أكثر تلهفًا بأن يجهد نفسه. واستحوذت عليه الرغبة في إحدى المحطات لتقديم شكوى. وبناء على طلبه، يجلس الشرطي ويكتب:

«بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٨١، أنا إيليا تشيريد، الضابط في القسم الفلاني من مخفر شرطة كذا وكذا للسكك الحديدية. ووفقًا للمادة الثانية من الدستور العام الصادر في ١٩ مايو ١٨٧١، أعدت هذا المحضر في محطة كذا وكذا وفيه ما يلي....»

ويسأل الشرطي:

- ماذا سأكتب بعدها؟

ويلقي مالخين أمامه أوراقًا وايصالات بريدية وبرقيات وحسابات... هو نفسه لم يكن يعرف ماذا يريد بالتحديد من الشرطي، إنه لا يريد أن يصف أي مرحلة بعينها في المحضر، بل يريد وصف رحلته بأكملها، بكل خسائره ومحادثاته مع مسؤولي المحطات، يريد وصفها بالتفصيل وبحدة.

ويقول:

- اكتب بأن مدير محطة (ز) قد فكّ عرباتي عن قطار العساكر لأن خلقتي لم تحظى بإعجابه.

كان يريد من الشرطي أن يؤكد على العبارة الأخيرة. والأخير يستمع وعلامات التعب ظاهرة عليه، ويمضي في الكتابة دون أن يسمعه إلى النهاية. وقال وهو ينهي المحضر على هذا الشكل:

«إن الإفادة المذكورة أعلاه قد كتبت في هذا المحضر بنية تقديمها إلى رئيس القسم (ز)، وقد سلمت نسخة منه إلى غافريل مالخين. الضابط تشيريد»

ويأخذ العجوز نسخة من المحضر، ويضعها مع الأوراق في جيبه المحشو وهو يشعر بسعادة غامرة، ويمضي عائدًا إلى عربته.

وفي الصباح، يستيقظ مالخين بمزاج معكر مجددًا، لكنه لم يصبّ غضبه على ياشا هذه المرة، بل على العجول.

وأخذ يتذمر:

- لقد قضي على الدواب! لقد قضي عليها! إنها تلفظ آخر أنفاسها! يارب أنت العليم! ستموت كلها. تفوو!

كانت العجول التي لم يكن لديها ما تشربه منذ عدة أيام، والتي ساءها العطش تلعق الصقيع الذي على الجدران، وعندما يشق مالخين عليهم يبدأون في لعق سترته الباردة ذات الفرو. ومن عيونهم الصافية الدامعة يمكن للمرء رؤية أنهم مرهقون من العطش وخبطات القطار، وأنهم يعانون من الجوع والبؤس.

ويتمتم مالخين:

- يا لها من مصلحة ممتعة هي نقلكم بالسكك الحديدية أيتها البهائم الحقيرة! والله لأفضل الموت على هذه المصلحة! النظر فيكم يجعلني أمرض!

ويتوقف القطار في منتصف النهار عند المحطة الكبيرة، حيث يوجد مياه شرب للمواشي وفقًا للوائح.

ووضع الماء للعجول، لكن العجول لم تشرب لأن الماء كان بارد جدًا...

ومر يومان، وفي آخر الطريق في الضباب الداكن، كانت المدينة تظهر في الأفق. وانتهت الرحلة، ويتوقف القطار قبل الوصول إلى المدينة بالقرب من محطة البضائع. ويطلق سراح العجول من العربة، وتتمايل وتتعثر كما لو أنها تمشي على جليد زلق.

بعد أن تم تنزيلهم وإخضاعهم للفحص البيطري، ينزل مالخين وياشا في فندق رخيص وقذر في ضواحي المدينة، وبالقرب من الساحة التي يقام فيها بازار المواشي. كانت غرفتهما قذرة وطعامهما مقرفاعلى خلاف ما يأكلان في البيت. وينامان على سريرين قاسيين مضغوطين وعلى عزف رديء للأرغن الصغير طوال الليل والنهار في المطعم الذي تحت رأسيهما.

ويقضي العجوز وقته من الصباح حتى آخر الليل في البحث عن زبائن، ويقعد ياشا في غرفة الفندق لأيام، أو يخرج إلى الشارع لينظر إلى المدينة. ويرى الساحة القذرة المكدسة بالروث، لافتات المطاعم، وجدارن وأبراج الدير القابعة تحت الضباب. وكان في بعض الأحيان يصادف شارعًا ما فيتطلع إلى حانوت البقالة، ويعجب بأطواق الكعك وألوانه المختلفة، ثم يعود أدراجه بتثاؤب وكسل إلى الغرفة. فلم تثر المدينة إعجابه.

وأخيرًا تم بيع العجول إلى أحد التجار. وقام مالخين بإحضار الرعاة، وتنقسم العجول إلى قطعان، وكل قطيع عشرة عجول، وتقاد إلى الطرف الآخر من المدينة. ومشت العجول المنهكة منحنية الرؤوس عبر الشوارع الصاخبة وهي تتطلع دون اكتراث إلى ما تراه لأول وآخر مرة في حياتها. والرعاة ذوي الثياب المهترئة يسيرون خلفهم منحني الرؤوس أيضًا ويشعرون بالملل..... وبعد كل ذلك، أخذ أحد الرعاة يمعن التفكير ويتذكر أن أمامه عجول مؤتمن عليها، ولإظهار أنه يقوم بواجبه، يمسك بالعصا ويضرب بها مؤخرة العجل. ويتمايل العجل من الألم ويركض مسافة عشر خطوات ويتطلع إلى الراعي وهو يشعر بالخجل لتعرضه للضرب أمام الناس.

وبعد بيع العجول وشراء الهدايا لعائلته التي يمكن شراءها من القرية بشكل أفضل تمامًا، يستعد مالخين وياشا لرحلة العودة. وقبل ثلاث ساعات من انطلاق القطار، ينزل العجوز الذي هبط بالسعر كثيرًا مع تاجر المواشي العنيد ومعه ياشا إلى المطعم ويجلس لشرب الشاي. ومثل كل المقاطعات، لم يكن بمقدوره أن يأكل ويشرب بمفرده، ينبغي أن يجد صاحب معاندا ومتحدثًا رزينًا مثله.

ويقول للنادل:

- ناد على بواب الفندق وقل له أنني أود أن أسلّيه.

ويأتي البواب، رجل قوي البنية وغير مبال إطلاقًا تجاه النزلاء، ويجلس أمام الطاولة.

ويقول مالخين ضاحكًا:

- والله بدلنا العنزة بدجاجة. لم، لأنه وقت انطلقنا كان سعر الهبر ثلاثة روبيلات وتسعين كوبيكًا، ولكن حين وصلنا انخفض السعر إلى ثلاثة روبلات وخمسة وعشرون كوبيكًا. قالوا لنا أننا تأخرنا، وكان علينا أن نكون هنا قبل ثلاثة أيام، وليومنا هذا لا يوجد ذاك الطلب على اللحوم، والصيام الكثير على الأبواب... هاه؟ يا لها من مصلحة! يعني خسارة أربعة عشر روبل على كل عجل، أي نعم. لكن فكر في التكلفة فقط؛ خمسة عشر روبل للعربة، وعليك دفع ستة روبلات على كل عجل، ونصائح ورشاوي ومشروبات وشيء يأتي وشيء يذهب...

والبواب يصغي إليه بأدب ويشرب الشاي على مضض. ويتنهد مالخين ويتأوه وهو يلوح بيديه ويلقي النكات عن سوء حظه، لكن كل شيء كان يظهر أن الخسارة التي تكبدها لا تزعجه كثيرًا. ولم يمانع ما إذا كان يخسر أو يربح ما دام لديه من يسمعه، وعنده شيء يثير الضجة حوله، وأنه لم يتأخر عن قطاره.

وبعد ساعة، ينتقل مالخين وياشا وهما يحملون الأكياس والصناديق من غرفة الفندق في الطابق السفلي إلى الباب الأمامي لتأمين عربة تنقلهما إلى المحطة. ويتطلع إليهما بواب الفندق والنادل وحشد من النساء،

ويتأثر العجوز ويعطي عشر كوبيكات لكل الحضور، ويقول بنبرة غنائية:

- الوداع، الله يرزقكم الصحة! وفقكم الله إلى الخير جميعًا. وأسأل الله أن نستطيع القدوم في الصوم الكبير إن بقينا أحياء، شكرًا لكم. بارك الله بكم!

وعند الصعود على الزلاجة، يمضي العجوز وقتًا طويلًا في رسم الصليب باتجاه جدارن الدير الذي بدت كرقعة من الظلام في الضباب. ويجلس ياشا بجانبه على حافة المقعد وساقاه متدليتان على جنب، وكان وجهه ملثما كان ولم يظهر أي تعابير، لا عن الملل ولا عن الرغبة في أي شيء، فهو ليس مسرورًا بالعودة للبيت، ولا يشعر بالأسف أنه لم يتح له الوقت لرؤية معالم المدينة.

- تحرك!

ويلوح الحوذي بالسوط على الحصان ويلتفت وهو يسبّ على الأمتعة الثقيلة والمزعجة.

الرهان [٦١]

[٦١] نشرت القصة لأول مرة في الأول من يناير عام ١٨٨٩ في صحيفة «الزمن الجديد» موقعة باسم «تشيخوف». المترجم

(١)

كانت ليلة خريفية مظلمة. المصرفي العجوز يخطو ذهابًا وعودة في غرفة مكتبه ويتذكر كيف أنه قبل خمسة عشر سنة، أقيمت حفلة في إحدى أمسيات الخريف. وكان هناك العديد من الرجال الأذكياء هنا، وتكلموا بأحاديث مشوقة. وتحدثوا من بين هذه المواضيع عن عقوبة الإعدام. ولم يوافق غالبية الضيوف ومن بينهم العديد من الصحفيين والمثقفون على عقوبة الإعدام. واعتبروا أن هذا النوع من العقوبات قد عفا عليها الزمن، وأنها غير أخلاقية ولا تناسب الدول المسيحية. ورأى بعضهم أنه ينبغي استبدال عقوبة الإعدام في كل مكان بالسجن المؤبد.

وقال مضيفهم المصرفي:

- لا أتفق معكم. أنا لم أجرب لا عقوبة الإعدام ولا السجن المؤبد، لكن إن كان بمقدور المرء الحكم بصورة أولية، فإن عقوبة الإعدام أكثر أخلاقية وإنسانية من السجن مدى الحياة. إن عقوبة الإعدام تقتل الرجل على الفور، أما السجن المؤبد فيقتله ببطئ. أيّ جلاد أكثر إنسانية، من يقتلك في دقائق أم ذاك الذي يسحب الحياة منك عبر سنوات عديدة؟.

وعلّق أحد الضيوف:

- كلتا العقوبتين غير أخلاقيتان على حد سواء. فالاثنتان لهما نفس الغاية.. سلب الحياة. إن الدولة ليست الرب. وليس لها الحق أن تسلب ما لا يمكن استعادته عندما تريد ذلك.

وكان من بين الضيوف محامٍ شاب في الخامسة والعشرين. وعندما سُئل عن رأيه، قال:

- إن عقوبتي الإعدام والسجن المؤبد غير أخلاقيتان بنفس القدر، لكن إن كان لي الاختيار بين عقوبة الإعدام والسجن مدى الحياة، فمن المؤكد أنني سأختار العقوبة الثانية. إن الحياة أفضل على أي حال من عدمها على الإطلاق.

واعتلى نقاش ساخن. وجمح المصرفي الذي كان أصغر سنًا وأكثر توترًا في تلك الأيام بانفعال، وضرب بقبضته وصرخ على الشاب:

- هذا ليس صحيحًا! سأراهن بمليونين أنك لن تبقى في الحبس الانفرادي مدة خمس سنوات.

وقال الشاب:

- إن كنت جادًا، فسأقبل الرهان، لكن لن أبقى خمس سنوات بل خمسة عشر سنة.

وصرخ المصرفي:

- خمسة عشر؟ قبلت! أيها السادة، أراهن بمليونين!

وقال الشاب:

- اتفقنا! أنت تراهن بملايينك وأنا أراهن على حريتي!

وتم تنفيذ هذا الرهان الهمجي الذي لا معنى له! وكان المصرفي المدلل والتافه صاحب الملايين مسرورًا بالرهان. وأخذ أثناء العشاء يسخر من الشاب، وقال:

- فكر بالأمر أكثر أيها الشاب، لا يزال هناك وقت. مليونين هو مبلغ تافه بالنسبة لي، لكن أنت ستخسر ثلاث أو أربع سنوات، لأنك لن تبقى فترة أطول. ولا تنسى أيضًا، أيها البائس، أن الحبس الطوعي أصعب بكثير من الإلزامي. فالتفكير بأن لديك الحق في الخروج بحرية في أي لحظة سيسمم كيانك بالكامل في السجن. إنني أشعر بالأسف عليك.

ويتذكر المصرفي وهو يمشي الآن جيئة وذهابًا كل هذا، وسأل نفسه «ماذا كان الهدف من كل هذا الرهان؟ ما الخير في أن يخسر هذا الرجل خمسة عشر عامًا من حياته ويرمي المليونين؟ هل يمكن لذلك أن يثبت أن عقوبة الإعدام هي أفضل أو أسوأ من السجن المؤبد؟ لا، لا. كل ذلك كان سخيفًا وبلا معنى. من جهتي كان ذلك نزوة من رجل مدلل، ومن جهته طمع بالمال ببساطة....

ثم تذكر ما تلى تلك الأمسية. لقد تقرر أن يقضي الشاب سنوات حبسه تحت مراقبة صارمة في إحدى الأكواخ في حديقة المصرفي. وتم الاتفاق أنه ينبغي أن لا يكون حرًا لمدة خمسة عشر عامًا ويحرم من عبور عتبة الكوخ، أو رؤية بشر، أو سماع صوت إنسان، أو تلقي الرسائل والصحف. وسُمح له بالحصول على آلة موسيقية وكتب، وسمح له بكتابة الرسائل، وشرب الخمر، والتدخين. وبموجب شروط الاتفاق، فإن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يربطه بالعالم الخارجي هو نافذة صغيرة مخصصة لهذا الغرض. وقد يحصل على أي شيء يريده.. كتب، الموسيقى، الخمر، وما إلى ذلك.. وبأي كمية يرغب فيها عن طريق كتابة طلب، لكنه لن يستطيع استلامها إلا من خلال النافذة. ونص الاتفاق على كل التفاصيل والتوافه التي من شأنها أن تجعل حبسه انفراديًا تمامًا، ويلزم الشاب بالبقاء هناك خمسة عشر عامًا بالضبط، بدءً من الساعة الثانية عشر من يوم ١٤ نوفمبر ١٨٧٠، وينتهي في الساعة الثانية عشر من ١٤ نوفمبر ١٨٨٥. على أن أقل محاولة من طرفه لكسر الشروط ولو قبل دقيقتين فقط، يعفى المصرفي من الالتزام أن يدفع مليونين له.

في السنة الأولى من حبسه، وبقدر ما يمكن للمرء أن يحكم من مذاكراته القصيرة، عانى السجين بشدة من الوحدة والاكتئاب. وكان صوت البيانو يُسمع باستمرار في الليل والنهار من كوخه. لقد رفض التبغ والنبيذ. وأن النبيذ، مثلما كَتب، يثير الرغبات، والرغبات هي أسوء أعداء السجين، وعلاوة على ذلك، لا شيء يمكن أن يكون أكثر كآبة من شرب الخمر الجيد وعدم رؤية أحد. وأفسد التبغ هواء غرفته. في السنة الأولى كانت الكتب التي أرسلت إليه ذات طابع خفيف، مثل روايات ذات حبكة حب معقدة، وقصص مثيرة وخيالية، وما إلى ذلك.

وفي السنة الثانية كان البيانو صامتًا في الكوخ، ولم يطلب السجين سوى الكلاسيكيات. وفي السنة الخامسة كان صوت الموسيقى مسموعًا مرة أخرى، وقد طلب السجين الخمر. وقال أولئك الذين راقبوه عبر النافذة أنه لم يقضي وقته بفعل شيء تلك السنة سوى الأكل والشرب والاستلقاء على

السرير، وكثيرًا ما كان يتثاءب ويتحدث بغضب إلى نفسه. لم يقرأ الكتب. وفي بعض الأحيان يجلس في الليل للكتابة، وكان يقضي ساعات في الكتابة، وفي الصباح يمزق كل ما كتبه. وأكثر من مرة سمع صوته وهو يبكي.

وفي النصف الثاني من العام السادس بدأ السجين بحماس في دراسة اللغات، والفلسفة، والتاريخ. وألقى بنفسه بشغف في هذه الدراسات.. لدرجة أن المصرفي طفح كيله من جلب الكتب التي طلبها. وفي غضون أربع سنوات تم شراء حوالي ست مائة مجلد بناء على طلبه. وخلال هذه الفترة، تلقى المصرفي الرسالة التالية من سجينه:

«عزيزي جايلر، أكتب إليك هذه السطور بست لغات. أريها للناس الذين يجيدون اللغات. ودعهم يقرؤونها. وإذا لم يجدوا خطأ واحدًا فأناشدكم أن تطلقوا النار في الحديقة. هذه الطلقة ستثبت لي أن جهودي لم تذهب أدراج الرياح. فالعباقرة من جميع الأعمار وبكل الأراضي يتحدثون لغات مختلفة، ونفس الشعلة تحترق فيهم جميعًا. آه، لو تعرف فقط ما هي السعادة التي تملئ روحي الآن من كوني قادر على فهمهم!».

وتم تنفيذ رغبة السجين، وأمر المصرفي بإطلاق رصاصتين في الحديقة.

ثم بعد السنة العاشرة، جلس السجين بلا حراك على الطاولة ولم يقرأ شيئًا سوى الإنجيل. وبدا من الغريب بالنسبة للمصرفي أن الرجل الذي قرأ في أربع سنوات ست مائة مجلد يجدر عليه أن يضيع ما يقرب من عام على كتاب رفيع يسهل فهمه. وأتبعه باللاهوت وتاريخ الدين والأناجيل.

وفي السنتين الأخيرتين من سجنه قرأ السجين عددًا هائلًا من الكتب بشكل عشوائي تمامًا. ففي وقت ما كان مشغولا بالعلوم الطبيعية، ثم طلب لبايرون أو شكسبير. وكان هناك رسائل طلب فيها في الوقت نفسه كتبًا عن الكيمياء، ودليل للطب، وروايات، وبعض الأطروحات في الفلسفة أو اللاهوت. وبدا في قراءته كرجل يسبح في البحر وسط حطام سفينته، ويحاول إنقاذ حياته عبر التشبث بقوة على أول سارية ثم على الأخرى.

(2)

تذكر المصرفي العجوز كل هذا، وأخذ يفكر:

«يوم الغد في الساعة الثانية عشرة سيستعيد حريته. وبموجب اتفاقنا، يجب أن أدفع له مليونين. إذا دفعت له، فقد انتهى أمري، وسأكون محطمًا تمامًا».

قبل خمسة عشر عامًا، كانت ملايينه خارج حسبانه، والآن يخشى أن يسأل نفسه أيهما أكبر، ديونه أم ممتلكاته. وقد أدت المقامرة اليائسة في البورصة، والمضاربات الجنونية والاهتياج الذي لا لم يستطع التغلب عليه في السنوات المتقدمة بدرجة كبيرة إلى تراجع ثروته وفخره، وجرأته، وثقته بنفسه أن الملونير قد أصبح مصرفيًا من المستوى المتوسط، وتمتم العجوز وهو يرتجف من كل صعود وهبوط في استثماراته «رهان ملعون!» وأخذ يقول وهو يمسك رأسه في يأس «لماذا لم يمت الرجل؟ هو الآن في الأربعين. وسيأخذ القرش الأخير مني، وسيتزوج، ويستمتع بالحياة، ويقامر في البورصة، في حين أنظر أنا إليه بعين الحسد كالشحاذ، وأسمع منه كل يوم نفس الجملة: «أنا مدين لك على سعادة حياتي، دعني أساعدك!» لا، هذا كثير جدًا! إن وسيلة الخلاص من الإفلاس والخزي هي موت ذلك الرجل!»

دقت الساعة معلنة الثالثة صباحًا، واستمع المصرفي. كان الجميع نائمين في المنزل ولا يمكن للمرء سماع أي شيء من الخارج سوى حفيف الأشجار الباردة. وأخذ محاولًا عدم إحداث أي ضوضاء من الخزانة مفتاح الباب الذي لم يفتح منذ خمسة عشر عامًا، وارتدى معطفه، وخرج من المنزل.

كان الجو معتمًا وباردًا في الحديقة. وكان المطر يتساقط. وكانت الرياح رطبة ولاذعة وتجري حول الحديقة وهي تعصف دون أن تمنح الأشجار راحة. أجهد المصرفي على عينيه، لكنه لم يرى الأرض ولا التماثيل البيضاء، ولا الكوخ، ولا الأشجار. ونادى على الحارس مرتين وهو ذاهب إلى مكان الكوخ. لكن لم يأته رد. من الواضح أن الحارس كان يبحث عن مأوى من الطقس، وهو نائم الآن في مكان ما في المطبخ أو في الدفيئة.

وفكر العجوز «إذا عزمت على تنفيذ نيتي، فإن الشكوك ستقع على الحارس أولًا».

وتحسس طريقه في الظلام بالدرجات والباب، ومضى صوب مدخل الكوخ. ثم التمس طريقه إلى ممر صغير وأشعل عود كبريت. ولم تكن هناك من روح في المكان. وكان هناك سرير بلا أغطية فوقه، وفي الزاوية موقد حديدي قاتم. وكانت الأختام التي على الباب المؤدي إلى غرفة السجين على حالها.

وحين انطفئ عود الثقاب، اختلس العجوز النظر عبر النافذة الصغيرة وهو يرتجف بكل كيانه. كانت الشمعة تضيء بشكل خافت في غرفة السجين. وكان يجلس أمام الطاولة. وليس بالإمكان رؤية شيء سوى ظهره، والشعر الذي على رأسه، ويديه. وكانت الكتب المفتوحة ملقاة على الطاولة، وعلى الكنبتين، وعلى السجادة بالقرب من الطاولة.

مرت خمس دقائق لم يتحرك السجين فيها حركة واحدة. فالخمسة عشر عامًا من السجن قد علمته أن يجلس بلا حراك. ونقر المصرفي على النافذة بإصبعه، ولم يبدي السجين أي حراك يذكر. ثم كسر المصرفي الأختام التي على الباب بحذر ووضع المفتاح في ثقب الباب. وأصدر القفل الصدئ صوتًا حادًا وصرّ الباب. لقد توقع المصرفي أن يسمع صوت خطوات على الفور وصرخة دهشة، لكن مرت ثلاث دقائق هادئة كما كانت في الغرفة. واتخذ قراره في الدخول.

وأمام الطاولة كان رجل يجلس بخلاف الناس العاديين بلا حراك. وكان هيكلًا عظميًا مشدود الجلد على عظامه، مع ضفائر طويلة مثل ضفائر المرأة ولحية شعثاء. كان وجهه أصفر اللون ومصبوغ بلون التراب، وخديه مجوفتان، وظهره طويل ونحيل، واليد التي أسند رأسه الأشعث عليها نحيفة للغاية وهشة لدرجة أنه من المرعب النظر إليها.

شعره كان مصبوغًا بلون الفضة، وبرؤية وجهه الهزيل المسن، لن يعتقد أحد أنه في الأربعين من عمره. كان نائمًا.. وأمام رأسه المنحني وضعت على الطاولة ورقة كتب عليها شيء ما بخط جميل.

وفكر المصرفي «إنسان مسكين! إنه نائم وعلى الأرجح يحلم بالملايين. وليس علي إلا أخذ الرجل الشبه ميت هذا، وأرميه على السرير، وأخنقه قليلًا بالوسادة، ولن يجد أكبر الخبراء أي علامة على موت عنيف. ولكن لنرى ونقرأ ما كتبه هنا أولًا....»

وأخذ المصرفي الورقة من الطاولة وقرأ ما كتب:

(غدًا في الساعة الثانية عشر أستعيد حريتي وحقي في العيش مع ناس آخرين، لكن قبل أن أغادر هذه الغرفة وأبصر ضوء الشمس، أعتقد أنه من الضروري أن أخبرك ببضع كلمات. أقولها لك بضمير مرتاح، وأمام الله الذي يراني، أنني احتقر الحرية والحياة والصحة، وكل ما يسمى في كتبكم بالأشياء الحسنة في الدنيا.

منذ خمسة عشر عامًا كنت أدرس الحياة الطبيعية باهتمام. صحيح أنني لم أر الأرض ولا الرجال، لكن في كتبكم شربت نبيذًا عبقًا، وغنيت الأغاني، وصدت أيائل وخنازير برية في الغابات، وأحببت النساء... الحسناوات الأثيرات كالغيوم، اللواتي خُلقن بسحر شعرائكم وعباقرتكم، لقد زرنني في الليل، وهمسن في أذني بحكايات رائعة وأدرن رأسي. في كتبكم تسلقت قمم البروس [٦٢] ومونت بلانك [٦٣]، ومن هناك رأيت شروق الشمس وشاهدت الليل يغمر السماء، والمحيط وقمم الجبال باللون الذهبي والأحمر. لقد شاهدت من هناك البرق يضيء فوق رأسي ويتشبث بالسحب العاصفة. رأيت الغابات الخضراء، والحقول، والأنهار، والبحيرات، والمدن. وسمعت صافرات الإنذار ومزامير الرعاة.

---

[٦٢] بركان خامد يقع على سلسلة جبال القوقاز الغربية بالقرب من الحدود مع جورجيا. المترجم

[٦٣] أعلى جبل من جبال الألب في أوروبا. المترجم

ولمست أجنحة الشياطين الجميلة الذين طاروا ليحدثونني عن الله.... في كتبكم قذفت بنفسي داخل حفرة لا قعر لها، فعلتُ المعجزات، قتلت، أحرقت المدن، دعيت إلى ديانات جديدة، واحتللت الممالك بأكملها...

لقد منحتني كتبكم الحكمة. وكل أفكار الإنسان الذي لا تستقر عبر العصور قد ضغطت في بوصلة صغيرة في ذهني. وأعلم بأنني أكثر حكمة منكم جميعًا.

إنني أحتقر كتبكم، وأحتقر الحكمة ونِعم هذا العالم. كل هذا لا قيمة له، سريع الزوال، خدّاع، مضلل، ومثل السراب. قد تكون فخورًا، وحكيمًا، وبخير، لكن الموت سيمحوك عن وجه الأرض كما لو أنك لم تكن أكثر من فأر يحفر جحره تحت الأرض، وإن أجيالكم القادمة، وتاريخكم، وعباقرتكم الخالدين سيحترقون أو يتجمدون مع الكرة الأرضية.

لقد فقدتم دوافعكم واتخذتم الطريق الخطأ. لقد اتخذتم الأكاذيب من أجل الحقيقة، والقبح من أجل الجمال. ستتعجبون أو شيء من هذا القبيل لو نمت الضفادع والسحالي فجأة على أشجار التفاح والبرتقال بدلًا من الفاكهة، أو إذا أخذت تنبعث من الورود رائحة مثل رائحة التعرق، وكذلك أتعجب أنا بمن يبادل السماء بالأرض. لا أريد أن أفهمكم.

ولكي أثبت لك كم أحتقر كل ما تعيش به، أتخلى عن المليونين اللذين كنت أحلم بهما من قبل مثل الجنة واللذان أحتقرهما الآن. ولكي أحرم حقي من المال سأخرج من هنا قبل خمس ساعات من الموعد المحدد، وهكذا يكون الاتفاق قد خرق....)

حين قرأ المصرفي هذا وضع الورقة على الطاولة، وقبّل الرجل الغريب على رأسه، وخرج من الكوخ باكيًا. ولم يشعر في أي وقت مضى، حتى عندما قد خسر الكثير من الأموال في البورصة، باحتقار كبير لنفسه. وعندما وصل إلى المنزل، استلقى على سريره، لكن دموعه ومشاعره أبقته مستيقظًا لساعات طويلة.

وفي صباح اليوم التالي، ركض الحراس ووجوههم شاحبة، وأخبروه أنهم رأوا الرجل الذي يقبع في الكوخ يصعد من النافذة إلى الحديقة، ويذهب صوب البوابة، ثم يختفي. وذهب المصرفي على الفور مع الخدم إلى الكوخ للتأكد من هروب سجينه. ولتجنب إثارة الكلام غير الضروري، أخذ الورقة من على الطاولة التي كتب فيها التنازل عن الملايين، وعندما وصل إلى المنزل أقفل عليها في الخزانة المضادة للحريق.

الفاتنات [٦٤]

[٦٤] كتبت القصة لأول مرة في الحادي والعشرين من سبتمبر عام ١٨٨٨ في صحيفة «الزمن الجديد» موقعة باسم «أن. تشيخوف». المترجم

(1)

أتذكر، حين كنت تلميذًا في الصف الخامس أو السادس، كنت مسافرًا مع جدي من قرية «بولشويا كريبكويا» في مقاطعة الدون إلى مدينة روستوف على الدون. كان يومًا خانقًا، متعبًا، وكئيبًا من أيام أغسطس. وكانت جفوننا ملتصقة ببعضها، وحلوقنا جافة من الحر والرياح الجافة الحارقة التي تسببت في سحب غبارية في وجوهنا، وليس لدى المرء رغبة في النظر أو الكلام أو التفكير. وعندما قام سائقنا الناعس، وهو أوكراني يدعى «كاربو»، بتلويح سوطه على الخيول ويصيبني على قبعتي، لم أكن أحتج أو يخرج مني صوت، بل أستيقظ من قيلولتي فقط، وأحدق بتراخ واكتئاب إلى الأفق لمعرفة ما إذا كانت هناك قرية يمكن رؤيتها عبر الغبار. وتوقفنا لإطعام الخيول في قرية أرمنية كبيرة عند أرمني ثري تربطه معرفة مع جدي. ولم أر في حياتي أبدًا صورة كاريكاتورية أكثر من شكل ذلك الأرمني. تخيلوا رأسًا صغيرًا حليقًا بحاجبين كثيفين متدليين، وبأنف منقار، وشاربين أشيبين طويلين، وفمًا عريضًا يمسك بغليون طويل من خشب الكرز. كان هذا الرأس الصغير موصولًا بشكل أخرق بهيكل نحيل أحدب يرتدي زيًّا عجيبًا؛ سترة حمراء قصيرة، وسروالًا فاقع الزراق بالكامل. ومشت هذه القامة على أرجلها وهي تتخبط بنعالها، وتحدثت دون أن تنزل الغليون من فمها، وتصرفت بوقار أرمني حقيقي، ولم تكن تبتسم، بل تحدق بعيون مبحلقة وتحاول أن تعطي أقل قدر ممكن من الانتباه للضيوف.

لم تكن هناك رياح ولا غبار في غرف الأرمني، لكنها كانت كريهة، وخانقة، وكئيبة كما في السهوب وعلى الطريق. أتذكر أنني جلست على صندوق أخضر في الركن وأنا مغبّر ومنهك من الحر. وانبعثت من الجدران الخشبية غير المطلية ومن الأثاث والأرضيات الملونة بلون الغراء الأصفر رائحة خشب جاف محروق من الشمس. وأينما أشحت بنظري أرى ذبابا وذبابا وذبابا.... كان جدي والأرمني يتحدثان عن الرعي والسماد والشوفان... وكنت أعرف أنها ستكون ساعة جيدة ليحضروا السماور، وأن جدي لن ينهي شرب الشاي بأقل من ساعة، ثم يستلقي للنوم ساعتين أو ثلاثة، وأنني سأضيع ربع اليوم في الانتظار، وبعد ذلك أعود ثانية للحر الشديد والغبار وخبط العربة. واستمعت لتمتمة الصوتين، وبدأ يخيل إليّ أنني كنت أرى لأعوام وأعوام الأرمني، والخزانة مع الأواني الفخارية، والذباب، والنوافذ المحترقة من الشمس المتوهجة، وأنني لن أتوقف عن رؤيتهم إلا في المستقبل البعيد، واستولت علي الكراهية للسهوب وللشمس وللذباب....

وأحضرت فلاحة أوكرانية تضع وشاحًا صينية الشاي، ثم السماور. وخرج الأرمني بترو إلى الممر وصاح:

- ماشيا، تعالي وصبّي الشاي! أين أنت؟ ماشيا.

وسُمع وقع خطوات مستعجلة، ودخلت الغرفة فتاة قرابة السادسة عشرة بثوب قطني بسيط ووشاح أبيض. وكانت تدير ظهرها لي وهي تغسل الأواني الفخارية وتصب الشاي، وكل ما رأيته أنها نحيلة الجسم وحافية القدمين، وأن كعبيها العاريين مغطيان ببنطال طويل.

ودعاني الأرمني لشرب الشاي. وعند جلوسي إلى المنضدة، ألقيت نظرة على الفتاة التي كانت تناولني كوب الشاي، وشعرت على الفور كأن ريحًا تهب على روحي فتنفخ كل انطباعات اليوم بغبارها وكآبتها. لقد رأيت القسمات الساحرة لأجمل وجه قابلته في حياتي الواعية أو في أحلامي. لقد وقفت أمامي فاتنة، وأدركت ذلك من النظرة الأولى كما أدركت البرق.

أنا على استعداد أن أقسم أن ماشا.. أو كما دعاها أبوها ماشيا [٦٥].. قد كانت فاتنة بحق، لكنني لا أعرف كيف أثبت ذلك. يحدث أحيانًا أن تتجمع الغيوم معًا في اضطراب في الأفق، وتختبئ الشمس وراءها فتلونها هي والسماء بكل ألوان الطيف.. الأحمر، والبرتقالي، والذهبي، والأرجواني، والوردي الداكن. وتصبح سحابة مثل الراهب، وأخرى مثل السمكة، وثالثة مثل تركي بالعمامة. ويتوهج الغروب الذي يلف ثلث السماء ويلمع على صليب الكنيسة، ويومض على نوافذ العذبة، وينساب على النهر والبرك، ويرتعش فوق الأشجار. وعلى مسافة بعيدة جدًا عن لوحة الغروب، كان سرب من البط البري يرفرف عائدًا إلى البيت... والصبي يقود قطيع الأبقار، والمساح يقود عربته فوق السد، والسيد يتمشى للتنزه، والجميع يمعن النظر في غروب الشمس، ويرونه جميلًا بشدة، ولكن لا أحد يعرف أو بإمكانه القول بماذا يكمن جماله.

لم أكن الوحيد الذي رأى أن الفتاة الأرمينية فاتنة. فجدي، العجوز الذي يبلغ السبعين عامًا، الخشن وغير المبالي بالنساء وجمال الطبيعة، ظل يحدّق بلطف في ماشا دقيقة كاملة، وسأل:

- هل هذه ابنتك يا أفيرت نازاريتش؟

وأجاب الأرميني:

- نعم، ابنتي.

وقال جدي معجبًا:

- آنسة طيبة.

يمكن لفنان أن يطلق على جمال الفتاة الأرمنية بالجمال الكلاسيكي والحاد، كان ذاك الجمال الذي يلهم المرء في تأمله - والله يعلم لماذا! - بقناعة راسخة أنه يرى ملامحًا سوية. ذاك الشعر، والعينان، والأنف، والفم، والعنق، والصدر، وكل حركة من الجسم الصغير، كلها تتجانس معًا بانسجام متناغم تام بحيث لم تخطأ الطبيعة فيه ولو بأصغر تفصيل. ويخيل إليك لسبب ما أن المرأة الجميلة المثالية يجب أن يكون لها أنف مثل ماشا، مستقيم ومعقوف قليلًا، ومثل هذه العينين الداكنتين الواسعتين، ومثل هذه الرموش الطويلة، وهذه النظرة الرقيقة. يخيل إليك من شعرها الأسود المجعد وحاجبيها اللذين

---

[٦٥] في الروسية بالأصل لا يوجد اسم «ماشيا» وإنما «ماشا» وهو تدليل لاسم «ماريا». ويبدو أن استخدام الشخصية هنا لاسم ماشيا هو دلالة على اختلاف اللكنة أو ما شابه. المترجم

ينسابان مع الظل الأبيض الرقيق لجبينها وخديها كما ينساب القصب الأخضر مع الغدير الهادئ. ورقبة ماشا البيضاء وصدرها الفتي غير مكتمل النمو، لكن يخيل إليك أن النحات سيحتاج إلى عبقرية عظيمة خلاقة. وأنت تختلس النظر، تأتيك شيئا فشيئا الرغبة أن تقول شيئًا لماشا، شيء لطيف غير عادي، وصادق، وجميل مثل جمالها.

في البداية شعرت بالألم والخجل من أن ماشا لم تعرني انتباهًا، بل كانت طوال الوقت تتطلع للأرض، وبدا لي كما لو أن هواء غريبًا، فخورًا وفرحًا، أبعدها عني بحسد وحجبها عن عيوني.

وفكرت «ذاك لأنني مغطى بالغبار، ومحروق من الشمس، ولأنني ما زلت ولدًا».

لكنني نسيت نفسي شيئًا فشيئًا، واستسلمت تمامًا للشعور بالجمال. فلم أعد أفكر الآن بالسهوب الكئيبة، ولا في الغبار، ولم أعد أسمع طنين الذباب، ولم أعد أستطعم الشاي، ولم أشعر بشيء سوى أن فتاة فاتنة تقف على الجانب الآخر من المنضدة.

وأحسست بهذا الجمال بشكل غريب. لم تكن ماشا تثير في نفسي الرغبة، ولا النشوة، ولا المتعة، بل حزنًا مؤلمًا وإن كان لطيفًا. كان الحزن غامضًا ومجهولًا كالحلم. وشعرت بالأسى لسبب ما على نفسي، وعلى جدي، وعلى الأرمني، وحتى على الفتاة نفسها، وتملكني شعور كأنما نحن الأربعة قد فقدنا شيئًا مهمًا وضروريًا للحياة ولن نجده مرة أخرى أبدًا. وجدي أيضًا، ازداد حزنًا. ولم يعد يتحدث عن السماد أو الشوفان، بل جلس في صمت، وكان يختلس النظر بتأمل إلى ماشا.

وبعد الشاي، تمدد جدي للقيلولة، بينما خرجت أنا إلى مدخل البيت. كان البيت مثله مثل كل البيوت في القرية الأرمنية يقبع تحت أشعة الشمس. لم تكن هناك شجرة، ولا كنّة ولا ظل. وكان الحوش الأرمني الكبير، المغطى بأعشاب قدم الإوز والخبّاز البري مفعمًا بالحيوية ومليئًا بالبهجة رغم الحر الشديد. وكان البيدر مستمرًا خلف إحدى الحواجز المنخفضة التي تتقاطع مع الحوش الكبير هنا وهناك. وحول عمود موضوع في منتصف أرض البيدر ركضت عشرات الخيول المسخرة جنبًا إلى جنب، مشكلين نصف دائرة طويلة. ومشى أوكراني يرتدي صدرية طويلة وسروالًا بجانبهم وهو يفلق بالسوط ويصرخ بلهجة بدت وكأنه يتهكم بالخيول ويستعرض قوته عليهم:

- حاااا، يا بهائم يا ملاعين!.. حاااا، ليأخذكم الطاعون! تشعرون بالخوف؟

كانت الخيول السمراء، والبيضاء، والبلقاء، لا تفهم لماذا تجبر أن تدور في مكان واحد وتسحق قش القمح، وركضت بلا رغبة كما لو كان ذلك فوق طاقتها، متأرجحة بذيولها بجو مستاء. وأحدثت الرياح سحبًا كاملة من القش الذهبي من تحت حوافرها وحملتها بعيدًا عن الحاجز. وبالقرب من الأكوام الجديدة الطويلة، تزاحمت الفلاحات بالمدمات، وتحركت العربات، وخلف الأكوام في ساحة أخرى، دارت عشرات الخيول المماثلة حول عمود آخر، وفلق أوكراني مشابه بسوطه وهو يتهكم بالخيول.

كانت الدرجات التي كنت أجلس عليها ساخنة، وعلى الدرابزين الرقيقة وهنا وهناك على إطارات الشبابيك أفرز الخشب نُسغًا من الحر، وتجمعت الخنافس الحمراء في خطوط الظل تحت الدرجات

وتحت الشبابيك. كانت الشمس تحرق رأسي، وصدري، وظهري، لكنني لم أهتم بذلك، ولم أكن على دراية سوى بوقع الأقدام العارية على الأرضية غير المستوية في الممر والغرف التي خلفي. وبعد أن أخذت ماشا عدة الشاي، نزلت تركض على الدرج، ونسمّ الهواء أثناء مرورها، وورفرف مثل طائر نحو مبنى خارجي متسخ قليلًا - أعتقد أنه المطبخ - وخرجت منه رائحة الضأن المشوي وصوت كلام غاضب بالأرمنية. واختفت في المدخل المظلم، وظهرت مكانها على العتبة المظلمة امرأة أرمنية عجوز بوجه أحمر وترتدي سروالًا أخضر. كانت العجوز غاضبة وتوبخ شخص ما. وبعد ذلك بقليل، ظهرت ماشا عند العتبة، متوردة من حر المطبخ وتحمل رغيفًا أسود كبيرًا على كتفها، وتتمايل برقة من ثقل الخبز، وركضت عبر الحوش إلى أرض البيدر، ثم عبرت من الحاجز، واختفت وراء سحابة من القش الذهبي، خلف العربات. أخفض الأوكراني الذي كان يقود الخيول سوطه، وغرق في الصمت، وحدق دقيقة نحو العربات. وعندما عبرت الفتاة الأرمنية من جديد قرب الخيول وقفزت فوق الحاجز، تتبعها بعيونه، وصرخ على الخيول بلهجة كما لو أنه يشعر بخيبة أمل كبيرة:

- الطاعون يأخذكم، أيها الشياطون النجسون!

وكنت طوال الوقت أصغي لوقع قدميها دون توقف، وأرى كيف سارت عبر الساحة بوجه جاد ومشغول البال. وتنزل الآن راكضة على الدرجات، فتحفّ الهواء بالقرب مني، وتارة إلى المطبخ، ومرة إلى أرض البيدر، وتارة إلى البوابة، وأنا بالكاد أستطيع أن أدير رأسي بسرعة تكفي لأراها.

وكثيرًا ما رفرفت بجواري بجمالها، وأصبح حزني أكثر حدة. وشعرت بالأسف عليها وعلى نفسي وعلى الأوكراني، الذي تطلع إليها بحزن في كل مرة تمر عبر سحابة من القش نحو العربات. وسواء كان ذلك غيرة من جمالها، أو شعور بالأسف لأن الفتاة لم تكن لي، ولن تكون أبدًا، أو لأنني كنت غريبًا عنها، أو ما إذا أحسست بغموض أن جمالها النادر كان عرضيًا وغير ضروري، ومثل كل شيء على وجه الأرض، مآله الزوال، أو لربما كان حزني هو ذلك الشعور الغريب الذي يثار في الإنسان من التأمل في الجمال الحقيقي، الله وحده أعلم.

مرت ثلاث ساعات من الانتظار دون أن أحس بها. وخيل إلي أنه ليس عندي وقت لأتطلع إلى ماشا كما ينبغي في حين مضى كاربو إلى النهر، وحمم الحصان، وبدأ بوضع نير العربة عليه. وشخر الحصان المبلل بمرح ورفس بحوافره على النير. وصاح عليه كاربو: «تا اع!» واستيقظ جدي. وفتحت ماشا لنا البوابات ذات الصرير، وصعدنا إلى العربة وخرجنا من الفناء. وذهبنا بصمت وكأننا غاضبين من بعضنا البعض.

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات، عندما ظهرت روستوف وناخيتشيفان على مسافة بعيدة، التفت كاربو، الذي كان صامتًا طوال الوقت، ونظر بسرعة، ثم قال:

- فتاة طيبة تلك التي عند الأرمني!

وضرب بالسوط على خيوله.

(2)

ومرة أخرى، بعد أن صرت طالبًا، كنت مسافرًا بالقطار إلى الجنوب.

كان ذلك في شهر مايو. وفي إحدى المحطات، أظن أنها كانت بين بيلجورود وخاركوف، خرجت من المقصورة لأتمشى على الرصيف.

كانت ظلال المساء تستلقي فوق حديقة المحطة، وعلى الرصيف، وفوق الحقول. وحجبت المحطة غروب الشمس، ولكن من أعلى السحب الدخانية المنبعثة من القاطرة، والتي كان يشوبها ضوء وردي، يمكن للمرء أن يرى أن الشمس لم تغب بعد تمامًا.

ولاحظت بينما أنا أمشي جيئة وذهابًا فوق الرصيف، أن أكثر الركاب يقفون أو يتمشون بالقرب من مقصورة من الدرجة الثانية، وبدا من وجوههم وكأن هناك شخصية مشهورة يحتفون بها في تلك المقصورة.. ومن بين الغرباء الذين قابلتهم بالقرب من هذه المقصورة رأيت أيضًا ضابطًا بالمدفعية كان رفيقي بالسفر. رجل ذكي، ودود، ولطيف... مثل كل الناس الذين نلتقيهم في رحلاتنا بالصدفة غالبًا ولا تدوم أواصر المعرفة طويلًا.

وسألته:

- إلى ماذا تحدق هناك؟

ولم يرد بأي جواب، بل أشار بعينيه فقط إلى قامة نسائية. وكانت شابة في السابعة أو الثامنة عشرة، ترتدي ثوبًا روسيًا، منحنية الرأس وتضع شالًا صغيرًا مرمي على كتفيها، لم تكن مسافرة، بل أظن أنها أخت أو ابنة مدير المحطة. وكانت تقف بالقرب من نافذة المقصورة، وتتحدث إلى امرأة مسنة جالسة في القطار. وقبل أن يتاح لي الوقت لأدرك ما تراه عيناي، شعرت فجأة بالذهول من الإحساس الذي سبق أن مررت به في القرية الأرمنية.

كانت الفتاة فاتنة بشكل يلفت النظر، وكان ذلك واضحًا لي ولأولئك الذين كانوا ينظرون إليها كما كنت أنظر.

إن كان على المرء أن يوصف شكلها بالسمات كما هو المعتاد، فإن الشيء الوحيد الجميل بحق هو شعرها الأشقر المتموج الكثيف، والذي كان متدليًا ومعقودا بشريط أسود حول رأسها، أما الملامح الأخرى فكانت إما معيبة أو عادية جدًا. ربما من طريقة الدلال الغريبة، أو بسبب الحسور كانت عينيها مشدودة، وأنفها مائل، وفمها صغير، وكان مظهرها الجانبي مرسوم بشكل ضعيف وباهت، وكانت أكتافها ضيقة وغير متناسقة مع عمرها.. ومع ذلك فقد تركت الفتاة انطباعًا عن فاتنة حقيقية، وتملكتني قناعة وأنا أتطلع إليها بأن الوجه الروسي لا يحتاج إلى دقة صارمة ليكون جميلًا؛ بل أكثر من ذلك أنه لو كان لها بدلًا من أنفها المعقوف، أنف آخر مختلفً مستقيم ولا عيب فيه تمامًا مثل أنف الفتاة الأرمنية، فإنني أتصور أن يفقد وجهها كل سحره من التغيير.

كانت الفتاة واقفة عند النافذة تتحدث وترتعش من رطوبة المساء، وتلتفت باستمرار وتنظر إلينا، ومرة تضع يديها على خصرها، وأخرى ترفعها على رأسها لتسوي شعرها، وتكلمت، وضحكت، بينما أخذ وجهها يلبس تعبير التساؤل تارة، وتعبير الذعر تارة أخرى، ولا أتذكر لحظة أن عبّر وجهها وجسدها عن الراحة. إن كل سر جمالها وسحره يكمن في هذه الحركات الصغيرة الأنيقة اللا متناهية، في ابتسامتها، في التلاعب بتعابيير وجهها، في استراق نظراتها إلينا، وفي مزيج الرشاقة الدقيقة لحركاتها الفتية، في نقائها، وصفاء روحها التي تراءت في ضحكها وصوتها، وفي الوهن الذي نهواه في الأطفال، والطيور، والظبيان، والشجيرات الصغيرة.

كان جمالًا فراشيًا يتناغم مع رقص الفالز، والركض في البستان، والضحك والبهجة، ويتعارض مع التفكير الجاد، والحزن والهدوء، وبدا لو أن صبا من الرياح هبَّ فوق الرصيف، أو تساقط المطر، فسيكفي ليذبل هذا الجسم الهش ويتشتت الجمال المتقلب مثل غبار الزهور.

وتمتم الضابط متنهدًا عندما عدنا بعد الجرس الثاني إلى مقصورتنا:

- هكذا.. !!!

وماذا تعني «هكذا..!!!» هذه فليس بوسعي أن أقرر.

لربما كان يشعر بالحزن ولم يرغب في الابتعاد عن الفاتنة والأمسية الربيعية إلى القطار الخانق، أو لربما كان مثلي يشعر بالأسى لسبب مجهول على الفاتنة، وعلى نفسه، ونفسي أنا، وعلى كل المسافرين العائدين بتراخ وتردد إلى مقصوراتهم. وحين مررنا من نافذة المحطة، التي كان يجلس فيها موظف تلغراف شاحب بشعر أحمر، وخصلات منتصبة ووجه باهت وبارز الخدين بجانب أجهزته، وتنهد الضابط، ثم قال:

- أراهن أن عامل التلغراف يهوى تلك الفتاة الفاتنة. إن العيش في البرية تحت سقف واحد مع ذلك المخلوق الأثيري وعدم الوقوع في الحب لأمر يفوق قوة الإنسان. ويا لها من مصيبة يا صاحبي! ياله من مصير مثير للسخرية أن تكون محدوب الظهر، أشعث، أشيب، رجل محترم وغير أحمق، وأن تهوى تلك الفتاة الصغيرة الفاتنة البلهاء التي لن تمنحك أيّ انتباه! أو ما هو أسوأ من ذلك، تخيل أن موظف التلغراف واقع في العشق، ومتزوج في نفس الوقت، وأن زوجته محدوبة الظهر، وشعثاء، وإنسانة محترمة مثله... يا للعذاب!

وعلى الرصيف بين عربتنا وعربة قادمة وقف الحارس مسندًا مرفقيه على السور وهو يتطلع لجهة الفتاة الفاتنة، ووجه مكدود، متجعد، وسمين على نحو كريه، ومنهك من الليالي التي لا ينام فيها ومن اهتزاز القطار، وارتسمت عليه نظرة حنان وحزن عميق، كما لو أنه رأى في تلك الفتاة سعادته، وشبابه، والرزانة، والطهارة، والزوجة، والأطفال، كما لو أنه يتأسف ويشعر بكل روحه أن تلك الفتاة ليست له، وأنه مع تقدمه في العمر السابق لأوانه، وفظاظته، ووجهه السمين، فإن السعادة العادية لأي رجل وأي مسافر بعيدة كالسماء....

وضرب الجرس بالرنة الثالثة، واعتلت الصفارات، وتحرك القطار ببطء. ومر من أمام نوافذنا الحارس أولا، ثم مدير المحطة، ثم البستان، ثم الفتاة الفاتنة بابتسامتها اللطيفة الرائعة الماكرة...

وأخرجت رأسي وأنا أتطلع إلى الوراء، ورأيت كيف كانت تراقب القطار، وسارت على طول الرصيف بجانب النافذة التي كان يجلس فيها موظف التلغراف، وسوّت شعرها، ثم هرعت إلى البستان. ولم تعد المحطة تحجب غروب الشمس، فقد أصبح السهل مكشوفًا أمامنا، لكن الشمس كانت قد غربت وتمدد الدخان في سحابات سوداء فوق نبات الذرة الفتية الخضراء المخملية. وساد الحزن في الجو الربيعي، وفي السماء المظلمة، وفي عربة القطار.

ودخلت القامة المألوفة للحارس، وبدأ في إشعال الشموع.

إنهيار عصبي [٦٦]

[٦٦] نشرت القصة لأول مرة في عام ١٨٨٩ موقعة باسم «أنطون تشيخوف». المترجم

(1)

ذهب طالب طب يدعى «ماير» وطالب كلية موسكو للرسم والنحت وفن العمارة يدعى «ريبنيكوف» ذات مساء لرؤية صديقهما «فاسيليف» طالب الحقوق، واقترحا عليه الذهاب معهما إلى شارع (س). ولمدة طويلة لم يكن فاسيليف يوافق على الذهاب، لكنه في النهاية ارتدى المعطف الثخين وذهب معهما.

لم يكن يعلم شيئًا عن النساء الساقطات إلا من الأقاويل والكتب، ولم يسبق قط في حياته أن كان في المنازل التي يسكنّ فيها. كان يعلم أن هناك نساء عديمات الأخلاق، يُجبرن على بيع شرفهن مقابل المال تحت ضغط الظروف القاتلة، والبيئة، والتعليم السيء، والفقر، وما إلى ذلك. إنهنَّ لا يعلمن شيئًا عن الحب النقي، ليس لديهنّ أطفال، ولا يمتلكن حقوقًا مدنية، وتبكي أمهاتهن وأخواتهن عليهن كما لو كنَّ أمواتًا. العالم يعاملهن كشر، والناس يخاطبونهن بألفة مزدرئة. لكن على الرغم من كل ذلك، فهن لم يخسرن الإيمان الذي في قلوبهن، وجميعهن يعترفن بخطيئتهن ويأملن بالخلاص. ومن السبل التي تؤدي إلى الخلاص أنهنّ قادرات أن ينتفعن بأنفسهن إلى أقصى حد. المجتمع، صحيح، إنه لن يغفر للناس ماضيهم، لكن مريم المصرية لم تكن في نظر الإله أقلّ مكانة من القديسين الآخرين.

عندما يحدث لفاسيليف أن يتعرف على امرأة فاسقة من هذا القبيل في الشارع من لباسها أو سلوكها، أو برؤية صورة على ورقة مجلة، كان يتذكر على الداوم قصة قد قرأها ذات مرة عن شاب نقي وطيب القلب يعشق امرأة فاسقة ويحضها على أن تصبح زوجته، وهي تعتبر نفسها لا تستحق مثل هذه السعادة وتتجرع السم.

كان فاسيليف يسكن في إحدى الأزقة التي تنتهي إلى شارع تفرسكايا. وحين غادر المنزل مع أصدقائه كانت الساعة بحدود الحادية عشر. ولم يستمر السقوط الأول للثلج طويلًا، وكانت الطبيعية بأسرها تحت سحر الثلج المنعش. وفاحت رائحته في الهواء، وتفتت بنعومة تحت الأقدام. الأرض، الأسطح، الأشجار، والمقاعد المركونة على الجادة، كل شيء كان ناعمًا، أبيضًا، وفتيًا، وهذا ما جعل من البيوت تبدو مختلفة قليلًا عن يوم الأمس، وأضاءت مصابيح الشارع ببهاء أكثر، وصار الجو أكثر نقاءً، وقرقعت العربات بسيمفونية غائرة، وأثار الانتعاش والضوء والهواء البارد اللاذع في الروح شعورًا شبيهًا بالثلج الأبيض، الفتي، الريشي.

ودندن طالب الطب:

- «قوة مجهولة ضد إرادتي، دفعتني إلى هذه الشواطئ الحزينة [٦٧]»

وأتبعه الفنان:

---

٦٧ من الأوبرا الروسية «روسالكا» للملحن الروسي "ألكساندر دارغومسكي» (١٨١٣-١٨٦٩). كان أول عرض لها عام ١٨٥٦. المترجم

- «خلف الطاحونة.... على أطلال الحاضر».

وردد طالب الطب وهو يرفع حاجبيه ويهز رأسه بحزن:

- «خلف الطاحونة... على أطلال الحاضر».

وتوقف قليلًا وحاول أن يتذكر الكلمات ثم غنى بصوت عال لدرجة أن المارة التفتوا عليه:

- «هنا في الأيام الخوالي عندما كنت حرًا،.. الحب، الحرية، بلا قيود رحَبوا بي».

ودخل الثلاثة إلى إحدى المطاعم، وشرب كل منهم كأسين من الفودكا دون أن يخلعوا معاطفهم. وقبل شرب الكأس الثاني، لاحظ فاسيليف وجود بعض الفلين في كأسه، ورفع الكأس إلى عينيه وحدّق فيها لفترة طويلة وهو يجهد على عينيه الضعيفة البصر. ولم يفهم طالب الطب تعبيره، وقال:

- هيا، لماذا تحدق فيها؟ بلا فلسفة أرجوك. إن الفودكا تجعلنا نسكر،.. الستيرجون [٦٨] الذي سنأكله، النساء اللاتي سنزورهن، الثلج الذي سنتمشى فوقه، عش كما يعيش البشر ليلة واحدة على الأقل!

قال فاسيليف ضاحكًا:

- لكنني لم أقل شيئًا... وهل أنا أرفض ذلك؟

كان هناك دفء بداخله من الفودكا. وتطلع بنظرات عطف إلى صديقيه، وأضمر في نفسه إعجاب بهما وحسدهما. كم كل شيء متماثل في هذين القويين والصحيحين والمبتهجين بصورة رائعة، وكم كل شيء رغيد ومنصرم في عقليهما وروحيهما! إنهما يغنيان، وعندهما شغف بالمسرح ويرسمان، ويتحدثان كثيرًا، ويشربان، وليس لديهما صداع في اليوم التالي. كلاهما شاعري وفاسد، كلاهما لطيف وجريء، وبإمكانهما أن يعملا أيضًا ويكونان ساخطين، ويضحكان بلا سبب، ويتحدثان كلامًا فارغ. إنهم صادقان ومضحيان بأنفسهما، وبما أن الناس ليسوا بأي حال من الأحوال أدنى منه منزلة هو الذي يراقب كل خطوة قام بها وكل كلمة ينطقها، والذي كان صعب الإرضاء ومحترسا، ومستعدا لخلق مشكلة من كل أمر تافه. لقد تاق أن يعيش ليوم واحد كما يعيش أصدقائه، للإنفتاح، لأن يسمح لنفسه أن تخرج عن سيطرته. وإن كانت الفودكا ستسكره فسيشربها، ولو أن رأسه سيُشق في صباح اليوم التالي. وإذا تم اصطحابه إلى النساء فسيذهب. وسيضحك، ويلعب دور الأحمق، ويستجيب بمرح للمغازلات العابرة من المارة في الشارع....

وخرج من المطعم ضاحكًا. فلقد أحب أصدقائه.. واحد مدفون تحت قبعة عريضة الحواف مع رثاثة الهندام التي عند الفنانين، والثاني بقبعة من جلد الفقمة، ليس رجلًا فقيرًا على الرغم من تأثره ببوهيما التعليم. لقد أحب الثلج، ومصابيح الشوارع الخافتة، وآثار الأقدام السوداء التي تركتها أقدام المارة بعد

---

[٦٨] نوع من أنواع السمك.المترجم

أول سقوط للثلج. لقد أحب الهواء، وخاصة ذاك النقي، الرقيق، اللطيف، كما لو أنه مسحة عذرية لا يمكن رؤيتها في الطبيعة إلا مرتين في العام.. حين يكون كل شي مغطى بالثلوج، وفي فصل الربيع في الأيام الصافية وأمسيات القمر عندما يتكسر الجليد على النهر.

ودندن بصوت خافت:

- «قوة مجهولة ضد إرادتي،

دفعتني إلى هذه الشواطئ الحزينة».

كان اللحن يطارده لسبب ما هو وأصدقاؤه طوال الطريق، وثلاثتهم رددوه معًا بشكل تلقائي وبصورة متقطعة.

كان تصور فاسيليف هو كيف أنه بعد عشرة دقائق، سيقرع الباب هو وأصدقائه، وكيف سيمشون في الممرات المظلمة والغرف المعتمة إلى النساء، وكيف سيستفيد من الظلمة ويشعل عود ثقاب ليرى وجه الضحية وابتسامتها المذنبة.من غير المعروف أنها ستكون شقراء أو سمراء، ولكن المؤكد أن شعرها سيتدلى على الثوب الأبيض، وستكون مذعورة من الضوء وستقول: «من أجل الله، ماذا تفعل! أبعده!» سيكون الأمر كله مروعًا، لكنه شيء جديد ومشوق.

(2)

تحول الأصدقاء من ميدان تروبنايا إلى غراتشيفكا، وسرعان ما وصلوا إلى الشارع الجانبي الذي عرفه فاسيليف من سمعته فقط. ووقف وهو يرى صفين من البيوت المضاءة شبابيكها بألوان زاهية ومفتوحة أبوابها على مصراعيها، ويسمع أنغامًا شاذة من البيانوات والكمنجات، أصوات تعلو من كل باب وتختلط في بلبلة غريبة، كما لو أن هناك أوركسترا خفية تضبط إيقاعها في الظلام فوق السقوف، وتفاجئ فاسيليف وقال:

- يا لها من بيوت كثيرة!

وقال طالب الطب:

- هذه لا شيء. يوجد عشرة أضعاف من هذه البيوت في لندن. وحوالي مائة ألف من تلك النساء.

كان الحوذيون يجلسون على صناديقهم بهدوء وبلا مبالاة كما في أي زقاق آخر، ونفس المارة يسيرون على طول الرصيف كما هو الحال في الشوارع الأخرى. لم يكن أحد على عجلة، ولا أحد يخفي وجهه بمعطفه، ولا أحد يهز رأسه من تأنيب الضمير.. وفي هذه اللامبالاة إلى الجلبة الصاخبة من البيانوات والكمنجات، إلى الشبابيك المضيئة والأبواب المفتوحة على مصراعيها، كان هناك شعور بشيء علني للغاية، شيء وقح وأهوج، وكأن الشيطان يرعاه. أغلب الظن أن مثل هذا الشذوذ والصخب موجود في سوق العبيد في يومهم، وقد أظهرت وجوه الناس وحركاتهم اللامبالاة نفسها.

وقال الفنان:

- لنبدأ من البداية.

ودخل الأصدقاء إلى ممر ضيق مضاء بفانوس عاكس. وعندما فتحوا الباب استيقظ رجل بمعطف أسود، ووجه غير حليق مثل وجوه الخدم، ونهض والنعاس في عينيه بتكاسل من على أريكة صفراء في الردهة. كانت رائحة المكان تشبه رائحة غسيل ممزوج بالخل. وكان هناك باب يقود إلى غرفة مضاءة بسطوع. وتوقف طالب الطب والفنان عند عتبة الباب، واسترقا النظر وهما يمدان رقبتيهما إلى الغرفة.

وبدأ الفنان بإنحناءة مسرحية:

- مساء الخير يا سادة [٦٩]، ريجوليتو.. هوجنوتي.. ترافياتا [٧٠].

---

[٦٩] بالإيطالية في الأصل. المترجم

[٧٠] أسماء من الأوبرا الإيطالية يستخدمها المتحدث للتأثير الكوميدي. المترجم

وقال طالب الطب وهو يضغط بقبعته على صدره منحنيًا:

- هافانّا.. تاراكانو.. بيستوليتو.

كان فاسيليف يقف خلفهما. لقد ود أن يقدم عرضًا مسرحيًا ويقول شيئًا سخيفًا أيضًا، لكنه ابتسم فقط، وشعر بحرج أشبه بالعار، وانتظر بفارغ الصبر ما سيحدث بعد ذلك.

وظهرت عند المدخل فتاة صغيرة شقراء في السابعة أو الثامنة عشرة، بشعر قصير، وفستان قصير أزرق فاتح وعقدة من الأشرطة على صدرها.

وقالت:

- لماذا تقفون عند الباب؟ اخلعوا معاطفكم وتفضلوا إلى غرفة الجلوس.

ودخل طالب الطب والفنان ولا زالا يتحدثان الإيطالية إلى غرفة الجلوس. وتبعهم فاسيلييف بتردد.

وقال الخادم بصرامة:

- اخلعوا معاطفكم أيها السادة! لا يمكنكم الدخول بهذا الشكل.

وكانت هناك امرأة أخرى إلى جانب الفتاة في غرفة الجلوس، بدينة للغاية وطويلة القامة، وقسمات وجه أجنبي وذراعين عاريتين. وكانت تجلس بالقرب من البيانو واضعة أوراق اللعب في حضنها. ولم تعر أيّ اهتمام للزوار.

وسأل طالب الطب:

- أين هنّ بقية الآنسات؟

وقالت الفتاة الشقراء:

- إنهنّ يشربن الشاي ستيبان! اذهب وأخبر الآنسات أن بعض الطلاب قد أتوا!

ودخلت بعد ذلك بقليل شابة ثالثة إلى الغرفة. وكانت ترتدي فستانًا أحمرا قانيا مخطط باللون الأزرق. كان وجهها مزيّن بكثافة ورداءة، وجبينها مختف تحت شعرها، وتحدق بعينيها بشكل مخيف دون أن ترمش. وما إن دخلت حتى بدأت على الفور بغناء أغنية ما بكونترالتو [٧١] خشن وقوي. وبعدها ظهرت فتاة رابعة، ثم خامسة...

---

[٧١] بالإيطالية الأصل. وتعني غناء الأنثى بصوت خافت. المترجم

لم ير فاسيليف في كل هذا شيئًا جديدًا أو مشوقًا. وبدا له أن تلك الغرفة، والبيانو، والمرآة ذات الإطار الذهبي الرخيص، وعقدة الأشرطة البيضاء، والفستان وخطوطه الزرقاء، والوجوه الباهتة الغير مبالية، قد رآها من قبل وأكثر من مرة. أما العتمة، والصمت، والتكتم، والابتسامة المذنبة، ومن كل ما كان يتوقع أن يراه هنا ويفزع فلم يرى له أي أثر.

كان كل شيء عاديًا، ركيكًا، ويبعث في النفس الضجر والشيء الوحيد الذي أثار فضوله...هي الفظاعة، وكما لو أن الجو مصمم عن قصد، الذوق الرديء في الأفاريز، وفي اللوحات السخيفة، وفي الفساتين، وفي عقدة الأشرطة. هناك شيء مميز وغريب في هذا الذوق السيء.

وفكر فاسيليف: «كم هو فقير وغبي كل هذا! ما الذي في كل هذه التفاهة التي أراها الآن ما يغري الرجل العادي ويثيره لارتكاب الخطيئة الرهيبة المتمثلة في شراء إنسان مقابل روبل؟ إنني أتفهم الخطيئة في سبيل العظمة، الجمال، الكياسة، الشغف، الذوق، لكن ماذا يوجد هنا ليستحق الإثم من أجله؟ لكن... لا ينبغي على المرء أن يفكر!».

وقالت الفتاة الشقراء مخاطبة فاسيليف:

- أيها الملتحي، أكرمني بقليل من البورت [٧٢].

واستولى الارتباك على فاسيليف على الفور.

وقال فاسيليف وهو ينحني بأدب:

- من دواعي سروري. ولكن عذرًا يا سيدتي، فأنا.... أنا لن أحتسي معكِ. فأنا لا أشرب الخمر.

وانصرف الأصدقاء بعد خمس دقائق إلى منزل آخر.

وقال طالب الطب بغضب:

- لماذا طلبت لها البوررت؟ يا له من مليونير! لقد رميت ستة روبلات بلا سبب.. مثل القمامة ببساطة!

وقال فاسيليف مبررًا لنفسه:

- إن كانت تريد ذلك، فلما لا أدعها تستمتع؟

---

[٧٢] نوع من أنواع البيرة المخمرة جيدًا التي يتم تطويرها في لندن. المترجم

- أنت لم تقدم لها المتعة، وإنما «للمدام» [٧٣]. لقدُطلب منهن أن يطلبن من الزائرين لأن في ذلك مربح لصاحب الشقة!

ودندن الفنان:

- «خلف الطاحونة.... على أطلال الحاضر»

وأثناء الدخول إلى المنزل التالي، توقف الأصدقاء عند الرواق ولم يدخلوا إلى غرفة الجلوس. وهنا، كالمنزل السابق، نهضت قامة بمعطف أسود، ووجه ناعس كوجوه الخدم من على الأريكة التي في الردهة. وفكر فاسيليف وهو يتطلع إلى هذا الخادم، وإلى وجهه ومعطفه الأسود المهترئ: «ما الذي على روسي بسيط وعادي أن يمر به قبل أن يرميه القدر كهذا الخادم هنا؟ أين كان من قبل وماذا فعل؟ ماذا الذي ينتظره؟ هل هو متزوج؟ أين والدته؟ وهل تعلم أنه يعمل خادمًا هنا؟».ولم يكن بمقدور فاسيليف أن يقدم مساعدة على وجه الخصوص لكل الخدم في المنازل. وفي أحد المنازل - الذي يظن أنه الرابع - كان هناك خادم نحيل قليلًا، وواهن القسمات بساعة ذات سلسلة على صدريته. وكان يقرأ جريدة، ولم يعرهم أي اهتمام عندما دخلوا. وبالنظر إلى وجهه، اعتقد فاسيليف، ولسبب ما، أن رجل مثل هذا الوجه قد يسرق، وقد يقتل، وقد يشهد زورًا. لكن الوجه كان مثيرًا للإهتمام حقًا: جبين كبير، عيون رمادية، أنف مسطح قليلًا، وشفاه مضغوطة رقيقة، وتعبير غبي بشكل صريح ووقح في الوقت نفسه مثل تعبير كلب الصيد الصغير الممسك بالأرنب البري. وفكر فاسيليف أنه سيكون من الجميل لمس شعر هذا الرجل ليرى ما إذا كان ناعمًا أم خشنًا. لكن لابد أن يكون خشنًا مثل شعر الكلب.

---

[٧٣] يُقصد المسؤولة عن الفتيات. المترجم

(3)

بعد شرب كأسين من البورت، أصبح الفنان منتشيًا فجأة ومفعمًا بحيوية غير طبيعية، وقال بشكل قاطع وهو يشيح بيديه:

- دعونا نذهب إلى منزل آخر! سوف آخذكما إلى أفضل منزل.

وعندما أحضر أصدقائه إلى المنزل الذي كان في رأيه أنه الأفضل، أعلن نيته برقص الكدريل [٧٤]. وتذمر طالب الطب لمسألة دفع روبل إلى الموسيقيين، لكنه وافق بعد ذلك على أن يتحداه بالرقص، وبدآ بالرقص.

كان الأمر سيئًا في المنزل الأفضل كما كان الحال في المنزل الأسوأ. وهنا أيضًا نفس المرايا ونفس اللوحات، ونفس تسريحات الشعر والفساتين. وأدرك فاسيليف وهو يتطلع إلى أثاث الغرف والأزياء بأن هذا لم يكن يفتقر إلى الذوق، بل شيئًا يمكن تسميته بالذوق، ولم يكن أبدًا كالنمط الموجود في شارع (س)، الذي لا يمكن رؤية مثله في مكان آخر.. شيء مقصود في قباحته وليس عرضيًا البتة، وقد تم تطويره على مدار السنوات. وبعد أن دخل إلى ثمانية منازل؛ لم يعد يتفاجئ بلون الألبسة، والأشرطة الزاهية، والفساتين التي تشبه ثياب البحارة، ومسحوق التجميل الأرجواني الكثيف على الخدود. لقد رأى أن كل ذلك يجب أن يكون على هذا النحو، ولو أن واحدة من النساء كانت تلبس كما يلبس البشر، أو كان هناك نقش واحد لائق على الحائط؛ فإن الطبقة العامة في الشارع كله ستعاني.

وفكر فاسيليف: «كيف يبيعون أنفسهم برداءة! ألا يستطيعون أن يفهموا أن الرذيلة تكون مغرية فقط عندما تكون جميلة ومتخبئة، وحين ترتدي قناع الفضيلة؟ الفساتين السوداء المتواضعة، والابتسامات الحزينة، والعتمة ستكون أكثر تأثيرًا من هذه البهرجة الخرقاء. يا لها من أشياء غبية! وإن لم يفهموا الأمر بأنفسهم فربما سيعلّمهم زوارهم..».

وجاءت سيدة شابة ترتدي فستانًا بولنديًا ذو فرو أبيض، وجلست بجانبه.

وسألته:

- إنك رجل أسمر ولطيف، لماذا لا ترقص؟ لما أنت ممل هكذا؟

- لأن الجو ملل.

- أكرمني بالقليل من اللافيت [٧٥]. ولن يعود الجو مملًا.

---

[٧٤] رقصة رباعية يقوم بها أربعة أزواج على خمسة أشكال، كل منها رقصة كاملة في حد ذاتها. المترجم

[٧٥] " بالفرنسية في الأصل، وهو من أغلى أنواع النبيذ الأحمر في العالم. المترجم

ولم ينطق فاسيليف بأي إجابة. وبقي صامتًا لمدة، ثم سأل:

- في أي وقت تذهبن للنوم؟

- عند الساعة السادسة.

- وفي أي وقت تستيقظن؟

- أحيانًا في الثانية، وفي بعض الأحيان في الثالثة.

- وماذا تفعلنَ عندما تنهضن؟

- نشرب القهوة، وعند السادسة نتناول العشاء.

- وماذا تتناولن على العشاء؟

- عادة ما يكون حساءً وشرائح من اللحم والحلوى.. سيدتنا تهتم بالفتيات جيدًا. ولكن لماذا تسأل عن كل هذا؟

- أوه، للتحدث فقط...

كان فاسيليف يتوق للتحدث مع الشابة حول أشياء كثيرة، وشعر برغبة شديدة في معرفة من أين أتت، وما إذا كان والداها على قيد الحياة، وما إذا كانا يعلمان أنها هنا،و كيف دخلت إلى هذا البيت، وما إذا كانت سعيدة وراضية، أم حزينة وتتعذب بأفكار كئيبة، وما إذا كانت تأمل في يوم من الأيام بالخروج من وضعها الراهن... لكنه لم يستطع التفكير كيف يبدأ أو في الطريقة المناسبة لطرح أسئلته دون أن يبدو وقحًا، وفكر لفترة طويلة، ثم سأل:

- كم عمرك؟

ونكتت الشابة وهي تتطلع ضاحكة إلى حركات الفنان الهزلية وهو يرقص:

- ثمانون

وانفجرت تضحك على الفور على شيء ما، وتلفظت بجملة تنم عن انعدام الضمير بصوت عال كان كافيًا لأن يسمعه الجميع. وأحس فاسيليف بالذهول، ولم يكن يعرف أين يذهب بنظراته، وأبدى ابتسامة مرغمًا. كان هو الوحيد الذي ابتسم. أما الآخرون،وأصدقائه، والموسيقيين، والنساء فلم يلقوا نظرة على جارته، كما لو أنهم لم يسمعوها.

وقالت جارته مجددًا:

- أكرمني بالقليل من نبيذ لافيت.

وشعر فاسيليف بالاشمئزاز من فرائها الأبيض ومن صوتها وابتعد عنها. بدا له الجو حارًا وخانقا، وبدأ قلبه ينبض رويدًا ولكن بعنف مثل المطرقة... واحد! اثنان! ثلاثة!

وقال وهو يسحب الفنان من كمّه:

- لنذهب من هنا!

- انتظر قليلًا، دعني أنهي الرقصة.

وبينما كان الفنان وطالب الطب ينهيان رقصة الكدريل، وليتجنب النظر إلى النساء، حدق فاسيليف صوب الموسيقيين. رجل مسن محترم المظهر يضع نظارة مثل المارشال بازين [٧٦]، ويعزف على البيانو. وشاب ذو لحية شقراء يرتدي أحدث صيحات الموضة، ويعزف على الكمان. لم يبدو على وجه الشاب أنه أبله أو نافد، بل ذكي، وفتيّ، وناضر.

كان هندامه يفوق الوصف وينمّ عن ذوق، وكان يعزف بإحساس. وكان اللغز هو ما الذي جاء به هو والرجل العجوز المحترم المظهر إلى هنا. كيف لم يخجلا من الجلوس هنا؟ وبماذا يفكران عندما يتطلعان إلى النساء؟.

لو كان البيانو والكمان اللذان يعزفان عليهما مجرد قطع قماش، ولو بدا أنهما جائعان، وكئيبان، وفي حالة سكر، ووجوهما مبددة أو غبية لكان من الممكن فهم وجودهما. ربما، وكما كان، لم يستطع فاسيليف أن يفهم الأمر على الإطلاق. وتذكر قصة المرأة الساقطة التي قرأها ذات مرة، وأصبح يدرك الآن أن هذه الصورة الإنسانية ذات الإبتسامة المذنبة لا تشترك بشيء مع ما يراه الآن. وبدا له أنه لم يكن يرى نساء سيئات، بل عالم مختلف وبمعزل تمامًا، وغريب عنه وغير مفهوم، ولو أنه شاهد هذا العالم على منصة المسرح من قبل أو قرأ عنه في كتاب لما آمن به.

وانفجرت المرأة ذات الفراء الأبيض ضاحكة مرة أخرى، وتلفظت بجملة مقرفة بصوت عال، وأخذ الشعور بالاشمئزاز يتملك كيانه، واحمّر وجهه وخرج من الغرفة، وصاح الفنان:

- انتظر لحظة، نحن قادمان أيضًا.

---

[٧٦] «فرانشيس بازين " (١٨١١-١٨٨٨). ضابط في الجيش الفرنسي كان تحت قيادة لويس فيليب ثم نابليون الثالث والذي قاد الجيش خلال الحرب الفرنسية البروسية واتهم في الخيانة العظمى. المترجم

(4)

حين خرج الثلاثة إلى الشارع، قال طالب الطب:

- بينما كنا نرقص، أجريت محادثة مع شريكتي بالرقص. وتحدثنا عن علاقتها الأولى. وكانت مع أحد المحاسبين في سمولينسك متزوج وعنده خمسة أطفال. وكانت هي في السابعة عشرة من عمرها آنذاك، وعاشت مع أبيها وأمها اللذان يعملان في بيع الصابون والشموع.

وسأل فاسيليف:

- وكيف كسب قلبها؟

- بإنفاق خمسين روبل على ملابسها الداخلية. الشيطان يعرف كيف!

وفكر فاسيليف: «إذن هو يعرف كيف يجعل شريكته تروي قصتها. أما أنا فلا أعرف كيف».

ثم قال:

- أنا ذاهب إلى البيت!

- لماذا؟

- لأنني لا أعرف كيف أتصرف هنا. فضلًا عن أنني أشعر بالملل والإشمئزاز. ما هو الممتع في هذا؟ إن كانوا بشرًا أصلًا.. لكنهم حيوانات وهمج. أنا ذاهب، افعلا ما يحلو لكما.

وقال الفنان بصوت باكي وهو يعانق فاسيليف:

- هيا، غريشا [٧٧]، غريغوري، حبيبي... تعال! لنذهب إلى منزلٍ آخر معًا ولتأخذهم اللعنة!. أرجوك يا غريشا! [٧٨]

وأقنعا فاسيليف وقاداه إلى سلم المنزل. وفي السجادة والدرابزين المذهبة، والخادم الذي فتح الباب، واللوحات المزخرفة التي زينت القاعة، كان يظهر النمط نفسه الموجود في شارع (س)، لكن هنا محمول إلى إتقان أكبر، ومفروض أكثر.

قال فاسيليف وهو يخلع معطفه:

---

[٧٧] تدليل لاسم غريغوري.المترجم

[٧٨] في اشارة إلى شخصية الشاب غريغوري في رواية (الدخان) للكاتب الروسي «إيفان تورجينيف»، التي تحكي قصة علاقة بين شاب وامرأة متزوجة. المترجم

- أنا حقًا سأذهب إلى البيت!

وقال الفنان وقبّله على رقبته:

- هيا، هيا يا ولدي الحبيب.لا تكن متعبًا... يا غري غري، كن رفيقًا جيدًا! لقد أتينا معًا وسنعود معًا، يا لك من بهيمة بحق!

- يمكنني انتظاركما في الشارع. أشعر بالقرف هنا!

- هيا، هيا، غريشا... إن كان الأمر مقرف، فيمكنك أن تراقب ذلك، هل تفهم؟ بإمكانك المراقبة!

وقال طالب الطب بجدية:

- ينبغي على المرء أن ينظر للأمور بموضوعية.

ودخل فاسيليف إلى غرفة الجلوس وقعد. كان هناك عدد من الزوار في الغرفة إلى جانبه هو وأصدقائه؛ ضابطان من المشاة، وسيد أشيب الشعر بنظارات، وشابان أمردان من معهد الطبوغرافيا، ورجل ثمل للغاية بدا وكأنه ممثل. وذهبت الشابات مع هؤلاء الزائرين ولم يعرن انتباهًا لفاسيليف. إلا واحدة منهن كانت ترتدي فستانًا راقيًا، ألقت نظرة خاطفة على وجهه، ثم ابتسمت وقالت وهي تتثاءب:

- ها قد جاء الأسمر...

كان قلب فاسيليف يخفق واتّقد وجهه احمرارًا.لقد أحس بالخجل من وجوده هنا أمام هؤلاء الزوار، وشعر بأنه مقرف وبائس. لقد عذبه الرضوخ لفكرة أن رجل محترم ومحب مثله (كما يعتبر نفسه حتى هذه اللحظة) يمقت تلك النساء ولا يحس بأي شيء سوى بالنفور تجاههن. ولم يكن يأسف على هؤلاء النساء ولا الموسيقيين ولا الخدم.

وأخذ يفكر:

«ذاك لأنني لا أحاول فهمهم. إنهم جميعًا أشبه بالحيوانات منهم إلى البشر، لكنهم بالطبع مازالوا بشرًا، ولديهم أرواح. يجب على المرء فهمهم ومن ثم الحكم...»

وصاح الفنان قائلًا:

- غريشا،لا تذهب،انتظرنا!

واختفى طالب الطب بعد فترة وجيزة.

ومضى فاسيليف في التفكير:

«نعم. يجب على المرء أن يبذل جهده ليفهم، ولا ينبغي عليه أن يكون على هذا النحو...».

وشرع يحدّق بوجوه النساء باهتمام قلق باحثًا عن ابتسامة مذنبة. ولكن إمّا أنه لم يكن يعرف كيف يقرأ وجوههن، أو أنه لم يشعر بأن هناك من تلك النساء أيّ مذنبة، ولم يقرأ في كل الوجوه سوى تعبير غبي نابع عن الملل المبتذل العادي والاعتداد بالنفس. الوجوه البلهاء، الابتسامات الحمقاء، السماجة، الأصوات السخيفة، الحركات الوقحة، ولا شيء غير ذلك. وفيما يبدو أن كل واحدة منهن عندها علاقة في الماضي مع محاسب يدفع خمس وخمسين روبل على الملابس الداخلية، وأنها لم ترى سحرًا في الحياة سوى القهوة، والعشاء ذو الأصناف الثلاثة، والنبيذ، ورقصات الكدريل، والنوم حتى الثانية بعد الظهر...

ودون العثور أي ابتسامة مذنبة، بدأ فاسيليف البحث ما إذا كان هناك وجه ذكي واحد. ولفت انتباهه وجه واحد شاحب، وناعس إلى حد ما، ومنهك... كانت امرأة سمراء في منتصف العمر، ترتدي فستانًا مطرزًا بالخرز، وتجلس على كرسي وهي تنظر إلى الأرض وغارقة في التفكير. ومشى فاسيليف من طرف الحائط نحو الغرفة الأخرى، وكما لو أن الأمر بلا تكليف، وجلس بجانبها.

وأخذ يفكر:

«يجب أن أبدأ بشيء تافه.ثم أمضي بالتدريج نحو ما هو جاد...»

ولمس بإصبعه شراشيب شالها الذهبية وقال:

- يا له من فستان جميل.

وقالت المرأة السمراء بتراخٍ:

- أوه.. أليس كذلك؟

- من أي مقاطعة أنتِ؟

- أنا؟ من مقاطعة بعيدة... من تشرنيغوف.

- مقاطعة جميلة. إن الجو لطيف هناك.

- أي مكان يبدو لطيفًا عندما لا يكون فيه أحد.

وفكر فاسيليف:

«من المؤسف أنني لا أستطيع وصف الطبيعة، قد أثيرها بوصف الطبيعة في تشرنيغوف. لا شك أنها تحب المكان الذي ولدت فيه «.

وسأل:

- هل تشعرين بالملل هنا؟

- بالطبع أشعر بالملل.

- ولماذا لا تغادرين هذا المكان إذا كنت تشعرين بالملل؟

- إلى أين سأذهب؟ أأتسول أم ماذا؟

- التسول سيكون أسهل من العيش هنا.

- كيف تعرف ذلك؟ هل تسولت؟

- نعم، عندما لم يكن عندي المال للدراسة. حتى لو لم أتسول فأي شخص يفهم ذلك.المتسول إنسان حر على أي حال، أما أنتِ فعبدة هنا.

تمددت المرأة السمراء، ورأت بعيونها الذابلة الخادم يحمل إناءً من الكؤوس والمياه المعدنية على صينية.

وقالت وهي تتثاءب من جديد:

- أحضر لي القليل من البورت.

وفكر فاسيليف:

«البورت. وماذا لو دخل أخوك أو أمك في هذه اللحظة؟ ماذا ستقول؟ ماذا سيقولان؟ سيكون هناك بورت إذن، إنني أتخيل...».

وارتفع صوت صراخ فجأة من الغرفة المجاورة التي أحضر الخادم منها المياه المعدنية، وركض رجل أشقر بوجه أحمر وعيون غاضبة بسرعة. وتبعته المدام الطويلة القامة، التي كانت تصرخ بصوت حاد:

- لم يسمح لك أحد أن تصفع الفتيات على خدودهن! لدينا زوار أفضل منك ولا يضربون! أيها الدجال!

واعتلى الضجيج. كان فاسيليف خائفًا وشاحب الوجه. وأتى من الغرفة المجاورة صوت بكاء مرير صميم، كما لو أن هناك شخصًا قد تعرض للإهانة. وأدرك أن هناك أناس حقيقيون يعيشون هنا، مثلهم مثل الناس في أي مكان آخر، ويتعرضون بالإهانة والمعانة، ويبكون ويصرخون طلبًا للمساعدة... وتحول شعور الكراهية الجائرة والإشمئزاز إلى أحاسيس من الشفقة والغضب ضد المعتدِ. وهرع إلى الغرفة حيث كان البكاء وهو يعبر بصفوف من الزجاجات القابعة فوق طاولة رخامية، وميّز وجهًا مُعذَبًا ومبتلًا بالدموع، ومدّ يديه نحو ذلك الوجه، وتقدم بخطوة نحو الطاولة، لكنه عاد للخلف في الحال مذعورًا. لقد كانت الفتاة تبكي وهي في حالة من السُكر.

وبينما كان يشق طريقه وسط الحشد الصاخب المتجمع حول الرجل الأشقر، هبط قلبه وشعر بالخوف كالطفل، وبدا له أن الناس أردات اللحاق به وضربه وشتمه بكلمات قذرة في هذا العالم الغريب الذي لا يمكن فهمه... وسحب معطفه المعلق في الردهة وركض إلى الطابق السفلي ورأسه يسبق قدميه.

(5)

وقف فاسيليف متسندًا بجسده على السياج بجوار المنزل في انتظار أن يخرج أصدقائه. واختلطت أصوات البيانوات والكمنجات الشاذة، الحمقاء، الوقحة، والكئيبة في الهواء في جو من الفوضى، وبدا هذا المزيج للأصوات وكأنه أوركسترا خفية تضبط إيقاعها على الأسطح مجددًا. ولو تطلع المرء للأعلى نحو الظلمة، فسيرى الخلفية السوداء تتلألأ بالبقع البيضاء المتحركة: إنه الثلج يتساقط. وعندما ظهرت ندف الثلج على الضوء، التفت بكسل في الهواء مثل الريش الناعم، وظل يطوف بتراخ أكثر حتى سقط على الأرض. وكانت أكوام الثلج ملتفة بكثافة حول فاسيليف وعالقة على لحيته ورموشه وجبينه... وكان الحوذيون، والأحصنة، والمارة بيض اللون.

وفكر فاسيليف: «كيف يمكن للثلج أن يسقط في هذا الشارع! اللعنة هذه المنازل!».

بدت ساقاه وكأنهما تتفسخان من التعب، وذاك من الركض نزولًا من الأدراج، وتعذر عليه التنفس كما لو أنه يتسلق مرتفعًا، وقلبه يدق بعنف لدرجة أنه يسمع صوته. وانتابه شعور بالرغبة في الخروج من الشارع بأسرع وقت ممكن والعودة إلى البيت، ولكن رغبته الأقوى كانت في انتظار رفاقه والتنفيس عن شعوره الخانق عليهم.

كان هناك الكثير من الأمور التي لم يفهمها في هذه المنازل، أرواح النساء المحطمة مازالت لغزًا بالنسبه إليه مثلما كانت من قبل، ولكن من الواضح له أن ثمة شيء أسوأ بكثير مما كان يعتقد. إن كانت تلك المرأة الآثمة التي تجرعت السم تسمى فاسقة، فإنه من الصعب العثور على اسم مناسب لتلك اللواتي كنّ يرقصن للتو على هذا التشابك من الأصوات والتفوه بالجمل القذرة. إنهنّ لسن في طريقهن للهلاك، بل هن مهلكات بالفعل.

وأخذ يفكر «هناك رذيلة، لكن ليس هناك من وعي بالرذيلة ولا أمل في الخلاص. إنهنّ يُبَعنَ ويُشتَرينَ وينقعن في النبيذ والرجس، بينما هنَّ مثل الأغنام، غبيات، غير مباليات، وبلا فهم. يا إلهي! يا إلهي!».

كان جليًا له بأن كل مايسمى بالكرامة الإنسانية، والحقوق الشخصية، والصورة الإلهية التي في القلب، قد تم تدنيسها في مراكزهم - «وحتى النخاع كما يقول السكارى»- وإن هذا ليس بسبب صيت الشارع فقط، بل في النساء الغبيات المسؤولات عن ذلك.

ومرّت مجموعة من الطلاب، بيض من الثلج، وهم يضحكون ويتحدثون بابتهاج، ووقف واحد منهم طويل القامة، وحدق في وجه فاسيليف، ثم قال بصوت مخمور:

- واحد منا! أليس كذلك أيها العجوز؟ هاها! لا تهتم، استمتع بوقتك لا تكن مكتئبًا يا عم!

وجر فاسيليف من كتفيه وضغط على شاربه البارد وعلى وجنته، ثم تراجع مترنحًا وهو يلوح بيديه، وصاح:

- تماسك! لا تنزعج!

وركض يلحق برفاقه وهو يضحك.

وأتى صوت الفنان عبر الضجيج:

- لا تجرؤ على ضرب النساء! لن أسمح لكم! عليكم اللعنة! أيها الأوغاد!

وظهر طالب الطب عند المدخل. وتطلع يمنة ويسرى، وعندما رأى فاسيليف، قال بصوت هائج:

- أنت هنا! أقول لك أنه من المستحيل الذهاب إلى أي مكان مع ايغور! [٧٩] يا له من رجل! أنا لا أفهمه! لقد فضحنا! ألا تسمع؟

وصرخ عبر الباب:

- ايغور!

وأتى صوت الفنان الحاد يصرخ من الأعلى «لن أسمح لك بضرب النساء!». ثم تدحرج شيء ثقيل عبر الدرج. كان الفنان يسقط برأسه قبل قدميه. ومن الواضح أنه دُفع إلى الطابق السفلي.

ولملم نفسه من الأرض ونفض قبعته،و صفع بوجه غاضب وساخط بقبضته أعلى الدرجات وصاح:

- أيها الأوغاد! أيها الجلادون! يا مصاصي الدماء! لن أسمح لكم بضربهن! لن أسمح بضرب امرأة ضعيفة ثملة! أه! أيها المتوحشون!

وبدأ طالب الطب يتوسل إليه:

- ايغور!.. تعال، ايغور!. أعطيك كلمة شرف أنني لن آتي معك مرة أخرى. هذه كلمة شرف مني.لن آتي معك!

وهدأت فورة الفنان شيئًا فشيئًا، وذهب الأصدقاء باتجاه بيوتهم.

ودندن طالب الطب:

- «قوة مجهولة ضد إرادتي دفعتني إلى هذه الشواطئ الحزينة».

وانسجم الفنان متأخرًا قليلًا:

- «خلف الطاحونة... على أطلال الحاضر». ثم أتبع يقول: ياله من ثلج..يا أمنا المقدسة! غريشا!. لماذا غادرت؟.. يا لك من جبان وعجوز!».

---

[٧٩] اسم قديم مشتق من الاسم اليوناني جورجيوس. المترجم

وسار فاسيليف وراء رفاقه، وحدق في ظهورهم، وشرع في التفكير:

«واحد من أمرين؛ إما أننا نتخيل أن الدعارة شر ونبالغ في ذلك، أو أن الدعارة شرٌ كبير حقًا كما هو المفروض عمومًا، وأن أصدقائي الأعزاء هم كالكثير من ملاك العبيد، والمُنتهكين، والقتلة، مثل سكان سوريا والقاهرة، المكتوب عنهم في»نيفا». إنهم يغنون الآن، ويضحكون، ويتحدثون بكلام منطقي، لكن ألم يستغلوا الجوع والجهل والغباء؟ لقد فعلوا.. كنت شاهدًا على ذلك. ما نفع إنسانيتهم، وطبابتهم، ورسمهم؟ يذكرني العلم والفن والمشاعر السامية لهؤلاء الذين يدمرون النفس البشرية بقصة قطعة اللحم المقدد. وهي أن اثنين من قطّاع الطرق قتلا متسولًا في الغابة، وبدآ يتقاسمان ثيابه بينهما، حتى وجدا قطعة من لحم الخنزير المقدد في حافظته. فقال أحدهما: «غنيمة جيدة! لنأخذ قطعة اللحم». وصرخ الآخر بذعر: «ماذا تعني؟ كيف يمكنك فعل هذا؟هل نسيت أن اليوم هو الأربعاء؟». ولم يأكلا قطعة اللحم، وخرجا من الغابة بعد أن قتلا الرجل وهما على قناعة راسخة أنهما يحافظان على الصيام. وبنفس الطريقة، يمضي هؤلاء الرجال بعد شراء النساء في طريقهم متصورين بأنهم فنانون ورجال علم....».

وقال فاسيليف بحدة وغضب:

- اسمعا! لماذا أتيتما إلى هنا؟ هل من ممكن.. هل من الممكن أن تدركا كم أن الأمر فظيع؟ كتبك الطبية تخبرك بأن كل واحدة من تلك النساء تموت قبل الأوان بسبب المرض أو شيء ما. وأنت يخبرك الفن أنهنَّ قد مُتنَ أخلاقيًا حتى قبل أن يمتنَ بالفعل. كل واحدة منهن تموت لأن عندها في المتوسط خمسمائة رجل لتستقبلهم من وقتها. لنقل أن كل واحدة منهن قُتلت من قبل خمسمائة رجل. أنتما ستكونان من بين هؤلاء الخمسمائة! إذا قام كل واحد منكما خلال حياته بزيارة هذا المكان مائتان وخمسون مرة، فذلك يعني أن امرأة واحدة قُتلت بسبب اثنين منكم! ألا يمكنكما فهم ذلك؟ أليس أمرًا مروعًا أن يقتل اثنان منكم، ثلاثة منكم، خمسة منكم امرأة بلهاء وجائعة! آه! أليس ذلك فظيعًا! رباه!

وقال الفنان عابسًا:

- كنت أعرف أن النهاية ستكون على هذا النحو، كان علينا أن لا نذهب مع هذا المعتوه الأحمق! إنك تتصور أن عندك مفاهيم عظيمة في رأسك الآن وأفكارًا، أليس كذلك؟ لا، إن الشيطان يعرف ماذا،لكن ليست أفكارًا.أنت تنظر إليَّ الآن بكراهية واشمئزاز، لكني أقولها لك أنه من الأفضل أن يقام عشرون منزلًا آخر مثل هذه المنازل. إن في تعبيرك لرذيلة أكبر من ذاك الشارع بأسره! تعال يا فولوديا [٨٠]،دعه يذهب إلى الشيطان! إنه حمار وأحمق، وهذا كل مافي الأمر...

وقال الطبيب:

---

[٨٠] في إشارة إلى شخصية فولوديا في رواية «الطفولة «للكاتب ليف تولستوي. وهي أول رواية للكاتب. المترجم

- نحن البشر نقتل بعضنا البعض، إنه أمر غير أخلاقي بالطبع، لكن التفلسف لن يحل المسألة. سلام!

وعند ميدان تروبنايا، ودع الأصدقاء بعضهم ثم افترقوا. وعندما صار فاسيليف لوحده، أخذ يتمشى باستعجال على طول الجادة. وشعر بالخوف من الظلام، ومن الثلج الذي كان يتساقط برقائق ثقيلة على الأرض، وبدا كما لو أنه سيغطي الدنيا بأكملها، لقد أحس بالخوف من مصابيح الشوارع التي تضيء ببهوت عبر الغيوم الثلجية. واستولى على روحه ذعر يغمي القلب ولا تفسير له.

وكان المارة يتوجهون صوبه من وقت لآخر، لكنه تحرك بخجل إلى الجانب الآخر، وبدا له أن النساء، ولا شيء غير النساء، قادمات نحوه من كل حدب ويتفرسن فيه.

وفكر «إنها البداية، إنني سأنهار....».

(6)

في المنزل، استلقى فاسيليف على سريره وقال وكل مافي جسده يرتجف:

- إنهن أحياء! نهن أحياء! يا إلهي، تلك النساء أحياء!

واستجمع مخيلته بكل السبل ليتصور نفسه شقيق امرأة فاسقة، أو أبوها، ثم المرأة الساقطة نفسها مع خديها المزينين، وكل ذلك دفعه إلى الهلع.

بدا له أنه ينبغي عليه أن يحسم المسألة على الفور بأي ثمن، وأن هذه المسألة ليست بتلك المسألة التي لا تهمه، بل هي مشكلته الشخصية. لقد بذل جهدًا هائلًا، وقمع يأسه وهو يجلس على السرير ممسكًا رأسه بيديه، وشرع يفكر كيف يمكن للمرء أن ينقذ جميع النساء اللاتي رآهنّ في ذاك اليوم. إن الطريقة المثلى لمواجهة المشاكل بجميع أنواعها، بالنسبة له كرجل متعلم، هو أن يعرف عنها جيدًا. وبالرغم من كونه منفعلًا، إلا أنه التزم بشدة بهذه الطريقة. واسترجع تاريخ المشكلة وما كتب عنها، وأخذ يخطو من أول الغرفة إلى آخرها لربع ساعة ليتذكر كل الطرق الفعالة في الوقت الحاضر لإنقاذ النساء. كان عنده الكثير من الأصدقاء والمعارف مثل فالزفين وجالاشكينيا ونيشيف وإيشينا... وكان من بينهم عدد كبير من الصالحين والمتسمين بالإيثار. وقد حاول بعضهم إنقاذ النساء...

وفكر فاسيليف: «كل هذه المحاولات ليست وافرة جدًا، ويمكن أن تقسم إلى ثلاث مجموعات. البعض، بعد أن حرر المرأة من بيت الدعارة، أخذ غرفة لها، واشترى ماكينة خياطة، وأصبحت تحيك الملابس. وسواء كان الأمر طوعًا أو لا إراديًا، قد جعل منها خليلته بعد أن أطلق سراحها، ثم عندما تخرج من الجامعة، ذهب بعيدًا وسلمها في أمانة رجل آخر مناسب كما لو كانت شيئًا ما. وتبقى المرأة الساقطة ساقطة.أما الآخرون، فبعد الإفراج عنها، قاموا بأخذ مسكن لها، واشتروا ماكينة الخياطة التي لا مفر منها، وحاولوا أن يعلموها القراءة، واعظين لها ومقدمين لها الكتب. والمرأة تعيش وتخيّط طالما أن الأمر ممتع وجديد عليها، ثم تشعر بالملل، وتبدأ باستقبال رجال في الخِفاء، أو تهرب وتعود حيث يمكنها النوم حتى الساعة الثالثة، وتشرب القهوة، وتتعشى طعامًا جيدًا. أما الفئة الثالثة، فهم الأكثر احتدامًا وتضحية بالنفس، واتخذوا خطوة جريئة وحازمة. لقد تزوجوهن. وعندما تصبح الوقحة المدللة، أو الغبية والحيوانة المحطمة زوجة، وربة أسرة، وبعد ذلك أمًا؛ فإن وجودها وموقفها من الحياة كله قد تحول رأسًا على عقب، بحيث يصبح من الصعب التعرف على المرأة الساقطة بعد ذلك في الزوجة والأم. نعم، إن الزواج هو الأفضل وربما الوسيلة الوحيدة».

ورمى فاسيليف بنفسه على السرير وقال بصوت عالٍ:

«لكن هذا مستحيل! لو بدأتُ بنفسي فإنني لن أستطيع أن أتزوج واحدة منهن! يجب على المرء أن يكون قديسًا وأن يكون عاجزًا عن الشعور بالكراهية أو النفور ليقوم بذلك. لكن على فرض أنني، أنا، وطالب الطب، والفنان أسياد أنفسنا وتزوجناهن.. لنفترض أنهن جميعًا متزوجات. ماذا ستكون النتيجة؟ ستكون النتيجة أنه أثناء وجودهن هنا في موسكو، فإن بعض المحاسبين في سمولينسكي سيفسدون أخريات كثيرات، وسوف تتدفق الكثيرات إلى هنا لملئ الأماكن الشاغرة، مع أخريات من

ساراتوف، ونيجني نوفغورود، وراسو... وما الذي على المرء فعله بمائة ألف في لندن؟ وأين تذهب تلكن اللاتي من هامبورغ؟».

بدأ المصباح الذي إحترق فيه الزيت يخرج دخانًا. دون أن يلاحظ فاسيليف ذلك. وأخذ يخطو جيئة وذهابًا مرة أخرى وهو لا يزال يفكر.

وطرح السؤال الآن بطريقة مختلفة؛ ما الذي يجب فعله بحيث لا تكون هناك حاجة إلى النساء الساقطات؟ من أجل ذلك كان من الضروري أن يشعر الرجال الذين يشترونهم ويدفعونهم للموت بكل العهر من مشاركتهم في إستعباد النساء ويجدر بهم أن يشعروا بالرعب. يجب على المرء أن ينقذ الرجال.

وفكر فاسيليف «لا يمكن للمرء أن يفعل أي شيء بالفن والعلم، هذا أمر واضح.. إن السبيل الوحيد للخروج من هذا هو العمل التبشيري».

وبدأ يحلم كيف سيقف في مساء اليوم التالي عند زاوية الشارع ويقول لكل المارة: (إلى أين أنتم ذاهبون ولماذا؟ أليس في قلوبكم ذرة خوف من الله!).

وسيلتفت إلى الحوذيين اللا مبالين ويقول لهم: (لماذا أنتم واقفون هنا؟ لماذا لا تثورون؟ لما لا تغضبون؟ أعتقد أنكم تؤمنون بالله وتعلمون أن هذه خطيئة، لماذا لا تتحدثون مع أولئك الناس الذين يذهبون إلى الجحيم بسبب ذلك؟ صحيح أنهم غرباء. ولكنكم تعلمون أن لديهم آباء وإخوة مثلكم....).

ذات مرة قال أحد أصدقاء فاسيليف عنه أنه رجل موهوب. وعنده كل أنواع المواهب.. الكتابة، المسرح، الفن. لكن لديه موهبة ليست مألوفة.. موهبة إنسانية. إنه يمتلك حاسة شم خارقة وحساسة للألم بشكل عام. مثل ممثل بارع يقلد حركات الآخرين وأصواتهم، لذلك استطاع فاسيليف أن يعكس معاناة الأخرين في روحه. فعندما رأى الدموع بكى، وشعر بجانب رجل مريض بنفس المرض وتأوه، وإذا رأى أي فعل عنيف؛ فإنه يشعر كما لو كان هو نفسه الضحية، لقد كان خائفًا كالطفل، وفي خوفه ركض للمساعدة. لقد أوغرت آلام الأخرين أعصابه، وأثارته، وحركت في داخله حالة من الهيجان. وهلم جرا.

وما إذا كان هذا الصديق محقًا فلا أدري، لكن ما أحس به فاسيليف عندما اعتقد أن هذه المسألة قد تمت تسويتها كان شيئًا مثل الإلهام. لقد صرخ وضحك، وتحدث بصوت عالٍ عن الكلمات التي يجب أن يقولها في اليوم التالي، وشعر بحب شديد لأولئك الذين سيستمعون إليه ويقفون بجانبه عند زاوية الشارع للوعظ. وجلس لكتابة الخطابات، قاطعًا العهود على نفسه...

لكن كل هذا كان أشبه بالإلهام ذاك أنه لم يدم طويلًا.وشعر فاسيليف بالتعب بسرعة.إن الحالات التي في لندن، وفي هامبورغ، وفي وارسو أثقلت عليه بكتلتها كجبل يرسو على الأرض، وشعر بالتشاؤم والإحباط أمام هذه الكتلة، فلقد تذكر أنه لا يمتلك موهبة الكلمات، وأنه جبان وخجول، وأن الناس اللا

مبالين لن يكونوا مستعدين للاستماع إليه وفهمه هو طالب الحقوق في سنته الثالثة، الإنسان الخجول والتافه، ذاك أن العمل التبشيري الحقيقي ليس بإعطاء الدروس فقط، بل الأفعال...

وعندما طلع ضوء النهار والعربات تدمدم في الشارع، كان فاسيليف يرقد على الأريكة بلا حراك وهو يحدق في الفراغ. لم يعد يفكر في النساء، ولا في الرجال، ولا في العمل التبشيري. لقد تحول كل تركيزه على العذاب الذي يسري في روحه. وكان مملًا وغامضًا، عذاب مجهول يشبه البؤس، وشكل متطرف من الذعر واليأس. كان بإمكانه أن يشير إلى المكان الذي يؤلمه، في صدره، تحت قلبه، لكنه لم يستطع مقارنته بأي شيء. لقد عانى في الماضي من ألم الأسنان الحاد، وعانى من ذات الرئة وألم الأعصاب، لكن كل هذا كان ضئيلًا أمام هذا العذاب الروحي، وإن الحياة تبدو بغيضة في ظل وجود هذا الألم. الأطروحة، العمل الممتاز الذي كتبه، الناس الذين أحبهم، وخلاص النساء الساقطات.. وكل ما كان يهتم به في اليوم الماضي أو لا يهتم، قد أصبح التفكير حولهم الآن يشعره بالغضب بنفس الطريقة التي تغضبه بها دمدمة العربات، وخطوات الخدم السريعة في الممرات، وضوء النهار... وإن قام شخص ما في تلك اللحظة بعمل كبير من الخير أو ارتكب فضيحة مثيرة للإشمئزاز فإنه سيشعر بنفس الغضب لكل الفعلين. ومن بين كل الأفكار التي ضلت طريقها عبر عقله لم تزعجه إلا فكرتين فقط؛ الأولى أنه لديه القوة في كل لحظة على قتل نفسه، والثانية أن العذاب لن يدوم أكثر من ثلاثة أيام. هذا آخر ما علم به بالتجربة.

وبعد الإستلقاء لفترة، نهض وهو يعصر يديه، ومشى في الغرفة، لكن ليس من زاوية إلى أخرى كالمعتاد، بل حول الغرفة بجانب الجدران. وألقى وهو يخطو نظرة خاطفة على نفسه في المرآة. وبدا رأسه شاحبًا وغائرًا، وصدغا رأسه أجوفين، وعيناه أكبر من حجمها، وأقتم، وتحدقان أكثر، كما لو كانتا تنتميان لشخص آخر، وكان فيهما تعبير عن عذاب عقلي لا يطاق.

وعند منتصف النهار، طرق الفنان الباب.

وسأل:

- غريغوري، هل أنت في البيت؟

ووقف لدقيقة دون أن يأخذ إجابة، ثم أخذ يمعن في التفكير وأجاب نفسه بلكنة أوكرانية:

- كلا. لقد ذهب الزميل المخبول إلى الجامعة.

وذهب. واستلقى فاسيليف على السرير، دافعًا برأسه تحت الوسادة، وبدأ بالبكاء من العذاب، وكلما تدفقت دموعه دون إرادة منه، صار عذابه العقلي أكثر فظاعة. وعندما حل الظلام، فكر في تلك الليلة المؤلمة التي تنتظره، وتغلب عليه يأس رهيب. وارتدى ثيابه بسرعة، وهرب من غرفته تاركًا بابه مفتوحًا على مصراعيه، وخرج إلى الشارع دون أي هدف أو سبب، ودون أن يسأل نفسه إلى أين يجب عليه أن يذهب، ومشى بسرعة على طول شارع سادوفايا.

كان الثلج يتساقط بكثافة كيوم الأمس ويذوب بسرعة. وسار فاسيليف واضعًا يديه داخل أكمامه، مرتجفًا وخائفًا من الضجيج، ومن أجراس العربات، ومن المارة على طول شارع سادوفايا حتى برج سوخاريف، ثم اتجه فاسيليف إلى البوابة الحمراء، ومن هناك التفت إلى شارع بسمانايا، ودخل إلى حانة وشرب كأسًا كبيرًا من الفودكا، لكن هذا لم يجعله يشعر بتحسن. وعندما وصل إلى رازكولايا،التفت إلى اليمين وانطلق في الشوراع الجانبية التي لم يسبق أن كان فيها من قبل في حياته. ووصل إلى الجسر القديم الذي كانت مياه نهر يوزا تغرغر فيه [٨١]، ومنه يمكن للمرء أن يرى صفوف طويلة من الأنوار من نوافذ الثكنات الحمراء. لم يكن فاسيليف يعلم ماذا يفعل لتشتيت عذابه الروحي بإحساس جديد أو بألم آخر، كان يبكي ويرتعش، وحل أزرار معطفه السميك وسترته وكشف عن صدره العاري للثلج الرطب والرياح. لكن ذلك لم يقلل من معاناته أيضًا. ثم انحنى على سكة القطار التي فوق البرج وتطلع إلى الأسفل، صوب نهر يوزا الأسود كالخمر، وتاقت نفسه أن يغرق رأسه قبل كل شيء، ليس بغضًا من الحياة، وليس من أجل الإنتحار، وإنما من أجل أن يتلقى كدمة على الأقل، وألم واحد يخفف عنه ألمه الآخر. لكن المياه السوداء، والظلام، والضفاف المهجورة المغطاة بالثلوج كانت مرعبة. وارتجف ومشى. وسار صعودًا وهبوطًا من الثكنات الحمراء، ثم التفت إلى الأسفل نحو الأجمة، ومن الأجمة رجوعًا إلى الجسر مرة أخرى.

وفكر: «لا، البيت، البيت! أعتقد أن في البيت أفضل...»

وعاد أدراجه. وعندما وصل إلى البيت خلع معطفه وقبعته، وبدأ يخطو حول الغرفة، ثم شرع يسير ويسير بلا هوادة وتوقف حتى مطلع الصباح.

---

[٨١] أحد روافد نهر موسكو. المترجم

(7)

في صباح اليوم التالي عندما زاره الفنان وطالب الطب، كان يتحرك في الغرفة مرتديًا قميصه الممزق وهو يعض يديه ويئن من الألم.

وحين رأى أصدقاءه، انتحب قائلًا:

- من أجل الله! خذوني أينما تشاءان، افعلا ما تسطيعان، ولكن من أجل الله أنقذاني بسرعة! سأقتل نفسي!

وشحب وجه الفنان وكان عاجزًا عن فعل شيء. وكان طالب الطب على وشك أن يذرف الدموع أيضًا، لكن كون أن الأطباء ينبغي أن يكونوا باردين ورابطي الجأش في كل حالة طوارئ قال ببرود:

- إنه إنهيار عصبي.لكن لا داعي للخوف. دعونا نذهب إلى الطبيب على الفور.

وقال فاسيليف:

- أينما تحبان.لكن فقط أسرعا من أجل الله!

- لا تنفعل. ينبغي عليك أن تحاول السيطرة على نفسك.

وأدخل الفنان وطالب الطب يدا فاسيليف المرتجفتين في المعطف ووضعا القبعة وقاداه إلى الشارع.

وقال طالب الطب في الطريق:

- إن ميخائيل سيرغيتش يرغب في التعرف عليك منذ مدة طويلة، إنه رجل لطيف للغاية ويجيد مهنته بإتقان. لقد حصل على شهادته في العام ١٨٨٢، وعنده خبرة هائلة بحق. ويعامل الطلاب كما لو كان واحدًا منهم.

وقال فاسيليف ملحًا:

- أسرعوا، أسرعوا!...

واستقبل ميخائيل سيرغيتش، الطبيب البدين، وذو اللحية الشقراء، الأصدقاء بأدب ووقار شديد البرود، وابتسم بطرف وجهه فقط.

وقال:

- لقد حدثني رابنيكوف وماير عن مرضك بالفعل، وأنا مسرور جدًا لمساعدتك. حسنًا؟ اجلس، أتوسل....

وأجلس فاسيليف على كرسي قرب الطاولة، وحرك علبة السجائر نحوه.

وبدأ يمسّد ركبتي فاسيليف قائلًا:

- والآن! دعنا نبدأ العمل.. كم عمرك؟

وقام بطرح الأسئلة وأجاب طالب الطب عليها.وسأل ما إذا كان والد فاسيليف قد عانى من بعض الأمراض الخاصة، وما إذا كان يحتسي الخمر بكثرة، ويميل إلى القسوة أو شيء من هذه الخواص. واستفسر بأسئلة شبيهة عن جده، وأمه، وأخواته، وإخوانه. وعندما علم أنه كان لوالدته صوت جميل وأنها كانت تمثل على المسرح في بعض الأحيان، صار أكثر حيوية مباشرة، وسأل:

- المعذرة، لكن ألا تتذكر، لربما كان لوالدتك شغف للمسرح؟.

ومضت عشرون دقيقة. كان فاسيليف منزعجًا من الطريقة التي استمر بها الطبيب في تمسيد ركبتيه والتحدث عن نفس الشيء.

وقال:

- على حسب ما أفهم أسئلتك يا دكتور، أنت تريد أن تعرف ما إذا كان مرضي وراثي أم لا.أليس كذلك؟.

وباشر الطبيب في سؤال فاسيليف ما إذا كان لديه رذائل سرية في صباه، أو أصيب بجروح في رأسه، وما إذا كان لدي أي اضطرابات، أي خصوصيات، أو ميول استثنائية. يمكن على المريض ترك نصف الأسئلة التي يطرحها الأطباء عن مرضاهم بلا إجابة ودون أدنى تأثير سيء على الصحة، لكن ميخائيل سيرغيتش، وطالب الطب، والفنان بدوا جميعًا وكأنه إذا فشل فاسيليف في الإجابة على سؤال واحد فإن كل شيء سيضيع. وبينما كان يتلقى الأسئلة، لاحظ أن الطبيب لسبب ما كان يكتبهم على قصاصة ورق. وعندما علم أن فاسيليف قد حصل على شهادته في العلوم الطبيعية، وأنه يدرس القانون الآن، أخذ الطبيب في التأمل.

وقال طالب الطب:

- لقد كتب عملًا أصيلًا من الدرجة الأولى في العام الماضي.

وقال الطبيب وهو يبتسم بطرف وجهه:

- أستميحك عذرًا، لكن لا تقاطعني، أنت تمنعني من التركيز. وعلى الرغم من ذلك، وبطبيعة الحال، إن هذا الأمر يدخل في تشخيص الداء. التفكير الحاد، الارهاق العصبي.. نعم، نعم..

وأكمل مخاطبًا فاسيليف:

- هل تشرب الفودكا؟

- نادر جدًا

ومرت عشرون دقيقة أخرى. وبدأ طالب الطب بإخبار الطبيب بصوت خافت عن رأيه بشأن السبب المباشر لما أصابه، ووصف كيف قام هو والفنان وفاسيليف قبل يوم الأمس بزيارة شارع س.

وجعلت النبرة الغير مبالية، المتحفظة، والشديدة البرود حول ما كان الطبيب وأصدقائه يتحدثون عن النساء وذلك الشارع البائس فاسييف يشعر بأنه غريب للغاية...

وقال وهو يسيطر على نفسه كي لا يتحدث بوقاحة:

- يا دكتور، قل شيئًا واحدًا فقط. هل الدعارة شر أم لا؟

وقال الطبيب وارتسم تعبير شخص حبس كل هذه التساؤلات لنفسه منذ مدة طويلة:

- زميلي العزيز، من يعارض ذلك؟ من يعارض ذلك؟.

وسأل فاسيليف بشكل مفاجئ:

- أنت أخصائي بالأمراض العقلية،أليس كذلك؟

- نعم، أخصائي أمراض عقلية.

ونهض فاسيليف وبدأ يتمشى من أول الغرفة إلى آخرها، وقال:

- ربما أنتم جميعًا على صواب! ربما! ولكن كل هذا يبدو عجيبًا بالنسبة لي! ينبغي أن أحصل على شهادتي في كليّتين وتنظر للأمر على أنه إنجاز رائع، لأنني كتبت عملًا سيكون مرميًا ومنسيًا خلال ثلاث سنوات، ومدحت السماوات، لكن لأنني لا أستطيع التحدث عن النساء الساقطات على نحو غير مبالي مثلما أتحدث عن هذه الكراسي، فإنني أخضع للفحص من قبل طبيب، ويقال عني مجنون،وأكون مثيرًا للشفقة!

وشعر فاسيليلف لسبب ما بالأسف الشديد على نفسه، وعلى أصحابه، وعلى كل الناس الذين رآهم قبل يومين، وعلى الطبيب، وانفجر في البكاء واستلقى على الكرسي.

ونظر صديقاه إلى الطيبيب نظرة الباحثين عن تفسير. وقام الأخير، مع جو من التفهم التام للدموع واليأس، وشعوره بأنه متخصص في ذلك المجال، وتقدم نحو فاسيليف، ودون أن ينطق بكلمة، أعطاه بعض الأدوية للشرب، وبعد ذلك، عندما أصبح أكثر هدوءً، أخلعه ملابسه وبدأ بالتحقق من درجة حساسية الجلد، ورد فعل الركبتين، وما إلى ذلك.

وأحس فاسيليف بالراحة أكثر. وعندما خرج من عند الطبيب كان قد بدأ يشعر بالخجل، ولم تعد دمدمة العربات تثير غضبه، وأصبح الحمل في قلبه أخف ثقلًا كما لو أنه يذوب. وصار لديه وصفتين طبيتين في يده؛ الأولى مهدأ للاعصاب، والثانية مورفين.. وكان قد تعاطى كل هذه الأدوية من قبل.

ووقف في الشارع بلا حراك وهو يودع صديقيه، وجر نفسه بضعف إلى الجامعة.